كمال الحاج - فلسفة اللغة



فلسفة اللغة

كمال يوسف الحاج



دار النشر للجامعيين

طبع من هذا الكتاب خمس وعشرون نسخة مرقمة مـــن
١ الى ٢٥ غير معدة للبيع :

إلى

الذي علّمني أن للقلب الواحد لساناً واحداً

إلى

روح والدي

في البدء كان الكلمة

انجيل يوحنا

ظهر للمؤلف

رسالة في معطيات الوجدان البديهية ، لهنري برغسون ، ترجمة

رينه ديكارت . ابو الفلسفة الحديثة

هنري برغسون . مجلدان .

فلسفيات الجزء الاول

فلسفة اللغة .

سيظهر

فلسفيات الجزء الثاني

فلسفة الانسان

كلمة لا بدّ منها

كان ذلك سنة ١٩٤٥ . حملنا الهوى ، عا مذاك، على ان نترجم رسالة برغسون في معطيات الوجدان البديهية(١). لم يكن ميلنا ، بادىء بدء ، الا ان نعبر في لساننا القومي عن خاطرة الفيلسوف ، بصدق وامانة . ولكننا فوجئنا بصدمة . لقد ثبت عندنا اننا نطارد مستحيلا ... ان الخاطرة البعيدة يعسر نقلها كاملة من اللسان ، الذي تكون قد وُضعت فيه اصلاً . لكم تفلتت الخاطرة البرغسونية، من يدنا ،حتى اوقفنا اللحاق بها. واخيراً سرنا بالتقريب، والتوفيق، بين لسان من بلادنا ولسان من بلادهم . اذ الترجمة الكاملة خيانة حقاً للفكر الاصيل .

هذه الاستحالة ، ماذا تكون ؟ اهي عرَض من اعراض الفكر ... ام محض من محاضه ؟ اهي قشرة من قشوره ... ام لبّ من البّه ؟ اما نحن فقد اعتبرناها من قاعه . اعتبرناها دليلا قاطعاً الى ان اللطافة الادبية لا يمكن اجلاؤها عن مسكنها الاول . من العبث ، والحالة هذه ، ان نستقطب فكرةً عاريةً لا تقرعها الشفاه ... لا يصورها القلم... فكرةً لا تكون حواراً . ان شأن الوجدان ، مهما رقّ ودقّ ، هو دائماً وابداً في شأن اللسان .

• • •

ذاك ما علمناه من تلك التجربة ، التي كانت بداية رحلتنا الى حيث نحن ، في هذا الكتاب . والغريب هنا ، ان الفلاسفة والمترجمين لا يعيرون القضية

١) Essai sur les Données Immédiates de la Conscience.

بالغ اهتمامهم . وهكذا تبقى معضلة الترجمة على الرف ... تبقى في مصاف الامور الذهنية ، التي لا تستحق الجدة . لقد جهلنا ثقلها في ميزان الحيـــاة ، ولذا لم يزاولها الا كتبة صغار . اما الاعيان ... اما شيوخ القلم ...: فقـــد ازدروا بها ، لانهم لم يدركوا مداها الفاعل . لكنّ واحداً من دهاقين الدواة، وعشاقها ، عند الفرنسيس ... نعني اندره جيد ... وعى غورها ، لما زاول ديوانها بضراوة . داورها بنهم ، وحنكة ، رغبةً منه في تلمس خبايا اللغـة البشرية . وكم اسف ان لا يكون قد دوّن تجاربه الخاصة ، في مفكرة ، جل همها ان تتناول – وهو يترجم – ما يبين له من نور يكشف الغطاء عن جوهر الحرف (١).ولم يتنكب هذا المحبّرالملفانعن ان يصرخ قائلا: لا تدعواصعا ليك الدواة يترجمون . انهم اقزام، وفي الترجمة فعلُ مرجلة ،وتحد. انها عمل المردة ، لا يقوم بها غير الاديب الاديب . هذا إن عدل ، ولن يعدل .

* * *

اما استخفافنا بها فهو عائـــد الى فاصل نخطه بين المعنى والمبنى ... الى اعتبار الاول من بسط الروح ،والثاني من قبض الجسد. الاول عقليّ ثابت على الزمان ، الثاني طبيعي بائد مع الزمان . هذا الاطلال السكوني على بحت اللغة، هو الذي يدفع الكتبة الى الناحية العملية ، من الترجمة ، اي الى فعل الكتابة ، بفحواه التجاري . ولكن صوبها الانطولوجي ... كعلاقة الفكر بالكلمة ،وما ينتج عنها من اتحاد وعداء ... هذا الصوب العريض ، رموه بعيـــداً - اما نحن فقد وقفنا عنده مطرقين . علمنا بفضله انه لا وجود لفكر غير مكلمن . قد تتغير الكلمة بتغير اللسان ... فتكون هذا ، او ذاك ، او ذلك ... لكن يستحيل على الفكر ان يتوجد عارياً بدون لسان . ان الفكر ، الذي لا يتمظهر

---

١) راجع كتابه Divers ص١٩٠ Gallimard ١٩٣١ .

في هذه الكلمة ، او تلك ، هو محض خواء ... محض انعدام . النزعة المثالية فينا ، هي الـتي تحدونا على الجري خلف الغيبيات الماورائية ، دون مرتكز قدمي ههنا . لكنه اندفاع فاشل خلف دخان الوهم . ان قمم السماء في اقبية الارض . وعالم المثل غير قائم وراء الغمام ، بل في التراب الذي نحن منه .

من ترجم ، زاول اللغة في امدى شروشها ... زاول الفكر من اعلى اعاليه . الترجمة الترجمة اختبار ضخم لبديهيات الفكر الصافي . بها نستشرف رابعة نهاره . وهو الدليل الاقطع الى ان اللغة تجربة فلسفية . هي ليست من عنديات اللغويين ، لأن البحث فيها حوم على الانسان ، الذي يتكلم اللغة – اذ لا لغة بدون انسان – وكل بحث في الانسان هو اختبار فلسفي شبيع : نعني ان اللغة لم تكن بعد ان سوّي الانسان انساناً . هو لم يأت من قبلها . لقد وجدت اللغة منذ ان جُبلت لطيفته . كانت منذ ان كان . بها قوامه ، وبقاء نوعه . انها في مغارس قلبه ، الذي يندفع الى الكلام بحاجة طبيعية ، رُكّيت في صماصيم جوارحه . الانسان لاغٍ ، بالاصل ، واللغة من اولى ملكاته . هي تنبثق من ذاته ، بل من ذات ذاته ، انبثاقاً حياتياً . ولهذا كان منطقها منطق النبضة البشرية ، لا منطق اللغويين ، والمجامع اللغوية ... منطقها منطق السليقة الكينونية . لذا كانت من المعضلات المحسوبة على الانسان ، منذ البداية ... من المعضلات النخّاسة ، التي رُكزت في حشاشته . ومن هنا بقاؤها جارة الانسان بيتَ بيت . اذن هي غاية .

* * *

لقد آمنا بأن لا فرق بين فكّر وعبّر ... بين عقَل ونطَق ... آمنا بأن اللغة أبعد افعولات الانسان . لا مطلب للوجدان المتسامي ، بمعزل عن حركة اللسان . اذا انحطت الكلمات ، انحطت الذهنيات ، وتعطلت النوايا في النفس :

واذا انجلت الكلمات ، انجلت الذهنيات ، واستقامت النوايا في النفس . هذا الايمان هو الذي كتبنا على ذاتنا أن ننشط لأجله، ونداب . وسنظهره في ثلاثة فصول : **الاول جوهري** . يبّين لنا ان اللغة غاية لا واسطة . ومعنى هذا ان شأن الوجدان في شأن اللغة . الوجدان ــ عيناً ــ لا يكون بدون لغــة ... اللغة ــ اساساً ــ لا تكون بدون وجدان . ان القطع بينهما فناء محتوم للاثنين معاً . **الثاني وجودي** . يبّين لنا ان جوهر اللغة في وجود اللسان . ومعنى هذا ان اللغة جوهر عام لا يتسنى له الوجود ، إلا في حيّز خاص . وجود اللغة لا يكون تاماً الا في لسان واحد . وبعبارة اوضح ، ان الانسان لا يُجيــد الاجادة الكاملة غير لسان واحد ، هو ما رغبنا في تسميته باللغة ــ **الام** . **الثالث تطبيقي** . يبين لنا ان مــا اطلق عليه خطأ اسم ازدواجية العامية والفصحى ، في العربية ، هو خاصة من خصائص كل لغة بشرية ، منذ اقدم العصور حتى اليوم . هذه الازدواجية ليست من عنديات لساننا فقط . ان الذين يريدونها من سوس العربية ، ليس إلا ، لا يرتكزون على اساس علمي فلسفي . فقدان هذا الاساس هو الذي اضلّنا السبيل القويم .

* * *

ذلك هو مدار قطبنا ، في هذا الكتاب ... اللغة التي يمكن اعتبارها ارقى مظاهر النشاطات في الوجدان . وقد يأخذ العجبُ قارىءَ هذا الكتاب ، اذ يرانا نشدد بروح فلسفية على خطورة اللغة ــ الام ، في تكوين شخصية الانسان الواعية . يقيناً ان هذا العجب ناتج عن الاعتقاد بأن اللغة واسطة لا غاية ... بأنها عاجزة عن اداء قصيّات الوجدان بزخم، وكمال. ولجهلنا امر اللغة ــ الام تاريخ طويل ، يعود بدؤه الى ماض بعيد ، لا نريد ان نأتي على سفر تكوينه، ومراحل تطويره. ان غايتنا الاولى هي ان نُظهِر الخطأ الفلسفي، الذي نرتكبه، عندما نهوّن امر اللغة ــ الام ، كاختبار لساني يجب ان يحتل المركز الاول بين

الألسنة المتكلمة . ايماننا ان اللغة غاية لا واسطة . اذا تعطلت في الانسان ، تعطلت انسانيته . وايماننا ايضاً ان للقلب الواحد لساناً واحداً ، يكشف به عن كتمات فؤاده ، وخطرات فكره ، وهسهسات وجدانه . فالذي يقطع لسانه بيده ، ينحر نفسه مختاراً . ومن ذا الذي يدفع بنفسه الى الوراء ، ليشابه الحيوان في جهله ، والنبات في سكونه ، ثم يدعي انه محسوب وقفاً على الحياة ، بقدر كبير من الروح ، والعقل ، والجمال ؟

كمال يوسف الحاج

بيروت في ١ كانون الاول ١٩٥٦

الفصل الأول

في جوهرية اللغة

الباب الأول

في تاريخية المعضلة

لكل معضلة فلسفية ، في سجل الفكر الانساني ، ماض عامر بالمجاذبات الجدلية . تلك المجاذبات تكثر ، او تقل ، بنسبة ما ترتبط المعضلة بصاميم الانسان . ان المعضلة التي لا تكون هي ذاتها الانسانَ ، ولا تتجاذب العقولُ في سبيل حلها ... دون ان تدرك ذلك الحلّ ... هذه المعضلة هي من ترّهات الوجود . هي من خارج اللطيفة البشرية . المعضلة المعضلة هي التي تتناحر الاقلام على عتبتها ، ويثار غبارها في كل جيل . مشاكل العلم وحدها تلاقي اجماعاً كلياً ، وحلولاً كاملةً . ذلك لأن موضوعها من الارض ، او من نمط الارض . موضوعها كل شيء يخضع للكم . ولهذا حرمت قدسية التاريخ .

اما المعضلات الفلسفية فهي تتفجر من اقبية الانسان . هي الانسان عينه ، والانسان رجراج القوالب . ميزة هذه المعضلات ان لا يُتفق عليها اجماعاً . ولذا كان لها تاريخ حافـــل بالمناظرات الحادة . تاريخ يدل الى انها من باب الحياة ، والحياة لا يعلّبها الذهن المتمنطق . اذن ، كل جيل... بل كل انسان ... ينبغي له ان يعانيها بشدة جارحة . وهل الانسان إلا الحل ، الذي يستخرجها به ؟ ولهذا رافقته منذ بدايته ، وسترافقه حتى نهايته . مـــا يقال اليوم ، قيل بالامس . وما يقال غداً ، نقوله نحن . ان الاكتشاف غير كائن في عالم الفلسفة .

اجل ، ان عدد المعضلات الفلسفية مجمّد . وهي محسوبة على الأنسان ، منذ البدء . من الخطأ الاعتقاد ، والحالة هذه ، اننا نجابه اليوم قضايا لم تخطر ببال احد ، في الماضي . ان المعضلة التي لا تنسم بميسم البدء ، مع الانسان ، اي التي لا تكون قديمة قدم الانسانية ، والتي لا تتسايف الاذهان حولها ... بغية حلها بلا امل ، فاذا بها تطرح مجدداً على بساط البحث مع كل جيل ... قلنا هذه المعضلة ليست من عندياتنا الادمية . عظمة الفكر الاكبر هي في كيف حلوله ، لا في كم معضلاته . والحلول هي التي تكوّن تاريخه المقدس . لذا وجب علينا ان نلتفت الى الوراء ، كي نجيد السير الى الامام ، في خطواتنا اليقدومية نحو الحقيقة .

نقول هذا لأن المعضلات الكبرى تعكس مطلق الانسانية . والانسانيةلا تعلّب في عصردون عصر . الانسانية هي تلك السلسلة المترابطة الحلقات ، التي تتمطى مع الاجيال، منذ ان كان الزمان الانساني.هي تلك الديمومة الراسخة، التي امتدت مع البداية ، وما زالت . هي تلك الوحدة الانسانية الواحــدة ، في توعها ، خلال الدهور . لذا كانت معالجة المعضلات الكبرى تفرض علينا الرجوع الى الفلاسفة القدماء، لا للاقتباس بما قالوه حرفاً ، ولكن للسير في خطىاستجرائهم على حل تلك المعضلات بخلق ، وزخم ، وصرامة . ان التاريخ معاد معنوي : من هنا كان الرجوع الى الماضي ، لا يجبرنا على التقيد بحرفه . غاية هذا الرجوع ان نتحكم بالحاضر ، لنكون اسياد المستقبل. ان التاريخ تطور خلاق . من أجل هذا وجبت العودة الى دفاتر ماضياته ، بغية انارة دروبنا نحو آتياته . ان بنوتنا للتاريخ هي في سبيل ابوتنا له .

• • •

واللغة هي من تلك المعضلات الفلسفية الضخمة ، التي حفــل تاريخها بالمجاذبات الحادة . هذه المعضلة لا يمكن درسها ، الا بالرجوع الى تاريخها .

وتاريخها مديد في العصور الماضية . يبدأ صراحةً مع الاغريق، ويمر بالمتوسطين شرقاً وغرباً ، ويصل دون ان ينتهي الى عصرنا الحديث . عرض هذا التاريخ ، مفصلا ، يُخرجنا عن موضوع الكتاب . لذا نكتفي بأن نبين الخطوط الاربعة ، التي رسمها تاريخ اللغة ، منذ القديم حتى اليوم .

* * *

١

يدور الخط الاول على السؤال التالي : أبإمكان الاسماء ان تعبّر عن حقيقة الاشياء ؟ عندما نقول « باب » هل تستطيع هذه الحروف ان ترسم جوهر الشيء المادي ، الذي ندخل بواسطته ، ونخرج ؟ جليّ ان العلاقة ، ههنا ، محصورة بين اللغة والمواجيد الخارجية . وقد تجسّمت ، بوضوح ، في الحوار الذي اعدّه افلاطون بعنوان « قراطيلس » .

كان افلاطون اول الفلاسفة القدماء ، الذين وعوا خطورة هـذه المعضلة . اول الذين رغبوا في ان يعالجوها بدقة. طرقها ، قبله ، هرقليطس وديمقريطس. وقد شاعت نظريتاهما في كل بلاد اليونان . لكنهما لم يجعلاها مدار بحث مستقل كاف : اما افلاطون فقد امتشقها من قلب الحياة . اعتبرها من اوابد الفكر الانساني . ولهذا اقام لها جناحاً خاصاً في عمارته الفلسفية .

طرح السؤال المذكور ، واجاب عنـه بنظريتي هرقليطس وديمقريطس ، اللتين كانتا شائعتين في زمانه ، حول منشأ اللغة. وقد وضع على لسان قراطيلس نظرية الهرقليطيين ، وعلى لسان هرموجينس نظرية الديمقريطيين. كان هرقليطس يزاول كثيراً تحليل الاسماء ، باهتمام لا ينثني ، اعتباراً منه انهـا تنطق بماهية

الأشياء عينها . وقد عبّر قراطيلس عن هذه النظرية بما يلي :

يوجد ، بالطبيعة ، اسم صحيح لكل كائن في الحياة . اذ الكلمة ليست تسمية ، يطلقها البعض على الشيء ، بعد التواطؤ ... ولكن ثمة ، بالطبيعة (لليونانيين والبرابرة) طريقة صحيحة للتدليل على الاشياء، هي ذاتها لجميع الناس (١).

هــذا القول يرينا كيف ان الكلمات تُظهر باطن المادة ... كيف ان عـلم الاسماء يقودنا الى علم الاشياء . متى عرفنا حقيقة الاسم ، عرفنا جبراً حقيقة المسمّى . وهكذا ننتقل حتماً من دائرة اللغة الى دائرة الفلسفة ... من الكلمات الى الماهيات. وتوسعاً بهذا المبدأ ، انتهى هرقليطس الى القول بأن الاسماء تُعطى من قوة الهية . ولذا جاءت وقفاً على المسميات . تلك هي التوقيفية في اللغة .

اما ديمقريطس فقــد اعتبر منشأ اللغة عملية تواطؤية ، لان الاسم الواحد ذاته كثيراً ما يقبل عدة اسماء ... ولان الشخص الواحد ذاته يظل هو هو ، رغم تطوره او تنازله عن اسمه. وقد عبر هرموجينس عن هذه النظرية فيما يلي:

ان الاسم الذي نطلقه على الشيء ، هو الاسم الصحيح. فاذا استعضنا عنه ، اتى الثاني صحيحاً كالاول. نغير اسماء عبيدنا ، بدون أن يكون الاسم الجديد اقل حظاً في الدقة من السابق. ذلك لأن الطبيعة لا تاخذ على عاتقها ان تطلق اسماء خاصة على اشياء خاصة. التسمية وليدة التكرار ، والعادة ، عند الذين زاولوا فعلها (٢) .

هــذا القول يرينا كيف ان الكلمات لا تظهر باطن المادة ... كيف ان علم الاسماء لا يقودنا الى علم الاشياء ... لا يسوقنا الى الماهيات . وتوسعاً بهذا المبدأ ، انتهى ديمقريطس الى القول بان الاسماء تُعطى من لدن الانسان ، لا من لدن قوة الهية . ولذا جاءت تواطؤاً . تلك هي تواطؤية اللغة .

اما رأي افلاطون فقــد كان بين بين . تراوح بين التوقيفية والتواطؤية . فسيراً في خطى هرقليطس،نراه يرفض ان تكون الأسماء وليدة الاتفاق العابث. على الاسم ان يشير الى المسمّى . ولكي تحصل الإشارة ، يجب ان يكون ثمة محــاكاة بينهما . لكن افلاطون لم ينزلق في منحدر التطرف . فهو لا يدين

---

١) Cratyle تأليف Platon . نقله الى الافرنسية Louis Méridier ص٤٩ . الناشر Budé ١٩٣١

٢) Cratyle ص ٥٠ .

بالتوقيفية ، التي قال بها هرقليطس . وبهذا يمد يده الى ديمقريطس . والا كيف يمكننا ان نفسّر وجود الخطأ ؟ اذا كانت قوة الهية هي التي تطلق الاسماء على الاشياء (والقوة الالهية هـــذه صادقة) فمن أين يأتي الخطأ ؟ ان بعض الاسماء يشير الى ضدين ، في آن واحد . فهل يُعقَل ان يغالط الاله ذاته ؟ ان الالفاظ هي الجالبة للفساد . من هنا منشأ الضلال . ولذا ينبغي ان ننطلق دائماً من الاشياء عينها ، لا من الكلمات التي تشير اليها . الكلمات كالزئبق لا تستقر على ركيزة واحدة . في حين ان الحقيقة ثابتة لا تقبل تغييراً ، ولا تبديلا .

* * *

جـــاء القرن الوسيط ، فاعتبر الغربُ المسيحيُّ ان منشأ اللغة توقيفي ، من لدن الله ، باعتبار ان الذي قالـه سفر التكوين هو منتهى الكمال . اللغة وحي من السماء . جاء في سفر التكوين ما يلي :

وقال الرب الاله، لا يحسن ان يكون الانسان وحده ، فاصنع له عوناً بازائه.وجبل الرب الاله من الارض جميع حيوانات البرية ، وجميع طير السماء، واتى بها آدم ليرى ماذا يسميها. فكل ما سماه به آدم من نفس حية فهو اسمه.فدعا آدم جميع البهائم وطير السماء،وجميع وحش الصحراء باسماء (١) .

وعلى اساس هـــذه القاعدة افتتح القديس يوحنا انجيله بقوله ... في البدء كان الكلمة ... ذلك القول الذي اسال الكثير من المداد ، تعليلاً وتجريحاً ، ولم يأخذ ملء فحواه الا عند القديسين اغسطينوس وتوما الاكويني . امـــا القديس غريغوريوس فقد حاول ان يجمع ، كافلاطون قبله ، بين التوقيفية والتواطؤية . قال :

ان يكون الله قد وضع في الطبيعة البشرية كل ملكاتها المالوفة ، فهـذا لا يعني أنه علة كل الافعال المباشرة ، التي نقوم بها. اجل،لقد وضع فينا ملكة بناء البيت، كما وضع فينا الملكات المحققة للافعال الاخرى. لكننا نحن البانون لا هو. وهكذا قل عن اللغة.فهي،قوة ، عمل الذي جبل طبيعتنا . الا ان خلق الاسماء للاشياء يعود الى الانسان وحده (٢)

* * *

---

١) العهد القديم . سفر التكوين . الفصل الثاني ، عدد ١٨ — ٢٠ .

٢) راجع كتاب Histoire de La Philosophie تاليف P. Janet و G. Seailles ص ٢٣٢ . ١٩٤٢ Delagrave .

لم تأخذ اللغة مجدها الا في الشرق الاسلامي . ذلـــك لان القرآن معجزة النبي . وهو ذات بيان لن يؤتى بمثله . « قلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ». لقد تحدى القرآن اهل البيان بلهجة قارعة ، وعبارات واخزة . تحداهم ان يأتوا بسورة واحدة من سوره، فكان ما سمي بالاعجاز، الذي اسال بحاراً من المداد ، دون ان يقدر احد على ان يفعل مثله . وقـد تضاربت آراء علماء العرب ، كما تضاربت آراء غيرهم ، في معضلة اللغة .

منهم من قـــال بالتوقيف ، اي بأن الالفاظ تدل الى المعاني بمناسبة طبيعية . فلو وُضع لفظ الماء على الحجر ، ولفظ الحجرعلى الماء ، لما صحّ هذا الوضع . ذلك لان اللفظ لا يكون بطبعه دالا على نقيضين ، في آن واحد . اذا عرفنا تاريخ اللغة ، عرفنا حقيقة الوجدان . مثَل هذه الفئة مثَل من يقول : ان في حروف كلمة حجر (الحاء ، والجيم ، والراء) جوهر الشيء المادي ، الذي لا يمكن لغير هذه الحروف ان يعبر عنه التعبير التام . قال ابن فارس ، وهو من مؤيدي مذهب التوقيف ، ما يلي :

اعلم ان لغة العرب توقيف ، اي وحي . ودليل ذلك قوله تعالى، وعلم آدم الاسماء كلها (١) .

وقال صاحب كتاب شرح الاسماء :

لا بد من التوقيف في اصل اللغة الواحدة، لاستحالة وقوع الاصطلاح على اول اللغات، من غير معرفة المصطلحين بما اصطلحوا عليه (١).

ومنهم من قـــال بالتواطؤ ، اي بأن الالفاظ هي من وضع أرباب اللغة ، واصطلاحهم . تنبعث داعية واحد الى وضع هذه الالفاظ ، حيال معانيها ، كما يعرف الاخرس ما في وجدانه بالاشارة ، وكما يفعل الوالدان مع الولد الرضيع . مثَل هذه الفئة مثَل من يقول : ان واضع اللغة شخص صعد المنبر ، ونادى بأعلى صوته ، لقد وضعت هذه الاسماء لتلك المسمّيات ، ثم راح يعدد ويسرد الكلمات . فما على الامة الا ان تتبعه، فتبعته . قال ابن جني ، وهو من

١) راجع البستان المجلد الاول - مقدمة الكتاب ص ١٠

مؤيدي مذهب التواطؤ ، ما يلي :

اكثر اهل النظر ، على ان اصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح ، لا وحي وتوقيف. ذلك بان يجتمع حكيمان او ثلاثة،فصاعداً،فيحتاجوا الى الابانة عن الاشياء المعلومات،فيضعوا لكل واحدة منها لفظاً،اذا ذكر عرف به مسماه، ليمتاز عن غيره، ويغني بذكره عن احضاره الى مرآة العين ، فيكون ذلك اقرب واخف واسهل من تكلف احضاره ، لبلوغ الغرض في ابانة حاله (١) .

هذه الفئة الثانية تحدد اللغة بالكلام المنطوق ، المقصود به مجموعة من الحروف الصوتية، التي تقرعها الشفتان . قرع الشفتين ، اذن، هو المقياس الذي تعرف به اللغة . على هذا الضوء تصبح اللغة امتداداً سمعياً ــ صوتياً في الخارج للوجدان الباطني ، اي مظهراً من مظاهره الفضائية . هي ليست الوجدان الباطني ، وانما اداة فقط ــ او واسطة ــ يندفع بها من الداخل الى الخارج : هناك الوجدان اولا (اي العلة) وهناك اللغة ثانياً (اي المعلول) . بذلك تصير اللغة واسطة لا غاية ، اي مجموعة من النبرات الصوتية ، التي تواطأ الناس عليها ، فكانت اصطلاحاً . لهذا نراها تختلف باختلاف الزمان ، والمكان ، وتقصر عن اخراج الوجدان كله . اذا عرفنا تاريخ اللغة ، لا نعرف حقيقة الوجدان .

وذهبت فئة ثالثة (ديدنها التوفيق بين التوقيفية والتواطؤية) ــ من اربابها القاضي ابو بكر وغيره من المحققين في شؤون الكلام ــ ذهبت الى ان كل واحد من هذين المذهبين ممكن وقوعه . فقوله تعالى « وعلم آدم الاسماء كلها » يعني ان التعليم قد حصل بالالهام ، اي بالقوة . لقد وضع الله في الانسان ملكة الخلق ، ثم تركه يخلق على هواه . واذا سلمنا ان الاسماء قد اعطيت لادم بالتوقيف ، فان الذين جاؤوا بعده لم يوقفوا عليها . لقد اصطلح اولاده من بعده على لغاتهم . الدليل على ذلك قوله : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان

---

١) راجع البستان المجلد الاول . مقدمة الكتاب ص ١٠ .

قومه » . هذا برهان عن ان اللغة وُضعت في الانسان بالالهام (اي بالقوة) لا بالخطاب (اي بالفعل) [1] .

* * *

٢

ظلت معضلة اللغة تسترعي انتباه الفلاسفة المحدثين ، وتستحق منهم العناية والتقصي . ولكن المحور ،الذي كانت تدور عليه ، تغير بعد ان ثبت للفلاسفة اهمية العالم الباطني . هنا ، في الخط الثاني ، تدور المعضلة على السؤال التالي : ابامكان الالفاظ ان تدل تمام الدلالة على المعاني الداخلية ، او انها تقصر عن تصريف كل ما في الوجدان ؟ عندما اقول «أحب» هل تستطيع هذه الكلمة ان ترسم،باحرفها الاربعة ، جوهر الحالة النفسية التي يتناغم فيها المحب مع قلب آخر ؟

جليّ ان العلاقة ، ههنا ، محصورة بين اللغة ومواجيد الباطن ... وان المعضلة الاولى لم تنتف بهذا السؤال الثاني ، وانما ارجيء حلها فقط . فقد انتقلت من البحث في اصول الشيء الى البحث في اصول الوجدان . ومعلوم ان الاراء لم تجمع ، في هذا المجال ايضاً ، على حذو واحد . منهم من آمن بان العلم بمواقع الالفاظ لا يفيدنا كل الافادة عن حقيقة الوجدان . بذلك تصبح اللغة واسطة لا غاية (لوك Locke). ومنهم من آمن بان العلم بمواقع الألفاظ يفيدنا عن حقيقة الوجدان ، لان اللفظ يعبر عنه تعبيراً كاملا . بذلك تصبح اللغة غايــة لا واسطة (دي بونالد De Bonald) . ومنهم من وقف بين بين (ليبنتز Leibnitz)

* * *

---

١) راجع كتاب الاحكام في اصول الاحكام . تاليف سيف الدين الآمـدي . الجزء الاول ، القسم الثاني ، مصر ١٩١٤

يعتبر لوك ، من اكابر فلاسفة الانجليز ، في القرن السابع عشر . خصص لمعضلة اللغة فصولاً طويلة ، ضمنها كتابه الضخم « بحث في المدارك البشرية » حيث تبنى الروح التجريبية . وقد كان من اشد الذين لاحظوا الروابط المتينة الكائنة بين اللغة والفكر . في رأيه ان العلاقة بينهما اكثر من احتكاك براني . علاقتهما من الداخل . ولا نستطيع نحن ،في حال من الاحوال، ان نقضي على هذه العلاقة ، لنفصل بعضهما عن بعض .

لاحظ لوك وجود هـذا الحبك المتين ، بين التعبير والتفكير ، ثم قال رغم ذلك بالتواطؤية . هذا الحبك المتراص اعاده لوك الى كون الانسان يعيش في بيئة اجتماعية.خلقنا لنحيي بين ظهراني بعضنا بعضاً.فطرنا على الحياة مع الاخرين. هذه الحياة تفرض علينا التفاهم ، والتخاطب.لذا كانت الاعضاء الصوتية ،لدى الانسان ، ليتصرف بطريقة يتمكن فيها من ان يعبر عن افكاره للآخرين . هنا مصدر اللغة البشرية. ولكن هل نستطيع القول ، رغم هذا ، ان اللغة توقيفية ؟

جواب لوك عن هذا السؤال واضح . يقول ما فحواه : اذا كانت قوة الكلام مغروسة ، اصلا ، في عنقنا ... اذا كنا نندفع بالسليقة الى الكلام ... فهذا لا يعني ان اللغة توقيفية . الانسان يتواطأ مع صحبه على وضع المفردات الخاصة . حجة لوك في هذا ما يلي : الكلمة تدل الى معنى ، والمعنى لا يأتي من الخارج ، اي من الشيء المادي . الحجر لا يعني . الكلمة الدالة الى الحجر هي التي تعني. والذي يعني، في الكلمة ، هو الفكر . الفكر ، اذن، عان . لتقل، والحالة هذه ، ان الكلمات رموز لافكارنا ... شارات حسية لها . الكلمات لا تعني اشياءً بقدر ما تعني افكاراً . علاقتها بالباطن لا بالخارج ... بعالم النفس لا بعالم الطبيعة . مهما تكن قويةً علاقةُ الكلمة بالشيء الذي تعنيه ، وضعيفة علاقةُ الكلمة بالفكرة التي لدينا عن هذا الشيء ، فان غاية الكلمة بادىء بدء هي الترويح عن النفس... التخفيف من لواعجها... ونقل الافكار الى الآخرين ، في نطاق الحياة الاجتماعية . العلاقة حاصلة ، اذن ، بين الكلمة والفكرة ، لا بين الكلمة والشيء . هذه العلاقة الثانية لا وجود لها ، لان

الافكار هي التي تعني ، لا الاشياء . المعاني لا تأتي من البرّانيات ... المعاني وليدة جوّانيات فكرية .

ماذا يقصد هـذا القول ؟ يقصد ان الانسان هو الذي يُعطي المعاني للكلمات. هو الذي يتواطأ على جعلها آنية لافكار تسكب فيها. حاجة الانسان الى التعبير عن افكاره للآخرين ، هي التي تحدوه على خلق الالفاظ . إذ لا يوجـد اطلاقاً ربط حتمي بين الافكار وجرس الحروف ... لا توجد علاقة جبرية بين ما نعبر عنه ، وما نفكر فيه . لو كانت هذه العلاقة موجودة لتكلم الناس جميعاً لغـة واحدة ... لأثارت الكلمات عينها ، في أذهان الكل ، المعاني ذاتها . الكلمات في حد نفسها لا تعني شيئاً . هي تعني ما نريدها نحن ان تعنيه. هي اذن وليدة التواطؤ .

وقد لاحظ اوك ان هـذه التواطؤية ذات قاعدة . يعني ان وضع الكلمات يتطور من الحس الى المجرد ... من المنظور الى اللامنظور ... من الخاص الى العام. فاو حللنا مفاهيم مجردة كلفظة عقل ، وروح ، ونفس ، وربّ، لوجدنا ان معانيها ترجع بالأساس الى اوضاع حسية مثلا عقل (الذي فحواه نور روحانيّ تدرك النفس به ما لا تدركه بالحواس)يعني بالاصل شيئاً مادياً. نقول عقل البعير ، أي ثنى وظيفه مع ذراعه ، فشدها معاً بحبل هو العقل . العقل ، اذن ، هو الحبل الذي يشد به البعير في وسط ذراعه . نقول أيضاً عقلت المرأة شعرها أي مشطته . اعتقل الرمح ، أي وضعه بين ركابه وساقه .عقل الدواء بطنه ، أي أمسكه . ولا شك في ان كلمـة رب (التي تعني المالك ، السيد ، المصلح ، وهو خلاصة جميع الجواهر الكائنة) هذه الكلمة مأخوذة من الرُب. والرُب ما يطبخ من التمر ، وما يختر من عصير الثمار . وهكذا دواليك حتى تأتي على جميع المفاهيم المجردة ١ .

٦ • •

١) Essay Concerning Human Under.tanding . الفصل الثالث

هذه النزعة التواطؤية يقابلها نزعة توقيفية أشد ، أظهرها دي بونالد ، أحد مفكري الفرنسيس ، في القرن الثامن عشر . وهو يعتبر من أعند الذين اشتغلوا بقضايا الكلمة ، على الصعيد اللاهوتي البحت .
عنده ان علاقـــة اللغة بالفكر ليست مشكلة خاصة ، يمكن درسها بمعزل عن مشاكل الانسان الباقية . هذه المشكلة هي في صميم الكيان البشري ، ومن صميمه، والى صميمه . هي مشكلة الانسان رمة" . ومن هنا اعتباره اياها ، صراحة ، قلب الفلسفة كلها .
نستطيع ان نلخص نظرته ، في اللغة ، كما يلي : ان العلاقة التي تربط الفكر بالكلمة هي علاقة صميمية . يعني ان الفكر والكلمة جسم واحد . ولهذا لا يمكن ان يحصل فكر بدون ان تحدث لغة ... ولا ان تحدث لغة لا تكون ذاتها فكراً . استناداً اليه يقول دي بونالد ما فحواه : اللغة ليست تواطؤية ، أي انها ليست من خلق الارادة البشرية . لم يتفق الناس فيما بينهم ، على ان يكون ثمة لغة ، فكان هناك لغة . هذا التفسير السكوني لمنشأ اللغة بعيد كل البعد عن واقع الحقيقة . سبب ذلك ان الانسان لا يقدر على خلق شيء ، ما لم يكن لديه فكرة صريحة عنه . ولكي يحصل على هذه الفكرة الصريحة ، ينبغي له ان يعبّر عنها . معنى هذا ، بكلام آخر ، ان اللغة واجب وجود لمنشأ اللغة ذاتها .
ان اللغة ليست من عمل القوى البشرية . إنها هبة من لدن الله .
أعطي الانسان قوة النطق ، منـــذ ان سوّي انساناً . وضعت في عنقه ، منذ ان تحرك الحركة الاولى . لهذا نخطىء عندما نقول ان الفكر سابق للكلمة . الفكر ذاته كلمة ، والانسان لا يفكر إلا لأنـه كائن لاغٍ . نحن نتحدث الى أنفسنا ، عندما نفكر بيننا وبين ذواتنا . في قرارتنا حوار لا ينقطع ، لأن في هذه القرارة فكراً لا ينقطع ، والفكر تعبير وراء الشفتين الصامتتين .

الفكر حديث باطني مع ذواتنا ، والحديث تفكير بصوت عال . وقـــد أدت نظرية دي بونالد الى نتائج بعيدة جداً . فحواها ان كل ما يعرفه الانسان

من اخلاق ، وآداب ، واجتماع ، وسياسة ، واقتصاد ، عرفه بعد ان أعطي اللغة من لدن الله . قبل ذلك لم يكن غير خواء . باللغة فقط حدثت المعرفة ، فكانت الحقيقة [1] .

• • •

كان ليبنتز أميل الى أخذ موقف حيادي . لهـذا رفض التواطؤية ، والتوقيفية، على حد سواء . وما ذلك إلا لرغبته في ايجاد قاعدة ايجابية صرفة ، لبحث اللغة كعلم صحيح . وهذا يتطلب نهجاً استقرائياً ، لا يتقيد قبلياً بنظريات ذاتية . ومن هنا امكان اعتبار ليبنتز أباً لعلم اللغة ، بمعناه الموضوعي . فهو راسم التخطيط الأول ، الذي وجه من بعده كلّ باحث علمي في قضايا اللغة . قبل ان يأتي ليبنتز، كانت هذه القضايا تعالج على اساس غيبي، أي فلسفي لاهوتي، دون الاستناد الى معطيات واقعية مجردة . وهو الشيء الذي كان يعيق تكوين هذا العلم على أسس واضحة ، لا شك فيها .

رمى ليبنتز الى جعل اللغـة علماً شبيهاً بعلم الفيزياء ، والكيمياء ، والرياضيات: كان همه ان يبتعد عن النظريات العامة، التي لا ترتكز على واقع صريح شامل، بل تنبثق من ميول ذاتية ، غالباً ما تأتي وليدة البيئة ، والتربية ، والمزاج ، والظروف الشخصية . هـذه الذاتيات لا يمكنها ان تزودنا قاعدة علمية ايجابية صارمة .

يقول ليبنتز ان اللغات بمثابـة كتاب ، علينا ان نحسن القراءة فيه . ولكي نحسن هذه القراءة ، ينبغي ان نقرأ اولا ، لنفهم ثانياً ... لا ان نفهم اولا ، لنقرأ ثانياً . ان نقرأ ونحن فاهمون ، فإنه يحجب عنا الواقع الايجابي ، اذ لا نقرأ إلا ما نريد ان نفهمه . وهذا تحوير للحقيقة اللغوية . علينا ان نقرأ في كتاب اللغات ، وأذهاننا خالية من كل فكرة سابقة. علينا ان نكون كصحيفة بيضاء ، يدون فيها ما يجب تدوينه . اللغات أقدم تركة خافها لنا التاريخ

---

[1]) راجع كتاب Législation Primitive تأليف De Bonald. الفصل الاول،والثاني، والثالث،

الأنساني . هي اقدم شاهد على حقيقة البشر . لهذا يحسن بنا ان نُجيد السماع الى هذا الشاهد الناطق . وكيف ذلك ؟

رأى ليبنتز ان اصح طريقة هي تبني الأساليب الاحصائية ، كما هي شائعة اليوم ، في جميع العلوم . هذه الأساليب تفرض علينا ، قبل كل شيء ، ان نحصي عدد اللغات الكائنة ، في العالم ... وان نقابل بعد ذلك بعضها ببعض ، بالنسبة الى الماضي ، والحاضر ، كي نعرف المستقبل . يعني ان اللغات كائنات حية تتطور ، لا اعتباطياً ، بل وفق نواميس معينة . هذه النواميس لا يمكن معرفتها قبلياً . معرفتنا لها يجب ان تكون بعدية ، على غرار معرفتنا للأمور الطبيعية . متى أحصينا اللغات ، في العالم ، ودرسنا كل واحدة ، ثم درسناها بالنسبة الى غيرها من اللغات ... متى قمنا بكل هذا استطعنا ان نركز اللغة على قاعدة ايجابية صرفة .

اذ ذاك نصل الى نتيجة حاسمة ، في معرفة نشأة اللغة ، وعلاقتها بالفكر. هذه الأسئلة لا يجاب عنها ، في اول الطريق ... أجوبتها بعدية . عملنا اليوم يجب ان ينحصر في الاستقراء ... استقراء الوقائع اللغوية ... اي استنطاقها واحدة واحدة ، قبل التسرع الى اعطاء الجواب تعسفياً .

بناء عليه ، قام ليبنتز بأول عمل احصائي ، في هذا الميدان . قام بجمع الوثائق . فقد كان يطرح الاسئلة العديدة على المئات ، بل الالوف من الناس، كالمبشرين ، والسفراء ، والقناصل ، والمسافرين . لم يتورع عن طلب معونة الامراء ، والملوك ، كبطرس الكبير ، في سبيل جمع ما يتوافر لديهم من قواميس ، ودائرات معارف ، وكتب صرف ونحو .

• • •

٣

في هذا الخط الثالث ، اي بعدليبنتز، اخذت مشكلة اللغة اتجاهاً علمياً صرفاً. وذلك بفضل الاكتشافات التي قامت بها الفيلولوجيا. لقد اجمعت هذه الاكتشافات على القول بان مجمل النظريات ، التي اعطيت تفسيراً لمنشأ اللغة ، كانت غيبية لا تكفي لاماطة الحجاب عن الواقع . كانت اقرب الى الطفرة الذاتية منها الى الايجابية الصارمة . لهذا ، ورغبة في الوصول الى نتيجة شاملة ، ثابتة ، لا ريب منها ، رأى العلماء ان يهجروا قضية منشأ الكلام ، وان يقتاسوا بالمناهج التجريبية .
لقد أحجموا عن البحث في الاصول التاريخية ، اذ لا يقين من شيء جازم يأتي به التحقيق . ان تاريخ اللغة يعود الى ما قبل التاريخ . اذن يبقى البحث، في هذه الاصول ، مسألة ظنية لا قطعية . رأوا الا يتساءلوا عن اصل اللغة .
مثل هذا السؤال يطيح بنا في فيافي التأويل ، دون امكان الوصول الى صخرة لا تترجرج . النظريات تبقينا على ارض دلغانية . كيف بدأ الانسان يتكلم ؟ ابتوقيف ام بتواطؤ ؟ في اي زمان ، وفي اي مكان ، نطق اول بشري ؟ انستطيع اللغة ان تعبر ، ام لا ، عن مطلق الفكر الانساني ؟ اسئلة ، لا نجرؤ على الاجابة عنها ، اذ ليس بمقدورنا ان نميط اللثام عن اوابدها ... ان نحدد الزمان والمكان ، اللذين رأت فيهما النور اللغة البشرية .
مهما يكن من امر ايغالنا في تاريخ الوثائق ، التي هي بين ايدينا ، والتي تفيدنا عن اللغات القديمة ، فاننا لا نعثر الا على لغات مشت في دروب الحضارة شوطاً كبيراً ، وتركت وراءها تاريخاً طويلا ، نجهل حقيقته كل الجهل . هناك التاريخ ، وهناك ما قبل التاريخ . هناك القديم ، وهناك الاقدم.

ان اللغات القديمة لا تنيرنا ، اذن ، عن كيفية نشوء الكلام ، وتطوره خلال الحقب الزمنية . لقد فعل الارتقاء فعله ، بحيث نعجز عن اعادة بناء نقطة البداية، عن طريق النظريات . ان اصل الكلام يظل سراباً .وهكذا توصد في وجه علماء اللغة جميع الابواب الموصلة الى نقطة البدء . يقول فندريس :

تثار الدهشة دائماً ، كلما قيل بان مشكلة اصل اللغة ليست من مشاكل علم اللغة . هذا القول هو الحقيقة عينها . ان اكثر الذين كتبوا عن اصل اللغة ، منذ مائة عام ، يهيمون في اودية الضلال ، لانهم لم يتنبهوا الى هذه الحقيقة . وغلطتهم الاساسية انهم يواجهون هذه المشكلة من الناحية اللغوية ، كما لو كان اصل اللغة يختلط باصل الالسنة .

ان اللغويين يدرسون الالسنة ، التي تتكلم، والتي تكتب . ويتتبعون تاريخها بمساعدة اقدم الوثائق المكشوفة.ولكن ، مهما تغلغلوا في هذا التاريخ، فانهم لن يصلوا الا الى السنة قد تطورت كثيراً، وتركت خلفها ماضياً ضخماً لا نعرف عنه شيئاً.ان فكرة الوصول الى اللهجة الاولى، عن طريق مقارنة الالسنة الموجودة ، هي سراب خداع.هذا السراب، الذي تطلع اليه قديما مؤسسو النحو بالمقارنة ، قد هجر منذ زمن طويل (١)

الاوفق ، والحالة هذه ، ان نتساءل عن «كيف يتكلم الانسان» لا عن «لماذا يتكلم الانسان» . السؤال الاول من خصائص الغيب ، والغيب مضرب النظريات الدخانية . السؤال الثاني من ضمن حدود الطاقة البشرية . يمكننا ، بالاستناد الى علم الفيزيولوجيا ، والسيكولوجيا ، والفيلولوجيا ، ان نتحقق من الطريقة التي يُتكلم بها . لقد كان حلم ليبنتز ان يخرج باللغة من سديم التكهن النظري ، حول منشئها ، الى وضح الوقائع الملموسة التي تمدنا بها الالسنة . وهذا لا يحصل الا اذا انعكفنا على دراسة الالسنة ، التي بين ايدينا ، في سبيل تصنيفها انواعاً واجناساً ، واستخراج القوانين الشاملة بعد ذلك . بهذه الطريقة الاستقرائية ، الوصفية ، نستطيع ان نركز علم اللغة على معطيات ايجابية .

* * *

لم ينشأ علم اللغة ، بمفهومه الاختباري ، إلا لاعتقاد الكثيرين ان اللغة

---

١) راجع كتاب Le Langage للمؤلف Vendryes . صفحة ٧ . باريس ١٩٢١

تخضع للنواميس ، التي تخضع لها باقي مظاهر الطبيعة . أي انها علم كمي ، قابل للاختبار ، على غرار العلوم الفيزيائية . لا غرابة من هذا الاعتقاد ، ما دام العصر القائت يتسم أكثره بالنزعة المادية. فقد حاول علماؤه ان يخضعوا الجسم ، والنفس ، والاجتماع ، لمقاييس الكم . ولما كانت اللغة مظهراً من المظاهر البيولوجية ، النفسية ، الاجتماعية ، فلا شيء يمنع من اناختها للنهج الاختباري، الذي يطبق في جميع العلوم الطبيعية .

ومن هنـــا المحاولات الجبارة ، في القرنين الاخيرين ، لتركيز علم اللغة على اسس ايجابية . وقد اتسمت كل هذه المحاولات بالتجرد التام عن النظريات الذاتية ... بالابتعاد عن الاراء الاهوائية ، والمعرفة السابقة للاختبار .اتسمت هذه المحاولات بميزات كل علم اختباري، اي بالملاحظة اولا ، والتدوين ثانياً ، والاستقراء ثالثاً . لقد كانت رغبة علماء اللغة ان يصلوا ، في هذا الميدان ، الى قوانين شاملة ثابتة ، كما هي حالة العلوم الطبيعية . علم اللغة ، كباقي العلوم ، هو علم كمي صرف .

بدأ علم اللغـــة الحديث ، في القرن الثامن عشر ، الذي عرف بعصر المقابلات اللغوية ، او اللغات بالمقابلة . وقد دارت محاولات العلماء ، فيه ، حول معضلة نشأة اللغة . لذا اتسم علم اللغة بالروح الفلسفية . أي انه كان من جملة العلوم الظنية ، التي بقيت مسيطرة على القرن الثامن عشر . ولكن حدث ، في هذا القرن ، ان اكتشفت السنسكريتية التي درست بالمقابلة مع اللغات الاغريقية ، واللاتينية. ومن هنا تصنيف اللغات المعروفة، يومذاك، باللغات الهندواوروبية .

انتقل علم اللغة ، في القرن التاسع عشر ، الى درس الاسباب التاريخية التي تجعل الصرف ، والنحو ، يتطوران مع الاجيال . ولا عجب . ففي هذا القرن اعلنت فكرة التطور ، ونودي بعلم الاجتماع .

من الطبيعي ، اذن ، أن يخضع علم اللغـــة لروح الفلسفة ، التي كانت مهيمنة ، حينذاك . الانسان كائن اجتماعي يتطور . واللغة مرآة تعكس روح

الجماعة . ومن هنا محاولات جميع علماء اللغة ان يستخرجوا من اللغات نفسية الشعوب ، التي تتكلمها . ما دامت اللغة مرآة الشعب ، فما الذي يمنع من أن يُدرَّس تاريخُ الشعوب ، ابتداء من اللغات ، التي كان الاقدمون يتكلمونها ؟ بديهي ان الجماعة التي تتلفظ بالكلمات الدالة على الرئيس، والشيخ ، والقسيس، والملكية ، والاسرة ، والقماش ، والخشب ، والحديد – مثلا – لا بد من أن تكون لها حكومة ، وديانة . لا بد من أن يكون عندها املاك ، ولها نظام في الزواج ، ونسج للاقمشة ، ودراية للحديد . ومن هنا عرف ان الآريين كانوا امة زراعة، تعرف فلاحة الارض ، وتتخذ البيوت، وتفتح الابواب والمنافذ ، وتتعاطى التجارة بالمبادلة . ثم انها تعرف مبدأ الملكية ، لانها وضعت الالفاظ الدالة على الاملاك ، والعقار ، والمنقول ، والحدود ، والعقود . وكانت تدفع الضرائب ، وتقسم اليمين ، وتعالج الخشب ، والحجر ، والنحاس ، والبرونز والحديد ، وتلبس القماش المنسوج . وظاهر من الفاظها انها كانت تعبد الهة متعدده ، مبهمة . وانها كانت تعبد قوى الطبيعة ، وتعرف السحر، والارواح، وتحرق موتاها ، وتعالج المرضى بالرقي وما شاكل .

* * *

لم تتركز اللغة على اسس علمية صحيحة الا في القرن العشرين . انه بحق قرن علم اللغة . لقد رأى العلماء اللغويون ان الحاق اللغة بالنظريات الاجتماعية، او الفلسفية ، او النفسية ، او التاريخية ، لا يرفع مداميكها على قواعد علمية ايجابية . يجب تحريرها من كل هذه النظريات الغيبية ،والاكتفاء بوصفها علمياً.

ان الثورة ، التي شهدها علم اللغة ، شبيهة بثورة علم الفيزياء في القرن الثامن عشر . تكنيس القوى الغامضة من الطبيعة ، ودرس المادة وفق ما هي ، أي وصف مظاهرها فقط . لا باطن خلف الظاهر . واللغة هكذا. ومن هنا تركيز

جهود العلماء على وصف اللغـــة من جهات ثلاث : الصوت (Phonétique) الشكل (Morphologie) والتركيب (Syntaxe) .
يقول علماء اللغة المحدثون بان المهمة الكبرى ، الملقاة اليوم على عواتقهم ، هي ان يصفوا اللغة وصفاً مظهرياً من جميع نواحيها عندما يتم هذا الوصف، أي عندما تتجمع لدينا كل المعلومات اللازمة ، حينذاك نستنبط القوانين العامة. ظاهر ان مثل هذا العمل يستغرق اجيالا كاملة ، بل عمر الانسانية برمته . فهو يستلزم ملاحظة جميع اللغات البشرية الكائنة ، التي لم يعرف عددها بعد . ولكن هل باستطاعة المرء ان يصل الى نهاية ، في عمل الملاحظة ، ليتمكن بعد ذلك من الانتقال الى استخراج النواميس الشاملة ؟ اليست اللغات كائنات حية، تتطور مع تطور الشعوب ؟ مما يعني ان عمل الملاحظة سيظل قائمـــاً على قدم وساق ؟
لن يصل السير ، في هذا المضمار ، الى نهاية معلومة محدودة . سيبقى الخلق مستمراً . ستبقى الدائرة مفتوحة . ستموت لغات ، وتلد لغات . فحواه ان تطور اللغات لن يقف عند حـد واحد ثابت ، ليُبتدأ بدرسها علمياً ، كما تُدرس المادة الجامدة . فحواه ايضاً ان عـــلم اللغة غير ممكن ، بمفهومه الاختباري الصرف . انه مجرد محاولات ظنية ، كغيره من العلوم الانسانية . الواقع ان الذي يستعرض مجرى العلوم الطبيعية ، ويمعن في النتائج الـتي وصلت اليها ، يرى بوضوح ان الانسان بدأ يفقد ثقته بجبرية المـــادة . تلك الجبرية ، التي كثيراً ما تغني بها في القرنين الماضيين ، لم تسفر عن شيء ضخم مما كان يحلم به . ولهذا يبين لنا ان الاتجاهات العلمية ، اليوم ، يميل اغلبها في رقعة اوربا ، الى اعادة مفهوم الحرية للانسان . ان الطبيعة اوسع بكثير من ان تحصرها الجبرية المزعومة . منطقة هذه ضيقة جداً بالنسبة الى المجالات الشاسعة ، الواسعة ، التي نجهلها ... والتي تتمرد تماماً على مفهومنا السقيم . اذا كانت الجبرية لا تلبي طموح الانسان ... لا تـدرك آخر اطراف

الطبيعة المنظورة ، وغير المنظورة ... اذا كانت هي ذاتها قد افضت بالعقل البشري الى مناطق ، لا نستطيع أن نطبق فيها مبدأ العلية ، بمعناها الكلاسي... هل يجوز لنا ان نظل ، في ميدان اللغة ، على ثقتنا بان العلم سيحل معضلة منشئها ؟ وعلاقتها بالوجدان ؟ الا يدفعنا افلاس العلم الى اعادة النظر في المفاهيم، التي تسيرنا ،والى طرح المسألة مجدداً منذ البدء؟ هنا ندرك الخط الرابع.

* * *

٤

على الرغم من كل المحاولات العلمية ، فقد ظل منشأ اللغة ، وعلاقتها بالفكر ، من الشؤون التي تقلق الانسان مباشرة ... ظـل في سوس العقل البشري . مثَل هذا التساؤل مثَل غيره من الليشيات الانطولوجية ، التي تمس فوراً صميم الكائن الانساني . مثَله مثَل كل معضلة ما ورائية ، نقاقة ، تريد منا جواباً سريعاً ... مثَل كل معضلة تتناول وجودنا ، راساً ، وتفرض علينا ان نجد لها حلا نرتضيه . هذه المعضلات الما ورائية لا تهادن ، ولا تقبـل الارجاء . هي من حشاشة آدميتنا ، وعلى المرء أن يلبي دعوتها ، اذا اراد ان يتحمل عبء مصيره ... أن يكون مسؤولا عما هو اصلا . قد يصل العلم في احصاءاته – بعد آلاف السنين – وقد لا يصل الى جواب موضوعي عن منشأ اللغة ، وعن الرابطة الكائنة بينها وبين الوجدان . يبقى ان المرء لا يستطيع الانتظار ، ريثما ينتهي العلم من جميع تلك الاحصاءات ، وتصنيفها ، وتبويبها ، ثم استئصال النتيجة اللازمة . على الانسان أن يجابه ، فوراً ، هذه المعضلة ... وأن يجيب عنها ، في الحال ، لانها لا تقبل التسويف . تلك ميزة

الليشيات الكبري ، العاصية ، التي تتطلب الجواب مع السؤال ... واحياناً الجواب قبل السؤال . تلك هي الفلسفة .

لهذا نرى اهل البحث يعودون ، اليوم ، الى التساؤل عن منشأ اللغة ... وعن العلاقة ، السلبية او الايجابية ، الكائنة بين العبارة والوجدان المعبّر : منشأ اللغة هو ذاته منشأ الفكر . ومن يستطيع ان يهمل ، أو أن يرجىء ، قضية ضخمة كقضية الفكر ؟ وقد برز هذا التساؤل ، اكثر ما برز ، تحت اقلام الادباء ، والشعراء . هذه الفئة ، هي التي تشعر الى اي مدى تحز قضية الكلمة ، في قلب الكاتب الصحيح . لهذا نرى جان بول سارتر يركز في عالم الفكر ، بين ١٩٣٠ ـ ١٩١٨ ، ما اطلق عليه اسم « ازمة اللغة [١] » . وقد انتهت هذه الازمة بفشل اللغة حيال الفكر . اللغة عاجزة اصلا ، عن ان تلتقط متناهيات الوجدان .

* * *

الغريب في هذا الامر ان الادباء هم الذين انهالوا باللائمة على اللغة : قالوا بانها لا تظهر مكنونات الفكر اظهاراً كاملا . اداؤها قاصر ، بالاساس ؟ اذا استعرضنا ، في تلك المرحلة ، معظم كتاب فرنسا المحدثين ، رأينا هذا التأفف شاملا . رأيناه في سن كل قلم من اقلام الادباء . وهو يعني ان الانسان عاجز ، باللغة ، عن اخراج حبات قلبه . الكلمات خداعة . هي آنية فارغة ، والنفس حشو مليء . وقد تحدث عن هذه المرحلة أحد النقاد ، في فرنسا ، ونعتها بالارهابية [٢] . ذلك لأنها لم تطلق غير احكام اعدامية على اللغة ، بالنسبة الى علاقتها بالفكر . هذه الفئة لم تر في اللغة غير التخريب لكيان

«١» راجع كتاب Situations لجان بول سارتر. صفحة ١٨٨ وما يليها. Gallimard ١٩٤٧

«٢» راجع كتاب Les Fleurs de Tarbe لمؤلفه Jean Paulhan . صفحة ٦٥ وما يليها . Gallimard ١٩٤١

الوجدان ، فاضطهدتها ، وشنعت بها ما استطاعت الى ذلك سبيلا . حتى ان بول فاليري ، وهو أشد المتحمسين للكلمة ، لم يتنكب عن ان ينحي بساطوره على اللغة البشرية . واذا اردنا ان نقرأ وصفاً رائعاً لهذا الصراع الممض ، الذي يدور بين حرارة العاطفة وبرودة الكلمة ، رجعنا بلا شك الى ما قبل سنة ١٩١٨ ... الى لامرتين ، شاعر الحب والجمال ، عند الافرنسيين . لقد تذمر هذا الشاعر ، في جميع كتبه ، من قحط اللغة حيال خصب المشاعر الانسانية . يكفي ان نقرأ له هذا المقطع الجميل ، في تحفته الخالدة **رافائيل** ، حيث قال :

« كنت اصعد ، بعد الغداء ، الى غرفتي العليا ، لأعيد قراءة رسائلها ، ثم
« آخذ في الرد عليها . كانت تلك اطيب ساعات ايامي ، واشدها حرارة .
« كنت آخذ اربعة ادراج من الورق الرقيق الكبير ، فابدأ الكتابـــة من اول
« طرفها الاعلى، الى آخر طرفها الاسفل ، دون ان اترك فيها فراغاً . ثم أعود
« فأدبج الهوامش ، واطرز ما بين السطور ، حتى لا ادع فيها بياضاً . أملأ
« هذه الصحف كل صباح، ثم أشعر انها أضيق من ان تسع خواطري الفائضة،
« المضطربة ... واعجز من ان تصور عواطفي المتشعبة الملتهبة .
« لم يكن لتلك الرسائل ابتداء ، ولا انتهاء . لا وسط ، ولا قواعد . لا
« شيء مما تواضع الناس عليه في الانشاء . وإنما كان فيها نفس عارية ، مجردة،
« أمام نفس أخرى تشرح لها — جهد الطاقة — ما يجيش فيهـــا من شعور ،
« ويعتلج بها من عواطف . تشرحه بهذه اللغة الناقصة ، القاصرة. لغة الناس التي
« لم تخلق لشرح الغامض ، وتفسير المبهم . وانما هي علامات ناقصة ، وكلمات
« فارغة ، وجمل جوفاء ، وألفاظ باردة : تصهرها نفوسنا بقوتها ، وحميتها ،
« واضطرابها ، صهر المعدن الآبي على النار. ثم تصوغ منها لغة اثيرية ، مبهمة،
« متقدة ، كألسنة اللهب . نفهمها نحن ، ولا يفهمها الناس ، لانها من نفوسنا
« وذواتنا .
« أبداً لا ينقطع تدفق نفسي ، ولا يبرد . فلو ان السماء كانت صحيفة ، أرادني

« الله على ان ارقم فوقها حبي ، لماوسعت هذه الصحيفة كل ما أردده في نفسي،
« وما أريد ان اقوله ! لقد كنت أفرغ من نمنمة الصحائف الاربع ، وكأني لم
« أقل شيئاً . والحق اني لم أقل شيئاً . ان الاحاطة باللانهاية ، والتعبير عنها ،
« محال باطل ...

« لقد كنت أجاهد بلا امل فقر هذة اللغة وجمودها ، وبرودها ، لأني مضطر الى
« استعمالها ، ما دمت لا أعرف لغة السماء. وكانت الجهود الخارقة التي بذلتها في
« أخضاعها ، وتليينها ، وبسطها ، ولويها ، وتصويفها ، وتلوينها ، والهاب
« عبارتها ، أو اطفائها . ثم الحاجة الى التعبير بالكلمات عن أخص العواطف،
« وأدقها . واسمى الخواطر ، وارقها . وعن نوازي القلب الجموح ، وعفة
« الهوى المحتشم . والى تصوير النظرات ، والهيئات ، والزفرات ، والصمت ،
« والنحول ، وفناء القلب في عبادة حبيبه النائي . كل هذه الجهود، التي كسّرت
« القلم في أناملي — كما تكسّر الالة العصبية في يد الفنـــان — مكنت لهذا القلم
« الكسير ان يجد احياناً الكلمة ، او الحيلة ، او العبارة ، او الصرخة ، التي
« يبحث عنها ليظهر الخفي ، ويبرز العقلي ، ويصور المستحيل .
« لذلك اتذكر اني كنت(كلما فرغت من رسالة)انهض من كرسي ،كأني خارج
« من معركة شعواء ، خصومي فيها الكلمات ، واليراعة، والطرس،فافتح الشباك
« واعرض وجهي لنسيم الشتاء البارد ، كي يجفف ما أرفض عليه من العرق [١] »

* * *

قد يتبادر الى الذهن ان هذا التأفف من عنديات المفكرين الغربيين . ولكنه ميل سليقي، في المرء ، الذي يدين بالثنائية المبرمة ، بين الباطن والخارج ... اي الذي يفصل بين عالم النفس وعالم الطبيعة ، ويعتبر الفكر من النفس واللغة من الطبيعة . هذه الثنائية المثالية ترفع من شأن الفكر (باعتباره من الجوانيّات) وتهوّن من شأن اللغة (باعتبارها من البرانيّات) . وقد ظهرت ، عندنا ايضاً ،

١) لامرتين : رفائيل ، ترجمة الزيات . ص ٢١١ — ٢١٤

تحت اقلام ادباء كثيرين . أخص بالذكر منهم ميخائيل نعيمه . قــال ، في غرباله ، ما يلي :

الفكر كائن قبل اللغة ، والعاطفة قبل الفكر . فهو الجوهر ، وهي القشور . ومن تمس البشرية ان تفقد مقدرة قراءة الافكار والعواطف ، كما تنبت وتنمو في الارواح ، لا كما ينطق بها اللسان . وان تراها في حاجة الى اشارات ، وعلامات مختلفة ، تصطلح عليها رموزاً لافكارها وعواطفها . لأن تلك الاشارات ، والعلامات ، مهما دقت ، ليست لتأتي الا باشباح ضئيلة ، مبهمة ، من عالم الفكر المطلق والعاطفة الحرة . ولم تعرف الانسانية بعد في كل تاريخها من تيسر له ان يسكب كل فكره ، او يجسم كل عاطفته ، في كلام او خطوط او الوان أو الحان . لذاك فهي ابداً تقرأ بين السطور . وما تقرأه بين السطور هو افصح ، وابلغ ، واعمق ، واوسع ، مما تقرأه في السطور . وذاك لانها تدرك بالفطرة انه يستحيل على بشري كائناً من كان – شاعراً ام كاتباً ، رسامــاً ام نحاتاً ، مهندساً ام ملحناً – تادية فكر او عاطفة بكل ما فيهما من تجمد وتلون (١)

* * *

اما زعيم هذه المدرسة الارهابية ، الذي أقام الانكار على أساس بحثي ، فهو بدون شك هنري برغسون . فيلسوف واديب من معدن واحد . جمع فيــه رجولة الفكر وأنوثة الكلمة المجلوة ، حتى اعتُبر آنق كتاب فرنسا في عالم الانشاء ، وأقوى فلاسفتها شكيمة في معارك الانسان مع الغاز الوجود . تساءل كغيره ، أبمقدور اللغة ان تعبر اطلاقاً عن مواجيد النفس ؟ وأجاب بتحليل ، وتخريج ، جعلاه صاحب مدرسة في البحث عن الوشائج التي تربط الفكر بالكلمة . ولكنه أجاب سلباً . والغريب العجيب انه أحسن في الكتابة ، وهو مسيء الى اللغة . لقد وضع برغسون يده على مفاتيح في البيان ، قلما ملكها احد قبله ، وقلما يملكها احد بعده . لم يذهب عنه شيء من اسرار البيان . ولا فاته ان يسحر بألفاظ عواسل ، حتى غدا اسلوبه متعة روحية ، يستعيد بها الحس بعض مجازات النعيم .

---

١) الغربال ص ١٠٢

عبر عن كتمات الروح ، ونغماتها ، بلغة رشيقة ذهبت مضرب المثل . تصرف بالالوان ملء يراعه ، وداور الالفاظ بحنكة وبداهة قلم ، حتى اعتبر انشاؤه اسلوباً جديداً ، في الادب الافرنسي . كان صائغ ديباجة . مرجن بيانه بأمتع الكلمات ، وآنقها ، فاذا به احد اساتذة القلم في امته ... احد بناته ... جلّ همه ان يخرج الافكار بوضوح ، يمر امام اعيننا ابعد المطارح النفسية .

لو رجعنا الى السنوات ، التي حاضر فيها برغسون من على مدرج (الكوليج دي فرانس) لأدركنا ضخامة سطوته على اذهان الناس ، بفضل اناقة انشائه. لقد كان لالفاظه سحر التعاويذ ، والطلسمات . كان مليح الاستعارة ، لا يعتمد الوحشي ، بل ينزل الافكار في مسابك الفاظها ، كالحق في منازله . وما لنا إلا ان نأخذ كتابه « **في التطور الخلاق** » لنعثر على اجود الانشاء ، في اللغة الافرنسية . طرز صفحات هذا الكتاب بقلم يتقطر الجمال من سنه ، ويتجسم الغيب رقة ولطافة، مما يحدو على وضع هذا المؤلف الممتاز — وكل مؤلفاته — بين اعرق الآثار الادبية ، في تاريخ الفكر الانساني .

لا عجب ، والحالـة هذه ، ان يكون معظم علماء زمانه قد اعتقدوا « **التطور الخلاق** » خيالا شعرياً ليس الا. هذا الحكم ، لئن كان صحيحاً في شقه الاول ، فقد اخطأ الرمية في شقه الثاني . ذلك لأن كتب برغسون تنطوي على اشياء صارمة، من حيث العلم . إلا ان انشاءه المخملي هو الذي رش على يبس الايجابية بعض الندى المنعش المفرفح . فخرجت رجولة الافكار العلمية في انوثة من الألفاظ العذبة المكوكبة .

ولكن المدهش ، حقاً ، ان يكون برغسون قد شن غارات عنيفة على اللغة ، هو الذي عدّ من امضى المفكرين في امته على بلوغ المعاني . لقد تزعم برغسون المدرسة الارهابية ، التي قال ذووها بأن اللغة لا تعبر تماماً عن الوجدان ، إذ هي دونه ... بأن اللفظة ترميد للهب النفس . نودي ببرغسون فيلسوفاً لتلك المدرسة ، لانه قال بأن مركب اللغة قاصر عن ان يحوز مبسوط المعاني . المعاني

جد بسيطة ، ولها اتصال شديد بعضها ببعض ، على حين يوجد بين الكلمات فرج ... وفضاءات ... ومسافات . ليس بمقدور لغة بشرية ان تقبض على فرش المعاني ، وتحيط بها . ليس بإمكان الجملة ان تنصب على الوجدانيات سوراً . ان الألفاظ جالبة للفساد ، اذ بهـا يحصل سوء التفاهم بين الانسان والانسان . بها تتحور المشاعر ، فتأتي عكس منطوقها .

هكذا قال برغسون في مبسوط مؤلفاته . وقد ركز هـذا القول على تخاريج فلسفية ، ولم يكتفِ بإرساله عارياً من كل تحليل منطقي . ولهذا رأى فيه الادباء الناقون على اللغة فيلسوفهم الاكبر . الواقع ان مشكلة اللغة كانت من اهم الاهداف التي رمى اليها في فلسفته . هي والفضاء من اضخم المهمات التي عالجها . ولذا نراه يفتتح كتابه «**رسالة في معطيات الوجدان البديهية**» — وهو اول مؤلفاته — بقوله :

> نعبر عن انفسنا اضطراراً بالفاظ ، ونفكر في الاغلب تفكيراً فضائيا .وبعبارة اخرى، ان اللغة ترغمنا على ان نجعل بين افكارنا الشقوق عينها ، والفوارق الجلية الدقيقة ذاتها ، التي نقيمها بين الاشياء المادية . ان هذه التسوية نافعة في حياتنا العملية ، ولازمة في اكثر العلوم . ولكن يمكننا التساؤل عما اذا كانت الصعوبات المنيعة ، التي تثيرها بعض المشاكل الفلسفية ، لا تنجم عن تمسكنا الشديد برصف الوجدانيات في حيز فضائي ... وعما اذا كنا لا نتغلب على هذه الصعوبات ، بتغاضينا عن الصور الثخينة ، التي تحتدم حولها تلك المشاحنات . فعندما نترجم اللاممتد بالممتد ، ونعبر بالكم عن الكيف — مقيمين التناقض هكذا في قلب المشكلة المطاة ، من جراء هذه الترجمة المشوهة — هل نعجب بعد ذلك من رؤية التناقض ثانية كائنا في الحلول التي نستخرج بها هذه المشكلة ؟

جلي ان الرماية ، ههنا ، تستهدف مفهومين من المفاهيم الانطولوجية المركوزة، في العقل البشري . نعني اللغة والفضاء. وقد جعل برغسون للوجدان منطقتين: جوانية وبرانية. هناك انا الباطنية ، وانا الظاهرية . لكي ندرك الاولى ، بصفاء لا غشّ فيه ، يجب علينا ان نفرز الوجدانيات الباطنية عن الفضاء المتجانس ، واللغة التي لا تستطيع ان تعبر عنها . اللغة توقف سيلان الوجدان ، وتهبط به الى المستوى العامي . هي لا تلين ليونة العاطفة ، ولا تذوب ذوبان المشاعر ؛

مدخلها على صومعة الفكر جد عسير . تتمايل الحياه فينا ، وتتمعج ، بدون ان تتكسر الى اجزاء تطلق بعضها بعضاً . الديمومة حشو النفس ، ومادة الروح . اما اللغة فلها تفاريج بين اللفظة واللفظة . لهذا لا يمكنها ان تصحب الفكر الذي هو ملء مرصوص . للفكر اباء ، وزهو ، وخفق ، مما يجعله سريع التحول ، خفي الطرق ، يتسهل ثم يتعسر ، يذل ثم يعز . الفكر لا يعاد بالقلم ، ولا يرسم بالخط ، ولا يتقيد بالكلمة المفصولة . بهذا البون الواسع يقع التباين ، بين الوجدان واللغة ، ويتسع الخرق ، فيكثر التأويل . اما العامل الذي دفع برغسون الى ان يجيب ، سلباً ونكراناً ، عما اذا كانت اللغة امينة في ادائها القضيات الوجدانية ، فهو يعود الى الفكرة ــ الام في فلسفته ، نعني فكرة الديمومة . فما هي الديمومة ؟

• • •

٥

قال برغسون ان الوجدان تحوّل مستمر . يعني انه يمر في حالة غضب ، فحزن ، فاحساس ، فادراك ، فتذكر ... الخ . هذا التناوب في التحول يصبغ النفس توالياً بألوان مختلفة. ولا يصعب على احد التثبت من مثل هذا التحول، لان مجرد الاختلاء بالنفس ــ زمناً قصيراً ــ يرينا بجلاء هذا التناوب التحولي : وقد سجّله شعراً لامرتين في مطلع قصيدته « البحيرة » حيث قال :

أهكذا تنقضي دوماً أمانينا نطوي الحياة وليل الموت يطوينا
تجري بنا سفن الاعمار ماخرة بحر الوجود ولا نلقي مراسينا [1]

١) ترجمة نقولا فياض .

قد يتبادر الى الذهن ان هذا التحول لا يحدث إلا عبر الاجتياز ، اي عندما ننتقل من حالة الى حالة . أما الحالة عينها فانها تبقى جامدة بلا تحوّل . لقد حرص برغسون على ابانة ما للتحول من استبداد ، وتحكم بالحالة ذاتها ايضاً . وهذا يعني ان التحول لا يقع بين الحالة والحالة، فحسب، ولكنه واقع في الحالة ذاتها . الحالة ذاتها تتحوّل . نحن لا نجد حالة واحدة ، مهما يقصر مداها ، لا تتحول ضمن هذا المدى القصير . ان التحول مستمر اذن بين الحالات ، وفي كل حالة على حدة . الوجدان شديد السيلان .وبعبارة اوضح ، لا حالات في الوجدان ، اذا اعتبرنا الحالة وقفة ساكنة . هذه هي الديمومة الوجدانية .

* * *

والمادة تدوم ، ايضاً ، باستمرار : دليلنا على ذلك ، اية ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، مهما تكن طفيفة . لو أردتُ ، مثلا ، ان اذيب قطعة من السكر ، في كأس ماء ، لاضطررت ان انتظر . هل تستطيع هذه القطعة ان تذوب دفعة واحدة؟ كلا . هناك ، اذن ، ما يجبرني على ان انتظر. هذا المجبر هو الديمومة.

تلك الحادثة البسيطة ، تعلّمنا كيف ان الوقت (الذي انتظر فيه ، حتى يذوب السكر) ليس وقتاً رياضياً ، هندسياً . هذا الوقت ، او الزمن ، يتفق مع الضجر — او عدم الصبر — الذي اشعر به في قرارة نفسي . وهو بعض ديمومتي الخاصة . وماذا يمكن ان يعني هذا ، إلا ان قطعة السكر ، وكأس الماء ، وعملية الذوبان ، هي مجردات فقط (اي معزولات) ؟ هل يعني هذا الذوبان إلا ان « الكلّ » — الذي اقتطعت منه هذه المعزولات بحواسي ، وعقلي — ينمو اطراداً ، ويكبر بأسلوب قد يكون شبيهاً بالنمو المطرد في الوجدان ؟ الكون الخارجي يدوم ايضاً . اذن لا شيء يمنعنا من ان نرى في المادة ديمومة .

إلا ان ديمومة المادة تختلف عن ديمومة النفس. الاولى تحدث بدوافع من الخارج: فهي اذن لا تتغير في صميمها ، اي ان تغيرها يكون نتيجة لتنقلات أقسامها ،

او أجزائها ، في الفضاء . اما هذه الاجزاء عينها ، فانها لا تتغير . واذا بانت لنـا انها تتغير ، فنحن نكسرها ـ عندئذ ـ اي نفككها الى جسيمات اصغر ، فأصغر ، حتى نصل الى ذرات لا تتغير . لهذا ليس ، هناك ، ما يمنع الذرات المادية من ان تعود الى مراكزها الاولى ، مرة اخرى ، بعد ان تكون قـد غادرتها . وهذا يعني ان المادة لا تشيخ ، اي ليس لها تاريخ [1] . ولكن ما لنا ولديمومة الأشياء المادية ، فلنحصر جهدنا في ديمومة الوجدان .

* * *

قلنا بأن الحالة الوجدانية استمرار . زد على ذلك انها كيفٌ ، والكيفُ لا يخضع لمنطق الكم . الاشياء المادية يمكن عدُّها ، لانها تتكسّر اجزاءً متشابهةً . لهذا نستطيع القول عن كوب ما ، بأنه يسع ماء اكثر من غيره ، نظراً لحجمه الاضخم . ولكن لا يجوز لنا ـ على صعيد الوجدانيات ـ ان نكوّن سلسلةً ، متزايدةً او متناقصةً ، من النفسيات التي لا تُوصف . ان خلطنا الديمومة بالفضاء يحدونا على الظن ان الوجدانيات (كالارقام ،والاجسام) يشتمل بعضها على البعض الآخر ، الذي هو دونه في المرتبة .
الحقيقة اننا لسنا امام شامل ومشمول ـ كما هي الحالة في الاشياء الممتدة ـ عندما نقول : حزن بطرس حزناً اكبر ... زيدٌ اكثر فرحاً من اخيه ، وأشد اغتباطاً ... بذلنـا كبير جهدنا ، في العمل ، وفوق طاقتنا كي نحقق ابعد امانينا ... هذا بحث لا طائل تحته ... عندما نستعمل قبل ، وبعد ، وفوق ، واكثر ، واكبر ، لحالات ليست مطلقاً بمجالات فضائية ، ينبغي الاّ نقيم فيما بينها فروق كمٍّ . مهما تشابهت الحالات ، فهي دائماً في اختلاف مبين ، لانها

---

[1]) راجع كتابنا « هنري برغسون » الجزء الثاني صفحة ١٨ — ١٩ . دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٥٥ .

كيف . والكيفُ مستقل الذات ، لا ينطبق على كيف آخر .

* * *

لنأخذ الفرح في نموه . يبدأ نوعاً من الشوق ، الذي يملأ زاوية واحدة من زوايا النفس . ثم يزيد شاغلا بالتدرج النفس كلها ، متخذاً — في كل حالة من حالات نموه — لوناً يختلف تمام الاختلاف عن الالوان الباقية . فهناك الانشراح ، والسرور ، والبهجة ، والاغتباط، والارتياح . والمسرة ، والحبور والطرب ، والمرح ، والتهلل ، والهشّ ، والبشّ . وهي جميعاً حالات من الفرح يتعاقب فيها وجداننا ، بسرعة الخاطف ، كأنه محمول على اكفّ النسيم .

واذا اخذنا الحزن ، وجدنا انفسنا حيال الشيء ذاته ، فنقول : اغتمّ ، وكمد ، واكتأب ، واستاء ، وابتأس ، وجزع ، وأسف ، والتاع ، وتحسر ، وكرب ، وفجع ، وغصّ . وهي حالات يختلف لوناً ، بعضها عن بعض ، فتبين لنا كأنها انتكاس الى الوراء . وقد تعودنا ، بدافع منطق مغلوط ، الا ّ نرى فروقاً كيفية بين هذه الحالات ، مجيزين لذواتنا ان نعدّها كماً ، كأنها ترجع في النهاية الى عنصر واحد ، يزيد وينقص دون ان تتغير طبيعته .

* * *

لنتفحص الشفقة . الشفقة ترتكز ، اصلا ، على اربع حالات وجدانية ، لا تمتّ احداها الى الاخرى بصلة ما . الاختلاف ، بينها ، في الطبيعة لا في الدرجة . ولهذا لا يجوز لنا بتة ان نضعها على الصعيد ذاته ، كأنها بنات عنصر واحد . وهكذا تنمو الشفقة كيفياً من الكره ، الى الخوف ، الى التعاطف ، ثم التواضع . وهذا يعني اننا نضع انفسنا بالفكر محل الآخرين — في المرحلة الاولى من الشفقة — فنتألم كما يتألمون ، ونحزن كما يحزنون . لذا كانت الشفقة ، في هذا الشوط البدائي ، تدفعنا الى الكره ، فالهرب من البؤساء ، بدل ان نمد لهم يد المساعدة.

ثم يظهر الخوف..: الخوف من ان نقع في حالة البؤساء ، فنسرع الى معونتهم، والافراج عن كربهم . يقول برغسون ان هذه الرحمة ، القائمة على الانانية الخائفة ، هي احط مراتب الشفقة . ذلك لأن الشفقة الصحيحة ليست عملية حساب . الشفقة الصحيحة لا تستطير خوفاً من الالم ، ولكنها تشتهيه - ولهذا الاشتهاء نكهة" ساحرة" ، خاصة" ، ترفعنا في سريرتنا ، فيعلو شأننا . وهكذا تبين لنا الشفقة ذات اربع ألوان مختلفة الكيف . وبذلك يستحيل علينا القول، عن احدى هذه الحالات ، بأنها اقل او اكثر من غيرها [1].

* * *

وتتميز الوجدانيات بطابع ثالث ، بالاضافة الى التحول والكيف . هذا الطابع هو ان الحالة النفسية لا تعود ثانية الى الوجود ، متى عبرت فصارت ماضياً . عـــالم الباطن لا يرتكس الى الوراء : يذكرنا هذا المبدأ بفلسفة هرقليطس القائل : « انت لا تنزل النهر الواحد مرتين، لأن مياهاً جديدة تجري من حولك دائماً وابداً » . ان حالة من البغض عشتها امس ، لن ترجع مرة اخرى : ما فات فات ، لان التطور خلاّق ، وإلا ما معنى الشيخوخة ؟ لو كان بمقدور الانسان ان يعود القهقرى ، لبقي في مكان واحـــد من العمر . وهي الغصة النفسية ، التي نشعر بها كلنا ، عندما نرى الايام تعبر. وقد أبدع لامرتين ، حين وصف هذه الغصة الفؤادية في « بحيرته» الخالدة . قال ، وهو يتذكر الحبيبة ، على ضفاف بحيرة :

يا دهر قف فحرام ان تطير بنا ... من قبل ان نتملّى من امانينا

ويا زمان الصبا دعنا على مهلٍ ... نلتذُّ بالحب في احلى ليالينا

اجب دعاء بني البؤسى بأرضك ذي ... وطِرْ بهم فهمُ في العيش يشقونا

---

[1]) راجع ترجمتنـــا لكتاب برغسون « رسالة في معطيات الوجدان البديهية » الفصل الأول بيروت ١٩٤٥ .

خذِ التعيس وخذ معه تعاسته — وخلّنا فهنــاء العيش يكفينا
هيهات هيهات ان الدهر يسمع لي — فالوقت يُفلت والساعات تفنينا
تالله يا ظلمةَ الماضي ويا عدماً — في ليلهِ الأبديّ الدهرُ يرمينا
مــا زال لجّك للايام مبتلعاً — فما الذي انت بالايام تجرينا
ناشدُتكِ الله قولي وارحمي ولهي — أترجعين لنــا أحلام ماضينا
فيـــا بحيرة ايام الصبا ابداً — تبقين بالدهر والايام تزرينا
تذكار عهد التصابي فاحفظيه لنا — ففيك عهد التصابي بات مدفونا

* * *

لقد ضرب لامرتين على وتر يحرك النفس ، في مجابهتها اخطر القضايا الكبرى ، ويرفعها الى اعلى ذروات العواطف الانسانية . ولكننا غالباً ما نزّور الديمومة بالفضاء ، فنظن انها قابلة للارتكاس ، على حين انها سيلان مجدّد . الديمومة نظم لا رصف ... انها نمو عضوي . مثلها مثل المعزوفة ، التي ندركها كيفاً ضمةً واحدةً . مجموع ايقاعاتها كلٌ حياتي ، لا نستطيع ان نفصل بين اجزائه — بوضوح وتمييز — ولا ان نجمّد عناصره ، لنمددها متعاصرة في خــلاء متجانس ، رغبة انندركها ثانية في ترتيب مقلوب . ان روح القطعةالموسيقية، كالكائن الحي ، وحدة لا تتفكك . النوطات يمكن لنا ان نقلبها . اما اللحن ، الذي يخمر وجداننا ، فهو نظم حميميّ. بين النفسيات . هذا الشعور يتمرد على العدّ ، لانه نموّ متغاير المراحل ، لا يقبل الارتكاس الى الوراء . ومن هنـا السير نحو الشيخوخة . ومن هنا ايضاً مأساة النظر الى الماضي ، الذي لــن يعود . نحن لا ننزل النهر الواحد مرتين ، لأن مياهاً جديدة تجري من حولنا، دائماً وابداً .

* * *

هــذه هي الديمومة ، التي جعل منها برغسون قاعدة لصرح فلسفي عال ؛؛؛ نعني لنظرة شاملة في الانسان ، والطبيعة ، والخالق . وكان من البديهي ان يمر بمشكلة اللغة ، بل كانت اللغة مع الفضاء من المهمات الكبرى ، التي عالجها في بدء فلسفته . وقد حدّد اللغة مجموعة ألفاظ ، بينها فرج تتنفس عن ممرات مديدة . ان اللغة كالفضاء تتكسر الفاظاً متشابهةً ، قابلة للارتكاس، والعدّ . اللفظة ، اذن ، هي اسّ اللغة . واللفظة جامدة لا تتحول .

من هنا عجز اللغة عن ان تشير الى هــذا الابداع في الحالات النفسية ، الا بألفاظ واحدة عند الجميع . لذلك لا ندرك من لهب ابداعنا غير المظهر الشيئي ... اي اللاشخصي . ان حبي يختلف عن حب سواي . وهو يختلف ، اليوم ، عما كان بالامس . ومع كل هذا ، لا أستعمل الا الكلمات التي يتصرف بها غيري ، فأظن ان النفسيات جامدة ... مفككة ... كالالفاظ التي تعبر عنهــا . ان اللغة عاجزة ، اصلا ، عن ان تدرك خبايا الوجدان [١] .

* * *

العاطفة كائن يعيش ،وينمو، وبالتالي يتغير كيفياً . ولما كنا لا نعلق اهمية كبرى على وهج الحياة الباطنية (كما نعلق اهمية على حياتنا الخارجية) فإننــا نرمد الحالات الوجدانية ، كي نتمكن من ان نعبر عنها بالالفاظ العامة . لهذا نخلط بين الحالة النفسية وسببهــا المادي ، سيما الكلمة التي تترجمها . فإذا قام روائي جسور ، ومزق هــذه البراقع التي حاكتها الأنا البرانية ، وارانا تحت جليد الظواهر براكين الحياة الداخلية ... اذا وُجد هذا الروائي ، فاننا نمجده ، لانه يكون قد عرفنا اكثر مما نعرف ذواتنا . ومع ذلك فالواقع غير هذا . ان مجرد بسطِه العاطفة في فضاء متجانس ، والتعبيرِ عنها بالألفاظ ، يخنقان الجزء

---

١) راجع كتابنا عن برغسون . الجزء الاول صفحة ١٢٣ .

الأكبر من حرارة هذه العاطفة . هو لا يعرض منها الا ظلا باهتاً . ومن هنا اعتقاد برغسون ان سلطان اللغة علينا اقوى مما نتصوره . فهي التي تجمد وتشل الديمومة . وبذلك تخدعنا ، لأنها تفسد حقيقة ما نشعر به . ان الكلمة المحاطة باطارات محددة — الكلمة الجافة التي تخزن في جوفها الرماد والموت — تعطل السيلان ، وتقضي على ما في الوجدان من ابداع شخصي . اجل كثيراً ما نقاوم الالفاظ بألفاظ اشد مضاءً .. كثيراً ما نقرع باب الغيب بغيب في الألفاظ.. ولكن هذه الالفاظ المجلوّة ترتد بدورهـا لتفسد (بعد ان تكوّن) عفاف الوجدان الصادرة عنه .

• • •

قال في كتابه **الضحك** ما فحواه : نحن لا نرى الاشياء ذاتها ، بـل نكتفي غالباً بأن نقرأ عناوينها الملصقة عليها . هـذا الميل ، الذي هو وليد الحاجة ، يشتد بتأثير اللغة . فالكلمات (ما عدا اسماء الاعلام) تشير الى اجناس . هي لا تذكر من الشيء غير وظيفته العامة ، وجانبه المبتذل ، وبذلك تحدث القطيعة بيننا وبينه ... وليس هذا فيما يختص بالاشياء المادية ، فحسب. احوالنا النفسية الخاصة —ايضاً — يتوارى منها عن ابصارنا اخص ما فيها ، واهمه، واعمقه تأصلا في الحياة. نحن نحس بالحب او البغض. نحن نشعر بالفرح او الحزن . ولكن هل عاطفتنا هذه ، هي ذاتها التي تصل الى وجداننا مع الوف اللوينات الخاطفة ، والوف الاصداء العميقة ، الجاعلة عاطفتنا نحن ؟ لو كان الامر كذلك، لكنا جميعاً روائيين ... جميعاًشعراء.. جميعاً موسيقيين . غير اننا لا ندرك غالباً ، من حالتنا النفسية ، الا انتشارها الخارجي . ولا ندرك من عواطفنا الا جانبها العام ، الذي استطاعت اللغة ان تحدده تحديداً نهائياً ، لانه يكاد يكون هو هو ، في الظروف عينها ، لكافة الناس . وهكذا تفوتنا الفردية ، حتى في فرديتنا الخاصة . ولهـذا

نعوم بين الرموز والعموميات ، كما ندور ضمن حقـل مغلق ، تصطرع فيه قوّتنا بقوىً اخرى اصطراعاً عملياً . ولقد فتننا العمل ، وجرّنا — في سبيل مصلحتنا — الى الساحة التي اختارها لذاته ، فأصبحنا نعيش في منطقة وسيطة بيننا وبين الاشياء ، بدل ان نعيش في الاشياء ، وفي انفسنا [١] .

* * *

هذا من حيث النظر ، اما من حيث الواقع ، فقد كان برغسون من اعرق كتاب فرنسا . كانت الفاظه تخرج من شق القلم ذهباً وابريزاً . لقد سمي ، في زمانه ، بالساحر .

الحق ان بيانه ، كفلسفته ، يدعو الى الحركة . ايحائي ، ينضغط بعضه في بعض ، كجوهرة ذات الف لمعة . كان يعتقد ان الايحاء في الكتابة اشفى للغليل ، وابلغ للمراد ، وأجرى على النفس العاشقة . في الايحاء تنبيـه ، وإيقاظ ، وتقويم . تقليله إكثار يهتدى به الى بادي الروح ، ومكتومها . به تجول الخاطرة في ممرات ، فتتطاول الدعوى ، كأنك امام تيار الحياة عينه . ينساب ليناً بموجه الذي يروح ، ويجيء ، ثم يموت في الابعاد. البيانالبرغسوني، كغموض القمر، يثير فينا احلاماً ، ويرسل القشعريرات . يبقى ان نعرف اين يكمن هذا السر الجمالي ، الذي زاوله ، فكان مثل مروّض الافاعي بمزماره الساحر . عندنا انه يكمن في ميزتين انشائيتين : الموسيقى والتصوير .

* * *

---

١) راجع كتابنا عن برغسون . الجزء الاول صفحة ٢٣٤

٦

الموسيقى ، في الانشاء ، لا تقوم عنـــد برغسون على جرس الحروف =
الحروف ، اصلا ، تتعطّل في ازدحام البواطن . والالفاظ تشل فوق عتبتها =
الموسيقى ، عنـده ، موجات تطول وتقصر . ذلك لان النفس مجالات . هي
تذبذب إيقاعي بين مدّ وجزر دائمين . مثَلها مثَل الرّقاص الذي لا يستقر
على حال . لا محطات في نموّها الدائب . لا وقفات في تثاؤبها . انها تتمطّى
بدون انقطاع . لهذا لا تنضغط حالاتها ، في بضعة احرف ، او في كمّ الفاظ .
الديمومة لا تحصر في قبضة من الكلمات ، بل تظل مندفعة ، بشكل لولبيّ ،
دون ان ينضّد بعضها فوق بعض، في تراصّ ينتهي اخيراً ـ كراس الدبوس ـ
بكلمة واحدة ، او اكثر .

يعني ان الوجدان يتراقص علواً ، وهبوطاً ، على مجالات متفاوتة . هو أشبه
بالتنفس الذي تقوم به الرئتان . انه صمت ، اذن ، بالنسبة الى جرس الكلمات .
ولكنه صمت موقّع .. صمت يتحرّك .. يتماوج .. يتمعّج . علينا ، اذن ، ان
نبحث عن تزاوج صحيح ، بين المعنى وفواصل الجملة ، لا بين المعنى وجرس
الكلمات ، بحيث تغدو مسافات الفواصل تخطيطاً لمسافات الوجدان، المولدذاته .
النفس مجالات ديمومية ، والفواصل مجالات فضائية . وهكذا يقترن التنقيط
بلولبيات النفس النامية ، فيصبح مشحاتها على بياض القرطاس . قال مافحواه :
نلاحظ ان الالفاظ ـ وان اعتنينا بانتقائها ـ لن تقول ما نريدها ان تقول ،
ما لم يصحبها ايقاع الكلمات ، وتنقيط الجمل ، وتخطيط المقال كله . هذا
التنقيط يساعد القارىء (المساق حينئذ بطائفة من الحركات الناشئة) على ان

يرسم منحنيات من الفكر ، والعاطفة ، شبيهة بالمنحنيات التي نرسمها نحن له .
هنا ينحصر فن الكتابة كله .
هذا الفن شبيه بفن الموسيقى . ولا أعني بالموسيقى تلك التي تتجه الى الاذن فحسب ، كما يخيل الينا عادة . فغير الفرنسي ، مثلا — مهما ألفت اذنه الموسيقى — لا يفرّق بين النثر الذي يراه الفرنسيون موسيقياً ، والنثر الذي ليس كذلك ... اي انه لا يفرّق بين النثر الفني والنثر العادي . وهذا دليل على ان القضية ليست قضية تناغم مادي بين أصوات . ان مقدرة الكاتب تقوم على ان ينسينا كونه يستعمل الفاظاً . والتناغم ، او الانسجام ، الذي ينشده الكاتب ، هو نوع من المطابقة بين حركات فكره وحركات حديثه . اذا كانت هذه المطابقة تامة ، رأينا موجات فكره تنتقل الى فكرنا نحن ، على اجنحة العبارة ، فلا يكون عندئذ للفظة الواحدة اي شأن ، ولا يكون ثمّة إلا المعنى المتحرّك ، الذي يخترق الكلمات . لا يكون هناك إلا فكران فقط ينبضان معاً على إيقاع واحد . غاية إيقاع الالفاظ ، اذن ، ان تمثل إيقاع الفكر [١] .

* * *

يلخص لنا هذا سرّ جلال الانشاء البرغسوني . قال كايسرلنغ « Keyserling » مرة : لم أدرك تماماً الى اي حد يمكن اعتبار برغسون كاتباً عظيماً ، الا يوم سألته عما اذا كان ينقح مسوداته كثيراً . قال : الكلمات احياناً لا الفواصل [٢] .
اجل ، كان برغسون يعير الفواصل اهتماماً زائداً . ظنّ ان شكل الفواصل ، على الورقة البيضاء ، يرسم هيكل الفكر ... يخطط اسقالته . ومن هنا ميله

١) راجع كتابه « في الطاقة الروحية » المحاضرة التي عنوانها « في النفس والجسد » .
٢) راجع كتابه « Sur L'Art de Vivre » ١٩٥٣ .

الشديد الى الجمل البسيطة ، القصيرة ، المنقّطة ، بعياقة وكياسة . عباراته كالراقصة الرشيقة ، التي تدور في حلقاتها ، بليونة ونعومة . المهمّ في نظره ان يتسلطن قلمه على الكلمات بدون عناء ، وتكلّف .. ان تتدفق اللغة عفواً من نبعها الاول . لا نخطىء ، في هذا المجال ، اذا اطلقنا على بيانه الحكم ذاته الذي عرّف به البيان الجميل . قال ، في هذا التعريف ، ما يلي :

العبارة الكاملة هي التي تخرج بسيطة.. او بالاحرى هي التي تأتي جبراً كامتداد موجب ... بحيث اننا لا نقف عندها ، بل نتجاوزها في خط مستقيم الى ما تريد ان تعبر عنه ، كأنها والفكرة المقصودة شيء واحد . هذه العبارة تذوب لفرط شفافتها [1]

* * *

تنقيط الفواصل وحده غير كاف . هذا التنقيط لا يبرز بالتمام اخاديد الفكر : هناك الصورة ايضاً . والمعنيّ بالصورة ههنا الالوان التي توحي ، لا الالوان التي تعبّر . ولهذا نرى برغسون يميّز بين طرازين من الصور : صور جامدة ، وصور متحركة . الأولى لا تعطي من الوجدان غير وقفات . الثانية تومىء من بعيد الى ديمومة النفس . الاولى تعبّر ، الثانية توحي . والإيحاء ، في عرف برغسون ، ادرّ للخيال ، واحضر للعين ، وانشر للباطن ، واحلى ، واعذب ، واعلق في النفس : هو معشوق الحسّ بمعونة العقل .

زاول برغسون الصورة ، على نطاق واسع ، في جميع كتبه :.. سيّما **التطور الخلاق** الذي يبحث في علم الاحياء ... مما حدا البيولوجيين على تهجين هذه الطريقة التي تتنافى مع ديوان الانشاء العلمي . ولكنهم نسوا ان برغسون بصريّ ، اي ان مداه في حاسة الرؤية ، يتمثل الطبيعة ملوّنة جميع النفسيات التي لا لون لها . كان برغسون يستعين بأصباغ المادة ، ليوحي بُعدَ الاحاسيس القريبة : بها يكثر القليل ، ويتزايد نداء الاقصى ، وتتوالد الدعوى . ومن هنا

---

١) راجع كتابه « في الفكر والمتحرك » وجه ٣١ - ٣٢

تصنيف برغسون الانشاء الى نوعين : انشاء يابس يقوم على الصورة الجامدة ، وانشاء طريّ يقوم على الصورة المتحركة . الاول يساوي كمّاً بين بسط الداخل وقبض الكلمات . الثاني يفجر من بواطننا ينابيع فوّارة ، تتوالد بدون انقطاع.

* * *

الانشاء اليابس عاس . هو جامد كالبحص . على الفيلسوف ان يتحاشاه، لانه لا يعطي غير الجص . الانشاء الطريّ سائل ، لزج كالدابوق ، يساير منحنيات القلب ، ويلاحف تمعجات الفكر . الحقيقة ان الوجدان تكويعات ، وتطعيجات . ولذا يجب على الانشاء الرطب ان يكون جار النفس ، بيتٌ بيت . هذا الانشاء يغفي عن الخارج بفضل الارجوانيات . انه يخلق فينا تمشيحات ، هي دائماً في تهيء مستمر، لأن تتخذ اشكال الباطن الهروب.

* * *

الواقع ان اللغة ، كحفنة الفاظ بينها فرج ، لا تستطيع ان تبرز بالتمام حشو النفس . تأتي الصورة الارجوانية ، فتعطي الكلمة زخماً ايحائياً ، تقدر به ان تسمعنا الارغن: الذي يجوّد في صالاتنا الجوّانية . الصورة الموحية تخرجنا من وضوح الشمس الى غموض القمر .. تلقحنا بتركيب عجيب، غريب ، دخانيّ المزاج . هذه الصورة هي الصلابة في ميعانها ، والثقل في خفتها ، والغيب في حضرتها . متناقضات ، اجل ، ولكن فيهما يكمن سر عظمة الكتابة . هي كالطلسم الذي يدعو روح الاشياء ، دون ان يكون الاشياء ذاتها . الصورة المتحركة تدخلنا في عالم من النورانيات الغامضة . هي لا تعلن المحجوب من العواطف ، الا لتحتفظ بسرية هذا المحجوب . كالمساحيق تخفي ظاهراً ، لتظهر خفياً . اذا اومأت الى السماء ، جعلتها موطئاً لاقدامنا . واذا اومأت

الى الارض ، بخرت عليها ، فصار ترابها غماماً . وهكذا تبقى الصورة بين
بين ... بين كثافة المادة ، ولطافة الروح .

* * *

لا بد لنا ، ههنا ، من ان نقول كلمة في الفن . لقد تحدث عنه برغسون، كثيراً ، في جولاته . قال :

> يرمي الفن الى اغفاء القوى العاملة فينا ، او المقاومة بالاحرى في شخصيتنا ، وسوقنا هكذا صاغرين الى حالة من الطاعة العامة ، التي تحقق فيها تلك الفكرة الموحاة لنا ، فنتحد والعاطفة المومى اليها [1]

واضح من هذا القول ان الجمال يوحى به ، ولا يعبر عنه . اكثر من ذلك، لا جمال بدون ايحاء ،ولا ايحاء بدون جمال . هما شرطان متلازمان . اليس هذا هو الفارق ، الذي يميز بين جمال الفن ، وجمال الطبيعة ؟ اذا كانت الموسيقى مثلا ، تسطو على مجامع الفؤاد بقوة أشد من قوة الطبيعة ، فلأن **الطبيعة تكتفي بالتعبير عن العواطف ، في حين ان الموسيقى توحيها لنا .**

الواقع ان الطبيعة جدباء ... اي انها خالية من كل فحوى يتطاول . هي في متناول حسنا كملء خشن ، يابس ، عاس . لا ينبض فيها شرش حياة . لذا وجب على الفنان ان يدخلها في مجالات الانسان .. ان يحرّك لامبالاتها بنظرة من العين الرائية .. ان يمندلها بنور من الفكر المقيم .. ان يجعلها تعبق بروائح العاطفة الرطبة . على الفنان ان يعيد خلق المادة من جديد ، ليستخرج منها كوامن انسانية ، هي كوامنه عينها .. ان يرش عليها من رذاذه ... ان يسجل لها ثبتاً من عنده . لذا نرى الطبيعة تحمل ، في الفن ، بصمات الفكر البشري ، لتنحني امام عظمته . الفن يوقظ المادة ، بدعوة من النفس ، التي تقمطها بالاحلام . من هنا كانت غاية الفن الكبير ان لا يمحض الطبيعة .. اي ان لا

---

(١) راجع الفصل الاول من كتابه « رسالة في معطيات الوجدان البديهية »

يحاول النفاذ اليها ، في خاص ذاتها ، بمعزل عن اشواق الفؤاد ... ولكن ان يوحيها لنا من بعيد ، كما تتراءى لعين عاشقة .

* * *

هذه زهرة امامي . أين جمالها ؟ أفي العبير ؟ أم في الاوراق الساذجة ؟ أم في الاصباغ ؟ أم في الاضواء والظلال ؟ هذه المعزولات لا توحي . لا تعبر الا عن محض الزهرة مادة . هي لا تجعل من الزهرة دعوة الى احساسات خصبة .. او عطر بهجة وروعة .. او قضية فكر ، وعقدة نفس . هذا الشيء المعنوي ، الذي نقل الزهرة من انها طبيعة اكيدة ، الى انها استفهام قلق ... اي قضية نخاسة ... هو الجمال بذاته ، لانه لا يعبر عن تمام الزهرة ، بل يزرع فينا خواطر تتوالد . هو الجمال الاحق ، لانه يجعل الزهرة جزءاً من قمم في لوحة الوجود الاكبر .. يجعلها قطعة نابضة في قصيدة الحياة ... يجيزها من حدود الوضوح الاكيد الى حدود الغموض الحائر . لذا يجب علينا ان نكتب ، لا بدافع من واقعية الطبيعة ، بل بدافع من مثالية النفس .

والذي نقوله في الطبيعة ، نقوله في الوجدان . هنا ايضاً ينبغي ان لا ننسخ الحالات ، كما هي في حالها الاصيل . كلما نأت الحالة ، وغاصت في غبش البعيد ، مالت الى الانسكاب في مواجيد المادة .. مالت الى الوان الطبيعة ، تتمظهر في اشكالها المرئية . هذا هو سر التجسد . الكلمات ، في خالص محضها، لا تستطيع ان تؤدي حالة وجدانية . الذي يسد العجز ، ههنا ، هو الصورة التي يلتجيء الفنان اليها . وكل صورة هي جزء من الطبيعة ، اذ لا صورة الا وهي لوينات مادة . اذن الايحاء هو غاية الفن الكبير . ان نرفع الطبيعة باهماً الى فوق ، فتتأنسن ... وان نهبط بالانسان باهماً الى تحت ، فيتطبعن ... هذا هو مدار الايحاء .

* * *

ولكن ما هو الايحاء ؟ على اي شيء يقوم صلبه ؟ الايحاء تكهّن بطريقة غير واضحة هو ترك الموحى اليه في هالة من الارتجاج . الايحاء لا يعطي شكلا جلياً ... لا يأسر الفكر . الفنان هو الذي يترك الفكر يسرح ، ويمرح ، على هواه في مطاوي القصيّ . يعطي شرفة ، لا غير ، على البعيد البعيد . يضيء الاشياء بالظلال ... يوضح بالعتمات . الواقع ان الاسرار تحيط بنا من كل صوب . لاجلاء في الداخل ، ولا جلاء في الخارج . اكداس ضباب تتلبّد حول كل ما نراه ، ونلمسه ، ونشعر به . المجهول رابض في كل مكان . وفي كل مكان ثنايا ، وتضاعيف ، مما يدعو الى البحران .

لا ريب من ان ابعاد هذا المجهول تتقلص اكثر فأكثر . ولكن سيظل في الثنائيات . والانسان يكره ، بالواقع ، الاشياء الواضحة كل الوضوح ... يكره وضوح المعلوم ... والاطارات الدقيقة لا تتجانس مع رغبته كل التجانس . هو لا يكتفي بما يُقال ، ويُفعَل ، بل يخوض بدون انقطاع لجج الخبايا الساحرة . اجل ، في الانسان حنين الى المجهول ، سواء احلق المرء في سماء الفكر المجرد ، او رغب في استطلاع ظواهر الطبيعة ، او ابتغى معرفة قواه الادبية والجمالية . هو نزاع دائماً الى مجهول لا يعلمه ... الى سر يقلقه .

* * *

هذا السر لا يعني شيئاً غريباً عنا كل الغرابة ... هذا السر نشعر به ، ونعيشه على انه مجهول . هنا تبرز غاية الايحاء ، القائمة على ان يرقي ، أي على أن يدعونا الى البحران الحالم . غايته ان يقلل من حاضر المعلوم ، ليكثر من غيب المجهول ... ان يصعد من اعماقنا سيلا سلسبيلا كنبع لا يجف ... ان يرسل فينا المشاعل اللاهبة ، بعد ان يحدث الليل من حولنا . به نتطاول ، ونتمطى ، ونتمدد ، فنرى بدون ان ننظر . كلما بعدنا ، فيه ، كانت القربى . اجل ، الجزء افضل من الكل ، في الفن ، لانه يترك على حواشيه فجوات من

الغموض ، تسمح بالخلق على طريقة خاصة . يشبه الايحاءُ البهتَ القمري، الذي يجعل الافكار متواضعة ، في حين ان نور الشمس يجعلها صلفة . اليس الضجر هو ان نقول كل شيء ؟ ولذا فرّق برغسون بين نوعين من الوضوح: وضوح موح ، ووضوح معبر . قال :

الفكرة الجديدة تكون واضحة على طريقتين . هي واضحة ، عندما تظهر لنــــا – في ترتيب جديد – افكاراً جزئية نعرفها قبلًا . في هذا الجديد لا يرى عقلنا غير القديم . يحس بأنه في موطن المعرفة . يشعر بنفسه انه في عقر داره ... انه يفهم . هذا الوضوح هو الذي نريده ... هو الذي نبحث عنه ... ونشكر دائماً من يزودنا به . ولكن ثمة وضوح آخر ، يصدمنا حقاً ، ولا نستانس به الا بعد تمرس طويل . انه وضوح الفكرة الجديدة كل الجدة ، البسيطة كل البساطة ... وضوح الفكرة التي تلتقط الحدس ، من بعيد او قريب . ولما كنا عاجزين عن ان نعيد تركيب هذه الفكرة الجديدة ، بواسطةالمناصر الموجودة قبلًا (اذ لا عناصر لها) وكان ادراكنا للاشياء يقوم عادة على ان نركب الجديد بالقديم ، فاننا نسارع الى القول بان الفكرة الجديدة غير واضحة . ولكن اذا قبلنا هذه الفكرة الى حين ، واعدناها على مسن المعرفة ، رأينا ان غموضها ذاته هو الذي يبدد العتمات ١ .

* * *

هذا الغموض ليس نقصاً في الوضوح ، ولكنه وضوح على طريقة اسمى ... وضوح يزيد نوراً كلما استسمكت عتمة الغموض . هذا هو الامر الذي حدا على القول بأن شعر الرمزيين غامض . اجل ، انه غامض ، ولكنه غموض مقصود – من لدنهم – لان الفكر المنطقي لا يشمل كل الفكر . ان هو الا الجزء الذي اقتطعته الحياة من كلّ ارحب . هناك المطاوي اللاواعية ، الــتي تفيض من الفكر الاكبر على حواشي الفكر الاصغر . ولذا نفشل اذا بحثنا ، في شعر الرمزيين ، عن فكرٍ واضحةٍ . الرمزية بداية معيدة على الدوام ... طراوة لا يستطيع العقل المحاسب ان يحوشها . هذان الوضوحان (الكاشف

---

١) في الفكر والمتحرك . ص ٣١-٣٢

المفسّر بالتعبير ، والساتر المغشّي بالايحاء) يوجبان نوعين من الانشاء . واحد يقول كل ما يتوجب عليه ان يقوله ، وثان لا يقول كل ما يتوجب عليه ان يقوله . الاول يحجب عن بصيرتنا نائيات الممكن . الثاني يترك في الافياء ما كان يود لو يظهره ، لذا يطرحنا في الشاسع خلف حدود الفكر الصغير .

الرمزية ليست اقتصاداً في التعبير . انها سخاء . ولكنها السخاء الممضّ ، الذي يجبرنا على بذل اكبر الطاقات المرصوصة فينا . هي كالقنبلة المحشوة . حالما تلقى فكر قارىء يخن ّ الى الابعاد ، تفجّر فيه الف صورة ، وتوقظ الف خيال . هي عكس الوضوح ، الذي يفرضه الرقم الهندسي . انها تلوح من بعيد ، وتتناهى عبر القصيّ ، راسمة في الوجدان سماء ، تخطّط غيومها الف شكل وشكل .

الانشاء البرغسوني ، كانشاء الرمزيين ، يمد فينا بطاحاً تماوج . ولكن هـذا لا يعني انـه لا خلاف بين رمزية برغسون ورمزية الشعراء الرمزيين . لقد آمن برغسون بأن مطاعج النفس لا يعبر عنهـا ، بل يوحى بها من بعيد ، فتصبح قريبة . الى هنا يتفق مع الرمزيين . ولكنه يفترق عنهم بالطريقة التي يُلتجأ اليها في سبيل ايحاء تلك المطاعج . برغسون لا يعتقد ان الكلمة ذات زخم .. ذات حرارة لاهبة . الكلمة مومياء . هي جثة فارقتها الروح . ولما كان الفيلسوف مضطراً الى ان يبرق افكاره ... نظراً لأنه يعيش في المجتمع .. فهو يحتال على الكلمة بالموسيقى ، وبالصور . الكلمة ، في خاص كيانها ، قديد . حجّرها الاستعمال ، وخشّبها الفضاء . لهذا لا تلتقط الوجدان لفرط سرعته في الانسياب ، ولفرط انشعابه في جميع الجهات . تأتي ارجوحة الفواصل ، وطراوة الاصباغ ، فتعيد الى الوجدان عفافه .

* * *

الرمزيون يخالفون برغسون ، بهذا الصدد . الكلمة ، عندهم ، صوت الوجدان . لها سحرها ، ودفؤها ، وعبقها . الكلمات مظهر من مظاهر الانفعال النفسي .

لها جهرها وهمسها . لها لينها وشدتها. لها تفخيمها وترقيقها . لها بتولة الفكر، وطهارة الحس . منها ما هو وليد الخطيئة، فيرذل. ومنها ما هو وليد الفضيلة، فيقبل . الاولى تتنكر للفكر الكبير ، الثانية تتدنس في حضرة الفكر الصغير . الاولى عفيفات ، الثانية فاجرات . هذه هي الفصاحة في اللغة . يقول الشاعر الافرنسي ستيفان ملارمه :

Car le mot, qu'on le sache, est un être vivant

لم يعترف برغسون بقيمة اكيدة للفظة...لم يسلم بأن الكلمات مفاتيح عجيبة، بدونها لا نتمكن من ان نلج حصون الفكر... لم ير في الكلمات قيماً انطولوجية، لقد سدد جل انتباهه ، في التعبير ، الى الفواصل والاصباغ . اما الكلمة ، ككلمة ، فقد انتقلت الى المحل الثاني . ومن هنا تسامحه ، بل اهماله ، في انتقاء الالفاظ الصالحة . لم يعان ، يوماً ، مهمة تحديد الكلمات. لهذا يصطدم القارىء بشيء من الابهام ، في كتبه ... ابهــام جعله يستعمل لفظتي فضاء وامتداد ، بمعنى واحد ... لفظتي ذكاء وادراك ، بمعنى واحد .. وهكذا قل عن لفظتي وعي ولا وعي ، حدس وغريزة. على حين ان هذه الازواج من الكلمات لا تقصد المعنى ذاته. هذا الاهمال ، في اختيار الكلمات، أقلق الشارحين كثيراً . ممــا حدا هوفدنغ على القول بأن قواعد الفكر ودقة التعبير ، عند برغسون ، لا تسمو سمو انشائه . [1]

* * *

وهكذا تبقى اللغة في حكم الاعدام . لا شيء – حتى النمط الايحائي العالي – يستطيع ان ينقل الاتجاهات الفكرية المتعاقبة . ان وراء الالفاظ ما هو أرهف من الالفاظ . هناك الفكر الحقيقي ، الواقعي ، الحي ، الذي لا يسلس للملاحظة الباطنية ، مهما تكن صارمة . سواء في الادب الرفيع ، او في المحادثات اليومية، لقد ختم على الكلمة الا تلج فيحاء النفس. ان الفكر، الذي يحدثوننا عنه، هو صورة

---

١) فلسفة برغسون لهوفدنغ (Hoffding) ، صفحة ١٢ Alcan – ١٩١٨

مصطنعة ، قزمية ، للفكر الجبار فينا . على الفيلسوف ، اذن ، ان يقوم بعملية تطهير ، قبل كل شيء ... اي ان يجرد الكلمات من معانيها التقليدية ،فينفث فيها روحاً جديدة . رغم ذلك ، تظل بعيدة كل البعد عن النسخة الاصلية .
ما العمل ، والحالة هذه ؟ الصمت .

لا نبالغ اذا قلنا بأن فلسفة برغسون تقود الى الصمت . هي فلسفة الصمت ـ ان الذي يقوله الفيلسوف بحاجة الى شرح . والشرح ذاته بحاجة الى شرح . وشرح الشرح يظل غامضاً ، اذا مـــا سارع الانسان الى شرحه . وهكـذا دواليك ، حتى يقضي الفيلسوف حتفه ، دون ان يصل الى آخر الشروح . معنى هـــذا ان الاحساس بالديمومة ملك خاص للفيلسوف ، لا يمكن في حال من الاحوال نقله الى الآخرين ، مهما سما الانشاء في الاجواء الايحائية . هـذا الاحساس يبقى في القرارة ، ولا يعلن ذاته إلا للذي يحس به ... اي لصاحبه فقط.الفن يقرب كثيراً بيننا وبين الديمومة الخالصة، ولكنه لن يمكننا من التعبير عنها تماماً . قد تصبح على قاب قوس ، منا ، اذا احكمنا اختيار الكلام ... يعني الموسيقى والتصوير ... غير انها تظل دائماً وابداً على مرمى حجر عن باعنا . لقد ضرب الحرم على اللغة ، فباتت وسيلة لغاية ... وسيلة مخربة في كل حال .

* * *

الباب الثاني

في أنطولوجية اللغة

الى هنا ، في هذه الجولة، عبر اقبية التاريخ . لقد رأينا كيف سارت معضلة اللغة مع الاجيال . ابتدأت علاقة" بين الاسماء ومواجيد الطبيعة : وانتهت علاقة بين الاسماء ومواجيد النفس . ثم رأينا كيف ان العلم لم يشف غليلا ، فجاءت الحلول ، التي اعطيت لتلك العلاقة .. منذ عهد اليونان ، الى عصرنا هذا ... تتراوح بين التوقيفية والتواطؤية . لا شك في ان التوقيفية على انواع، والتواطؤية على أنواع . لكن ذلك التنوّع الخصب يقف عند حد خطين عريضين. واحد يدور حول الهامية اللغة (تلك هي التوقيفية) وآخر يدور حول اصطلاحيتها (تلك هي التواطؤية) .

الاول يقول بامانة اللغة في تأدية وظيفة التعبير . الثاني يقول بخيانة اللغة في تأدية هذه الوظيفة . وقد وجد الخط الثاني فيلسوفه الاكبر ، في برغسون ، اذ به تخرج نظرة" فلسفية . به لم يعد مجرد تذمّر ادبي ، او شتيت اراء . لقد اصبحت هذه الخيانة احدى المحجات الضخمة ، التي صوّب اليها برغسون سهام نقده الميتافيزيقي . اما نحن ، فقد ملنا الى المذهب التوقيفي ، ولكن وفق طريقة خاصة ، سنحوم عليها في الصفحات التالية . انطلقنا من البرغسونية ، وانتهينا الى عكس ما تقول . نحن نؤمن بان التفكير والتعبير شيء واحد ... بان اللغة تستولي على الوجدان استيلاء كاملا . نؤمن بان اللغة وجدان

ناطق ... بان الوجدان لغة صامتة . لا فرق بينهما ، اطلاقاً ، عندنا .ولتبيان ذلك ، يجب علينا ان نندفع في تحديد اللغة ، فالوجدان ، واخيراً المعنى .

١

ان أول ما يتبادر الى الذهن – عند سماع كلمة «اللغة» – هو ما اسماه ابن خلدون « قرع الشفتين » . اللغة تحريك شفاه ، واحداث صوت بها . لكن تعريف اللغة ، بقرع الشفتين ، لا يتفق مع اجماع الفلاسفة على انها من خصائص الانسان وحده ، دون باقي الكائنات . وقد لاحظ ديكارت هذا الفاصل المبرم بين الانسان والحيوان . الحيوان يصوّت ، ايضاً ، الا انه لا يتكلم . لذا كان (اي الفاصل) من الامور الاولى ، التي حرص ديكارت على ايضاحها ، في اواخر القسم الخامس من خطابه . قال ، مستنداً الى ظاهرة اللغة ، ما فحواه :

من الملاحظ انه ليس في البشر – ولا استثني البلهاء – من هم من الغباوة ، والبلادة ، بحيث يعجزون عن أن يرتبوا الالفاظ المختلفة ... بعضها مع بعض ... وأن يؤلفوا منها كلاماً يعبّرون به عن افكارهم . على حين انه لا يوجد حيوان واحد يستطيع ان يفعل ذلك ، مهما يكن امره كاملا ، وظروف نشأته مؤاتية . وهذا لا يأتي من نقص في اعضاء الحيوانات . ان العقعق ، والببغاء ، يستطيعان النطق ببعض الالفاظ مثلنا ، ولكنهما لا يقدران على الكلام ... اعني على كلام يشهد انهما يعيان ما يقولان = ان الناس الذين ولدوا صماً ، بكماً ، وحرموا الاعضاء التي يستخدمها غيرهم

للكلام ، قد اعتادوا ان يخترعوا من تلقاء انفسهم اشارات ، يفهمها من يجد الفرصة الكافية ، لتعلم لغتهم ، عن طريق وجوده باستمرار بينهم .

يدل هذا على ان لا عقل للحيوانات ، بتة ، لأن معرفة الكلام لا تستلزم غير القليل من العقل . ولما كان ثمـة تباين بين افراد النوع الواحد ، من الحيوان ، كتباين افراد نوع الانسان ... وكان بعضها أيسر تدريبـاً من البعض الآخر ... فمن الصعب التصديق ان قرداً ، او ببغاء — من أكمل افراد نوعه — لا يساوي في ذلك اغبى طفل (او على الاقل طفلا مضطرب المخ) الا اذا كانت نفس الحيوان من طبيعة مغايرة كل المغـايرة لطبيعة نفوسنا . علينا ، اذن ، ان لا نخلط بين الكلام والحركات الطبيعية ، التي تدل الى انفعالات ، يمكن للآلات ان تقلدها ، كما تقلدها الحيوانات . وينبغي ايضاً ان لا نعتقد ، مع بعض الاقدمين ، ان الحيوانات تتكلم ، ولكننـا لا نفهم نحن لغتها . لو صحّ ذلك ، لاستطاعت — ما دام لها كثير من الاعضاء المشابهة لاعضائنا — ان تفهمنا ما يختلج في صدرهـا ، كما تتفاهم هي مع ابناء جنسها [1]

* * *

واضح ، من هذا الكلام ، ان اللغة اكثر من تصويت . اكثر من قرع شفاه. لو صحّ ذلك ، لتساوت عناصرها بين الانسان والحيوان . اذ ان ارقى الحيوانات ، في سلم نوعه (كالقرد ، والببغاء) لا يستطيع هنـا ان يماشي اغبى الاطفال . او ابلد البلهاء . يكمن سر هذا في انطولوجية الانسان ، الذي يعي ماذا يقول ، اما الحيوان فلا يعي . قد يكون للحيوان وعي خاص به ... وعي حيواني اكبر او اصغر من وعي الانسان ... ولكنه ، على كل حال ، لا يشبه مطلقاً وعي الانسان . اذن جبلة نفسه مغايرة ، في الطبيعة ، لجبلة النفس

١) راجع القسم الخامس من كتابه « Discours de la Méthode »

البشرية . من هنا كون لغتنا تدل الى معان وجدانية ، وكون تصويته لا يدل الى معنى ... نقصد الى معنى انساني ، اي معنى بالنسبة الى الانسان ، الذي اعطي له وجده ان يمعّن، من بين الكائنات. لا تحدث لغة إلا ويكون ثمة معنى= اللغة ، اذن، هي دائماً لغة انسان يكشف بها عما في نفسه من اهداف وجدانية . لو لم يكن الانسان لما وجدت اللغة .

على ضوء هذا ، نقول بأن اللغة كلام مفيد ... كلام يدل الى معنى . هي تتركب من ألفاظ اسندت احداها الى الاخرى ، ليصدر عن هذا الاسناد معنى: اما الالفاظ التي لا تعني شيئاً ، في جملة غير مفيدة ، فلا اعتبار لها . هي ليست لغة . الحروف المركبة لا تكون لغة ، إلا اذا دلت الى فحوى وجداني ، فكانت وجداناً . الاحرف ليست لذواتها ... انها لما تدل عليه . مفاد هـــذا ان اللغة تحدث من تركيب المقاطع الصوتية ، وفقاً لما يقصده الوجدان . ان الحروف ، التي لا تستقيم لها دلالة ، لا تعد لغة . لذا نرى العرب يفرقون بين اللغة واللغو . اللغة كلام يقصد معنى مفيداً . واما اللغو فكلم عن غير رؤية وتفكير. من هنا تسمية اللغو بالكلام المهمل، وتسمية اللغة بالكلام غيرالمهمل. قال الحسين بن عليّ : « ان الناس عبيد الأموات ، والدين لغو على ألسنتهم ، يحوطونه ما درّت به معايشهم . فإذا محصوا بالابتلاء قلّ الديانون » . اللغة ، إذن ، ليست في بدء من الشفتين . ولكنها من وراء الشفتين للتعبير عن مقاصد المتكلم . الالفاظ لا تفيد الا اذا نتج عنها تأليف ، والتأليف ائتلاف في سبيل الكشف عن غاية .

* * *

لنضرب مثلا على ذلك : زيد في قام البيت . هذا لغو لا لغة ، لانه لا يدل الى معنى مفيد . اما المثل ، قام زيد في البيت ، فهو لغة لا لغو ، لانه يدل الى معنى مفيد . لنضرب مثلا آخر : ان كلمة عبد الملك هي مفردة ، إن جعلت

علماً على شخص . وهي مركبة ، ان قصد بها النسبة الى الملك بالعبودية :
فالحروف والكلمات (اي الاصوات التي تقرعها الشفتان) اذا كانت غير دالة
الى معنى مفيد ، لا تكفي وحدها لبنـاء اللغة . متى اشتركت الحروف ،
والكلمات ، في الدلالة الى ... اعتبرت لغة ، والا سقطت في عداد المهملات :
بعبارة اوضح ، ليست اللغة مجرد تأليف بين الحروف ، والكلمات ، ولكنها
نظم على المعاني ، يصيب موضعاً في النفس ، فتدخل اذ ذاك في اصول النحو ،
وتتصل باحد ابوابه . الدلالة الى ... واجب وجود للغة ، واستواء تأليفها
لا يكون الا في تساوق نظمها . فحواه ، ان مزية اللغة لا تكون في قرع
الشفتين ، بل في الدلالة التي يتسلل بها الكلام الى القلب .

نقول بعد هذا ، ان الغاية من اللغة اصابة معنى ، وتوخي مقصد . وهذا
يقتضي وجود اثنين ، على اقل تعديل ، وجود من يخاطِب ومن يخاطَب ...
من يرسل المعنى ، ومن يتلقاه . هذا هو المجتمع . الواقع ان اللغة لا تحدث
الا في حيز مجتمعي ... لا تحصل الا اذا كان ثمة متكلِم يعبر ، ومخاطَب
يعبر له .

لنفترض ان أحد اللبنانيين وُجد ، في اليونان ، وهو يجهـل لسان تلك
البلاد . هل يعتبر هذا اللسان لغة ، في نظره ؟ الجواب كلا ! ذلك لأن
التفاهم لم يقم بينه وبين اليونانيين ... لم تسر المعاني في الاتجاهين معاً ... لم
يحصل الاحتكاك من الداخل . يظل هذا اللسان لغة ، فقط في نظر اليونانيين ،
الذين يتبادلونه على انه معان . هو عندهم اكثر من اصوات تتعالى ، وتنخفض .
اما عند اللبناني ، الجاهل هذا اللسان : فلا فرق لديه بين اصوات اليونانيين
وقبقبة السيف على الترس . واذا اكد اللبناني ان اللسان اليوناني ، لا بد له من
ان يدل الى معان ... وبذلك يكون لغة ... فلانه يستدل على هذا بالمقابلة
الانسانية بينه وبين اليونانيين . ان هؤلاء بشر مثله ، على صعيد الآدمية . لذا
لا بدّ للسان اليوناني من ان يدل الى معان ، كما يدل اللسان العربي ايضاً :

هذا استنتاج ذهني . اما الواقع فهو ان اللبناني باق خارج المجال اليوناني ، ما دام يجهل اللسان اليوناني . الاصوات التي يسمعها ، لا تتحول الى لغة ، الا يوم يدرك معانيها . يومذاك تصير لغة .

اللغة ، اذن ، هي اكثر من مجموعة اصوات . اكثر من قرع شفاه . لا تكون الا حيث يكون انسان ... اي حيث تكون حياة نفسية مجتمعية . واذا سئل ايجوز ان يعتبر ، ذا لغة ، الانسانُ المنعزل عن باقي الناس ؟ اجبنا ان الانسان لا يكون وحده ، في حال من الاحوال . الانسان دائماً مع غيره ، او مع نفسه . هو مجتمع نقال باستمرار . وسنأتي باشباع على هذه الناحية . المهم ، الآن ، هو القول بان اللغة لا تعرّف بتحريك الشفاه . فقد يكون ثمة قرع ، دون ان تحدث لغة. وقد لا يكون ثمة قرع، وتحدث لغة . اللغة نشاط وجداني عانٍ . ومن هنا تحديد ارسطو لصوت الانسان ... اي اللغة ... « انه حسٌ يحمل فيه دلالة الى معنى [1] »

لنقل ، بعد هذا كله ، بأن اللغة مرادفـــة للدلالة الى معنى ... بأنها معنى . وهكذا يتسع مفهوم اللغة الى ابعد من قرع الشفاه . يتسع حتى الاشارات ، والموسيقى ، والنحت ، والتصوير . وهو حـــق . لكننا نعتبر الكلمة (او المصطلح اللفظي) كأعلى مراقي التذهين ، في وجدان الانسان . قـــد لا يحتاج المرء الى الموسيقى ، او التصوير ، او النحت . ولكن ما من احد بقدر على ان يستغني عن اللغة . اللغة للانسان كالخبز للجسم . هي ألصق الامور بمجموعه . ولهـــذا كانت افصح من غيرها عن نفسية الانسان كله : كانت اصدق الصور له ، واضبط المقاييس . لا شيء كاللغة يلازم الانسان من المهد الى اللحد . ولذا قيل : ما الانسان بلا لسان ، الا صورة ممثلة، وبهيمة مهملة. على ضوء هذا المفهوم، إذن، نعالج معضلة اللغة .. اي باعتبارها فعلاً لسانياً.

* * *

---

١) De L'âme ص ١٢١ ، ترجمة Tricot ،مكتبة Vrin. باريس ١٩٤٧

٢

الوجدان هو ايضاً دلالة الى معنى ... بل هو معنى.والوجدان المقصود ، ههنا،كل ما يعيه الانسان من مشاهدات باطنية ، كالفكر، والعقل، والارادة ، والشعور ، والاحساس ... الخ.هو مجموع الانسان الواعي . وكلمة وجدان مشتقة ، في العربية ، من الجذر «وَجَدَ» الذي معناه علم ، لان الشيء الموجود هو شيء معلوم ، نستطيع تحديد زمانه ومكانه . هو شيء قد ظفر به بصرنا ، وبصيرتنا ، فما عاد مجهولا . لهذا حدد الوجدان بوعي باطني ، لكل ما يمر في الداخل من حالات ، وافعال . هو تصعيد اللاوعي من المجهول الى المعلوم .

هذا الوجدان لا يحصل الا في اطار مجتمعي ، اي انه مجتمع في حد ذاته . هو حوار بين ذات فاعلة وذات مفعولة.هو تداول بين اثنين . الوجدان يقتضي واجداً وموجوداً.هذا الموجود قد يقع في العالم الخارجي (مثلا وجدت قلماً) . وقد يقع في العالم الداخلي (مثلا وجدت ، او وعيت حالة فيّ ، او فكرةً ، او ارادةً — او وعيت وعيي ، وهو أرقى درجات الوجدان) . المهم هو القول بأن الوجدان مزدوج الكيان ، ثنائي ، يحتوي دائماً على ذات تدل الى موضوع.على آخر يشاركه في وجوده. هذا هو المجتمع .

العقل ، مثلا، يتألف من عاقل يدل الى معقول. الادراك يتألف من مدرِك يدل الى مدرَك.الحب يتألف من محب يدل الى محبوب . الحكم يتألف من حاكم يدل الى محكوم . الارادة تتألف من الذي يريد ومن الذي يراد . الوجدان عينه ، في أرقى درجات وعيه لذاته، يتألف من الوجدان الواعي ومن الوجدان الموعى.

لهذا كانت جميع افعال الوجدان متعدية. الوجدان يدل دائماً الى شيء.هو اندفاع الى ... اطلالة على ... نزوع نحو ... هو استشراف امر من الامور.هومعنى. والمعنى دلالة الى شيء . الدلالة ، إذن ، واجب وجود للوجدان والا انتفت عنه وجدانيته ذاتها . فحواه ان الوجدان مجتمع بالطبع .

* * *

الوجدان ثنائي ، اي فيه ذات تدل الى موضوع ... فيـــه آخر يشاركه دائماً وجوده ، وإلا ما توجدن . ولكننا لا نشعر غالباً بوجود هذا الآخر فينا ، لأنه يتضاءل عبر الظروف العادية ، فيكبت ، حتى نكاد نعتقد انه منفي . ولا يعود هذا الآخر الينا بوضوح ، وقوة ، وسيطرة ، إلا في حالات عاصفة كالريبة ، والحيرة ، والارتباك . حينئذ يزداد الشعور بالازدواجية ... او بالثنائية ... فيزول كمون الآخر فينا ، ونستفيق من عزلتنا ، لنرى انفسنا في مخاطبة مع انفسنا . وكثيراً مـــا تشتدُّ المخاطبة ، في بعض الحالات العصبية ، لتصبح بصوت عال . فكم من مرة وجهنا الاسئلة الى ذواتنا ، وجاوبنا عنها ، كأن الحديث جار بين متكلمَين. ونستطيع ان نمثّـل على ذلك بشيطان سقراط ، الذي كان يبدو له كصوت مقبل عليه من الخارج، كلما استعصت الامور عليه، وتردد فيهـــا . هذا الصوت الوجداني هو اكثر من صورة مجازية . انه الواقع بذاته . أليس في ذلك خميرة اللغة ؟

لقد اصبح وجود الغير ... احاضراً يُرى كان ، ام حاضراً لا يُرى .. من اضخم عناوين الوجودية الحديثة . هذه الوجودية حرصت كل الحرص على ان تحدد الانسان بالكائن المجتمعي . الانسان هو الانسان ــ المجتمع . لا مفر له من ان يكون ازاء غريب عنه ، او ازاء نفسه الخاصة . هو دائماً في مواجهة مع ذات اخرى . هذه المواجهة ليست وقفة سكونية ، لا ينبس الاثنان فيها ببنت شفة . ولكنها استحرار مقاصد ، او ابراق معان ، بين ذات باعثة وذات لاقطة . الانسان حيال الانسان هو دائماً ذو فحوى بعيد او قريب . المهم انه

يعني دائماً حالة وجدانية في حضرة غير . ان الأنا الفردية تستمد بقاءها من الأنا المجتمعية . الواقع انه لا وجود للأنا الفردية . هذه الأنا صفة اخلاقية ، ادبية ، لا صفة كينونية . ان الكائن الاخير ، في الانسان ، هو تراشق مقاصد بين اقنومين . انه مجتمع بالاساس .

ان قلق المجرم القاتل هو اضطراب بين انا المجتمعية وانا الفردية . اضطراب معناه القطيعة بين تينك الانيتين . معناه القضاء على الحوار . على اللغة .

ويندفع برغسون ذاته في تحليل نفس القاتل ، الذي يشعر بتأنيب الضمير [١] : على اي شيء يقوم هذا التأنيب ؟ قد نخلط ، بادىء بدء ، بين تأنيب الضمير والخوف من العقاب . ألم يتخذ القاتل كل الاحتياطات الدقيقة ، كي يخفي جريمته ؟

لننظر في الامر نظرة اقرب . لماذا يحاول القاتل اخفاء جريمته ؟ اليتحاشى العقاب ، ام ليمحو كل اثر لفعله ، اذ الشيء الذي يجهله كل الناس هو شيء كأنه لم يكن ؟ ان محو الماضي ، او الفعل ، يُبطل الجرم ذاته . هكذا يعتقد المجرم . وها هو قد أفلح في اخفاء جريمته عن الناس ولكن هل استطاع ان يخفيها عن نفسه ؟ ما زال يعرف انه مجرم ، ومعرفته تلك تنأى به عن المجتمع. لماذا ؟ لانه يعرف تماماً ان الاحترام ، الذي يوجه اليه، يوجه بالواقع الى شخصه السابق ... شخصه البريء ، الذي لم يعد موجوداً . يعرف ان المجتمع لا يخاطبه هو ، بل يخاطب شخصاً آخر غيره . هو يعرف هذا ، ويعرف ان المجتمع لا يعرف هذا ، لذا يعيش بين الناس اكثر انعزالا ، مما لو عاش في جزيرة نائية خالية . في عزلته ، يحمل معه صورة المجتمع، التي تحف به من كل صوب ، وتسنده. اما كان روبنسون ، في جزيرته المنقطعة ، على صلة بالناس ؟

اما في حالة القاتل ، فقد انقطعت كل صلاته بالمجتمع ، وبصورة المجتمع ايضاً . انقطع الاتصال النفسي الاكثر ضرورة . انقطع الحوار . ومن هنا

---

١) راجع كتابه « مصدرا الآداب والدين » الفصل الاول.

اليأس . من هنا اندفاعه نحو الاعتراف بجريمته ، كي يعود الى حظيرة المجتمع ، ويعامل بما يستحق ان يعامل به . لا بأس من العقاب . المهم ان يرجع الى نقطة ارتكازه ، ليتجه الناس الى نفسه ، لا الى شخص آخر غيره . وهكذا يستأنف تعاونه مع الناس ، وينجو من العقاب جانب من شخصه ، هو خير ما فيه . وقد لا يعترف القاتل الى المجتمع كله ، فيكتفي بالاعتراف الى صديق له ، او الى اي رجل فاضل. وبذلك يعيد اتصاله بالمجتمع ، ولو عند نقطة واحدة ، وبواسطة خيط واحد . ان المجتمع ابداً حاضر امامه ، يرنو اليه ، مهما تعامى هو عنه .

الحق ان الانسان عاجز عن قطع صلاته بالمجتمع ، سيما النفسية منها . معنى هذا ان الانسان بحاجة الى ان يتبادل مفاهيم الوجود مع غيره ، ليتبادل تلك المفاهيم عينها مع نفسه . القطيعة مع الغير قطيعة مع الذات .. انعدام للذات. هنا ، في هذا الميل الفطري الى الحياة المجتمعية ، يجب ان نركز منشأ اللغة. ان الانسان الذي يحرّم التكلم ، بطريقة من الطرق ، يحرم في الوقت نفسه النمو العقلي ، والنفسي ، والأدبي . يقضى على انسانيته ، فينحدر الى العدم. ما الانسان بدون لسان ، الا صورة ممثلة ، وبهيمة مهملة. نحن نعلم كيف ثارت ثائرة بيتهوفن ، عندما اصابه الطرش ، وانقطع بذلك عن الطبيعة، والمجتمع . لقد انتفض كالحية في الظهيرة ، وراح يصارع القدر ، كي يستأنف التعاون مع الخارج. هذا ، ولم يتعطل فيه الحوار الباطني ، الذي امده بالتعزية . فكيف بالطرش ، اذا لمس الباطن الباطن ؟

الانسان مغمور بوجود الغير ، كيفما اتجه ، حتى في ازوائه الصامت . لامفر له من ان يكون حيال غير ، إما في الداخل او في الخارج . من هنا تنطلق اللغة. من هذه الاقبية في اللطيفة البشرية . يعني ان الانسان قد رُكب تركيباً ، عينياً، يقوم على اساس اللغة . لقد وضع اصلاً كمخلوقٍ لاغٍ . مهما غورنا في أعماقه، وفي أعماق أعماقه ، فإننا عاجزون عن ادراكه متلصقاً بذاته . هذا الالتصاق

التام بذاته غير كائن . بينه وبين نفسه آخر ، قد يكون هو عينه ، وقد يكون من الخارج . انهاثنان دائماً وابداً . اثنان حيان، يتخاطبان،ويتراسلان المعاني. هناك العاني ، وهناك المعني ، وهناك المعنى الذي يربط بينهما . أليس هذا كياناً لغوياً ؟ .

نحن لا نجد في الحيوان هذا الشق الهوائي، الذي يفلق الانسان الى واحدتجاه ثان. لا نجد هذا الفسخ .. هذا الثقب .. في المادة المتلبدة بعضها على بعض. الحيوان لا يلتفت الى ذاته . المادة لا تنطوي على نفسها . الحيوان ينمو دفعة،وبرمته. بملئه . المادة تظل قطعة واحدة . اذا انتقلت فان كلها ينتقل . اما الانسان ، فقد ضرِبَ بشفرة ساحرة ، جعلته رائياً ومرئياً . الرائي غير صامت . والمرئي غير صامت . كلاهما يسأل ويجيب . بينهما ممر فارغ . مسحب هوائي . وثمة عبارات تفيد الثنائية في الانسان . مثل : انعكف على ذاته .انطوى على ذاته. دار على ذاته . سمع ذاته . رأى ذاته . حمل ذاته،ومشى . بينه وبين ذاته .هذه الذاتيات موضوعة حيال الانسان . هي ليست المرء كله . وإنما واحد من شقيه المتحاورين . كأني به يحمل مرآة ، في قرارة نفسه ، تحيله دائماً على آخر . لا تدعه قطعة واحدة . لو حصل للانسان هذا الالتصاق الشبيع بذاته ، أي لو لم يعد بإمكانه ان ينطوي على ذاته، لما استطاع ان يخاطب ذاته. وبذلك يتحيون. يزيل حقيقته . لا يعود إنساناً . قيمته انه يخاطِب ويخاطَب. انه مجتمع في حد ذاته . انه عالم من الناس . هذه النرسيسية تلاحقه منذ ان وجد . وستذهب معه الى الحفرة الباردة :

* * *

المعنى هو من خصائص المرء ، وحده ، من بين الكائنات الموجودة . اذ لا شيء يثبت ان الحيوان يعني ، على غرار ما يعنيه الانسان . او ان الجماد يعني ، على غرار ما يعنيه الانسان : قد يعني الحيوان ، او الجماد ، معنى حيوانياً

اليا – هي في الوقت نفسه الحاجز ، والاداة ، والحافز . هي تمتحن قوتنا ، وتطبع بطابعها وتهيب الى التشدد [١]

• • •

نقول بعد ذلك ان المبنى الواضح وليد معنى واضح ... وان المعنى الغامض لا يعبّر عنه الا بمبنى غامض . الرديء من الالفاظ يعكس رديئاً من المعاني : الوحشي من الالفاظ يعكس وحشياً من المعاني . الالفاظ الفظة ، الغليظة ، هي معان فظة ، غليظة . اللفظة المرة الطعم هي معنى مرّ الطعم . الالفاظ لا تقصّر عن المعاني، ولا تزيد عليها . الالفاظ المقصّرة هي معان مقصرة. الالفاظ الزائدة هي معان زائدة . الالفاظ النافرة ، القلقة ، هي معان نافرة ، قلقة .

قيل لا خير في ما اجيد لفظه : وسخف معناه . ولكن من اين تأتي الجودة للفظ الا من الاحاسيس ؟ وهل الاحاسيس المدركة الا معان بدورها؟ الجودة في اللفظ ذوق جمالي تتصف به النفس . والنفس ، متى بلغت هـذا الوعي ، كانت مصدر معان . فاذا استجادت لغة ، استجادت معنى ، لان الالفاظ لا تجري مع المعاني مجرى الكسوة ، بل هي المعاني ذاتها متمظهرة . ومن هنا الضلال ، الذي وقع فيه العسكري (وغيره ايضاً) عندما حدد البلاغة ، قائلا :

ومن الدليل على ان مدار البلاغة على تحسين اللفظ ان الخطب الرائعة ، والاشعار الرائقة ، ما عملت لافهام المعاني فقط ، لان الرديء من الالفاظ يقوم مقام جيدها في الافهام . وانما يدل حسن الكلام ، واحكام صنعته ، ورونق ألفاظه ، وجودة مطالعه ، وحسن مقاطعه ، وبديع مبادئه ، وغريب مبانيه ، على فضل قائله وفهم منشأه . واكثر هذه الاوصاف ترجع الى الالفاظ دون المعاني. وتوخي صواب المعنى احسن من توخي هذه الامور في الالفاظ. فلهذا تانق الكاتب في الرسالة ، والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة . ومم يبالغون في تجويدها [٢]

• • •

١) راجع كتابنا « هنري برغسون » الجزء الثاني، ص ٢٠٤.
٢) نقلا عن كتاب «علم الادب» الجزء الاول . ص ١٩٠ . جمع الاب شيخو.

المعاني لا تحصر، فقط ، في دائرة المنطق . المعاني اكثر من صائبة او غير صائبة . هي تشمل الجمال ايضاً . هناك معان جميلة ، ومعان غير جميلة . هذه المعاني تعود ، في النهاية ، الى مادة الكلمات ... وجرس الحروف ... وتآلف الصور . جمالية هذه المعاني قضية ذوقية ، مزاجية . لكننا تعودنا التضييق على المعنى ، وحشره في اطار صوابية المنطق . وقد نسينا ان المنطق لا يشكل الا جزءاً بسيطاً من نشاط الوجدان عامة . لهذا نخطىء جداً عندما نعادل بين المنطق والمعنى .

ان كل صورة وجدانية ، واضحة ، هي معنى . ذلك لأن كل مدلول يشار اليه ، بصراحة ، هو معنى . ومن الصور الوجدانية ما يتجاوز المنطق . هناك صور وجدانية تنبثق من رهافة الذوق – التي يقوم عليها الفن – كالشعر ، والموسيقى، والنحت، والتصوير. هذه الذوقيات معان ، ايضاً ، لأنها احاسيس مقصودة . وكل مقصود هو معنى . فاذا كان اللفظ جميلا ، فلأنه يشير الى صورة وجدانية ، تستأنس منها المشاعر .

* * *

يسوقنا هذا الى انكار وجود المترادفات لمعنى واحد. ان المترادفات تدل على معان مختلفة في المسمى الواحد . هي تستعمل كأنها لمعنى واحد، ولكنها بالحقيقة نعوت متباينـــة ، والنعوت معان . الا ان الانسان لا ينتبه كثيراً الى الفروق الدقيقة ، بين المترادفات ، لان الذي يهمه من الامور هو المعنى العريض . لنعط بعض الامثلة على ذلك. نظن ، من بعيد ، ان « العجلة » و « السرعة » كلمتان مترادفتان . في حين ان الخلاف ، بينهما ، واضح للغـــاية . العجلة لا تستعمل إلا لحركات الجسم ، التي تتعاقب . وهي تأتي غالباً في موضع الذمّ : تقول للرجل : عجلت عليّ ، فيفهم منه انه ذم . اما السرعة فهي تستعمل للحركات غير الجسمية . وتأتي غالباً في موضع المدح . تقول هو سريع الاخذ

بالعلم ، وقد اسرع في الجواب ، وفرس فلان اسرع من الريح . ويقال : في القضاء سريع ، وفي الطرف سريع ، والفلك سريع الحركة ، واسرع من البرق . وهكذا قل عن الكثير من الالفاظ ، التي نعتبرها نحن مترادفات ، وهي ليست كذلك . اذا اخذنا امثال الازواج التالية من المرادفات : سرّ وفرح ، بعُد ونزح ، هزل ومزح ، جلس وقعد ، قربة وقرابة ، رأينا ان هذه الاشياء تتفاوت معانيها تفاوتاً مبيناً .

* * *

لا نعتقد ان كثرة المترادفات هي صفة ممدوحة في اللغة . ذلك لانها دليل ميوعة ، وسبب تشويش . المترادفات (إن وجدت) برهان جليّ على ان التفكير غير صارم في وضوحه . الوضوح لا يقبل كلمتين ، لأن اللغة انعكاس للحياة ، والحياة لا تبذخ . كل شيء منها يأتي في مركزه المحتوم . ولهذا تباهى كوندياك (Condillac) بلغته القومية قائلا : « قد تكون الفرنسية هي الوحيدة ، بين اللغات ، التي لا تعرف المترادفات اطلاقاً »

الواقع ان التفكير ، كلما دقّ في تمثيله وتصويره ، احكم اختيار الالفاظ . وقد يجوز القول بان معظم التناحر بين الناس ، في وجهات نظرهم ، يعود الى كونهم لا يوضحون مفاهيم الكلمات ، التي يستعملونها . لو اهتم الناس بتحديد الالفاظ ، قبل كل جدل ، لما قام خلاف على امور هامة . ان التباين وليد سوء تفاهم ناتج عن اضطراب في الالفاظ . اضطراب هو ذاته امتداد لاضطراب في التفكير . ليس تحديد الكلمات عملا بسيطاً . انه نفسه ، الذي تدور عليه الفلسفة .

اجل الفلسفة بحث في مفاهيم لفظية . كلما ابتعد الذهن عن الخاص ، وارتفع في عوالم التجريد ، انقلب لفظة . إذ ماذا يمكن ان يكون ذلك المطلق العام ، الذي معناه شبح الى ما بعد المرئي ؟ الجواهر العامة لا تخضع للحواس . هي

مجردات : ولهذا تتمرد على ملكتي التخيل والتصوّر. نحن لا نتصوّر الامتداد، ولا نتخيله . لا نتصور الحرية ، ولا نتخيلها . التصور والتخيل قوتان ، في النفس ، تتمثلان الافكار الخاصة ضمن اطارات حسية . ولكن ثمة جواهر لا تنحصر في إطارات معينة . جواهر لا لون لها ، ولا مادة ، ولا شكل . تلك هي المثل التي تحدث عنها افلاطون، والتي يدركها الانسان بحدس باطني. وقد تنبه ديكارت الى وجود هذه الجواهر ، العاصية ، على قانون حواسنا . لهذا ميز بين التخيل والتصور من جهة ، وفعل التعقلن من جهة اخرى .

التخيل ملكة في النفس تتجه نحو الاشياء المادية . التعقلن ملكة في النفس تتجه نحو الافكار المجردة . فحين نتخيل مثلثاً ما ، لا يقتصر الامر هنا على انه نعقل هذا الشكل ، كحجم محاط بثلاثة اضلاع ، فحسب . ولكننا نضيف الى هذا التعقلن نشاطاً نفسياً آخر ، هو التخيل الذي يرينا الاضلاع الثلاثة ، كأنها ماثلة امام اعيننا . ان التخيل معاينة ، اي ان النفس تلتفت به الى الجسم ، والمادة ، لتعاين فيها شيئاً يتفق مع الفكرة ، التي تكوّنها في ذاتها . اما حين نفكر بشكل ذي الف ضلع ، فاننا نعقل ذاك الشكل الهندسي بالسهولة عينها ، التي نعقّل بها المثلث المحاط بالاضلاع الثلاثة ، إلا اننا عاجزون عن تخيّل (او تصوّر) ذاك الشكل الالفي ، كما نتخيل المثلث . اي اننا لا نستطيع ان نتخيل الالف ضلع ماثلة امام اعيننا . وهـذا يعني اننا لا ندرك الخياليات الا في اشكال مكانية ، معينة . واننا ندرك العقلانيات مجردة عن كل شكل مكاني.

هذه العقلانيات ، ماذا يمكن ان تكون ، اذن ، ما دمنا لا نستطيع ان نعطيها شكلا من الاشكال ؟ هذه العقلانيات هي الفاظ . الواقع ان الجواهر لا يرسمها خيال ، ولا يحصرها تصوير . يستحيل عليها المقابلة . من منا رأى اللانهاية ؟ او سمعها ، او لمسها ؟ او تمكن من ان يخلع عليها اطاراً من الارض ؟ ولكننا نلفظها . وهكذا قل عن الجواهر كلها ، التي تتفلت من قبضة الحواس ، لتقع في شرك اللغة . لولا الكلمات ، ما كانت الجواهر، في مجالنا الانساني. الجواهر،

في الحيز الآدمي ، ليست اكثر من تلك الكلمات التي تعبّر عنها . وهل تحدّد الحقيقة إلا بكلمة الحقيقة ؟ لا شيء وراء كلمة الحقيقة . لو كان ثمة وجود خلفي ، بالنسبة الى كياننا البشري ، لاستطعنا ان نتصوره . ان نتخيله . قد يكون المطلق ، في حد ذاته ، وقد لا يكون . المهم ، من جهة الانسان ، ان هذا المطلق لا يظهر لنا في ميدان الحواس. لا نسمعه . لا نراه . لا نلمسه: لا نستطيع ان نعطيه مادة شبيعة . ولكنه يظهر في الكلمة . الحفافي العالية ... تلك التي هي اطراف اطراف ما يقوى العقل ان نشطح اليه ... هذه الحفافي هي كلمات . ونحن نقصد بالكلمة اعلى مراقي التذهين . هي التي تسلطن الموه على الجواهر ، فتنتضح . الكلمة تختزل الجوهر كله ، وتعطيه رمةً . هي كالقذيفة تطوي ، في قمقمها ، عوالم افكار . تفجر ، دفعةً ، ذلك الجوهر المخبوء فيها ... بل الذي هو هي . وبهذا تُشعِر الانسان انه خالق . الجواهر لا تنجلي ، في اذهاننا ، عن طريق التصوّر . جلاؤها عندنا ينضغط ، جملة، في بضعة احرف كهارب . حينئذ تستقيم ، من جهة الانسان ، لتصبح ذات قيمة . معنى هذا ان الكلمة هي التي تضمن للانسان وجود الحقائق الكبرى . أنها من سوس كيانه ... وحشاشة لطيفته . أنها الدليل لمشاركة الانسان الله ، في عمل الخاق ، عندما يلفظ الانسان كليات . ان العقل يملك الجواهر ، بالتسمية لا غير، ويتسلطن باللغة على اقفال الغيب . يقول غوستاف لوبون ما فحواه:

ان الالفاظ والصيغ ، اذا ما استخدمت بحذق ، اتفق لها من السلطان الخفي ، ما عزاه اليها المؤمنون بالسحر فيما مضى . والحق انها تثير في روح الجماعات اشدّ العواصف هولا ، كما انها توجب سكوتها . ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية سلطان الالفاظ ، والصيغ ، لامكن ان يقام منها هرم اعلى من هرم خوفو القديم .

وسلطان الالفاظ مرتبط في الصور ، التي يثيرها ، وهو مستقل عن معناها الحقيقي . وقد يحدث احياناً ان يكون للالفاظ ، ذات التعريف الرديء ،

اكبر تأثير . من ذلك الكلمات : الديمقراطية ، والاشتراكية ، والمساواة ، والحرية ، وما اليها من الالفاظ التي بلغ معناها من الغموض ما لا يكفي لتعيينه مجلدات ضخمة . ومع ذلك تجد لمقاطع هذه الكلمات القصيرة قدرة سحرية ، كما لو كانت تلك المقاطع تنطوي على حلّ جميع المعضلات .
وبتلك الكلمات يلخص مختلف الرغبات اللاشعورية ، وامل تحقيقها .
ولا يستطيع العقل ، ولا البراهين ، مقاومة بعض الالفاظ وبعض الصيغ .
والالفاظ والصيغ ينطق بها امام الجماعات نطق احترام ، فتعنو لها الوجوه ، وتنحني امامها الرؤوس ، ويعدّها كثير من الناس كقوى الطبيعة ، وكأقدار خارقة للعادة . اجل ، انها تثير في النفوس صوراً عظيمة مبهمة . غير ان الابهام ، الذي يخالطها ، يزيد في قوتها الخفية . وهي تشبه بالالهة المرهوبة ، المستترة خلف قبة العهد ، التي لا يدنو العابد منها الا مرتجفاً [١] .
ان وصف لوبون دقيق للغاية . وهو يحاكي ما نذهب اليه . غموض تلك الالفاظ ليس غموضاً . هو ناتج عن انهـا فوق طبقة الصورة والخيال ... عن انهـا تتخطى حدود المرئيات ، لتندفع في مجال غيبي صرف ... في مجال لانهائي بحت ، لا اطار له ، ولا شكل ، ولا مظهر . لهذا بانت غامضة في نظر الحس . ولكن لا شيء في الانسان يقدر على الاحاطة بها سوى ملكة اللغة . من هنا انضغاطها في بضعة احرف مكهربة . بعض الشيء من جهة الحس ، وكل الشيء من جهة اللغة . هذا هو غموضها . الا انه وضوح على نمط مغاير . نحن في المطلق الطلق ، الذي لا يدركه خيال ، ولا صورة . من اجل هذا ، لا تكفي المجلدات الضخمة ؛ في سبيل تعيين تلك الكلمات . لا يجرؤ الحسّ على مهاجمتها . عندما تنطلق من فم الانسان ، ترتج اركان الخليقة . تقوم القيامة في الافئدة . هي الحقيقة عينها ، تتحرك من داخل الطبيعة

---

١) « روح الجماعات » ترجمة عادل زعيتر، ص ٩٦ .

البشرية . اجل ، كلمة واحدة تهدم الحياة ، وكلمة واحدة تعيد بناءها .
هذه الكلمة هي التي كانت في البدء .

* * *

اذا كانت اللغة عالية الرتبة ، الى هذا المقدار .. بحيث لا يعود من فارق بينها وبين الوجدان ، ولا يصبح ممكناً بالتالي للانسان ان يدرك عالم القيم ، بدون سبيلها ... اذا كانت اللغة هي هكذا ، هل يجوز لنا ان نهوّن خطرها ،فنعتبرها واسطة لا غاية ؟ الفكر لا ينمو بمعزل عنهـا . كيف تستطيع ، اذن ، ان لا تكون غاية ؟ أليس في القول بأنها واسطة خطأ مبين ؟
ميزة الواسطة ان تكون عرضية ، ولفترة من الزمن ، وان يستغنى عنها بعد ان تقضي حاجة الانسان. وهي دائماً خارج الغاية . بين هذه وتلك اختلافعينيء اي ان للغاية (بالنسبة الى الواسطة) فوقية قيمٍ ، واسبقية زمنٍ. لنضرب مثلاً على ذلك . القصبة واسطة في يد الانسان ، كي يقطف العنقود العـالي . بين القصبة والانسان فارق نوعيّ . ولذا اضيفت القصبة اضافة برّانية الى يـد الانسان . وهي تقوم بوظيفة معينة ، في زمان معين ، ومكان معين ، نحو غاية معينة . لهذا نستطيع القول : الى هنا تنتهي يد الانسان ، ومن هنا تبتدىء القصبة . ومتى كمل فعل القطف ، او غيره ، القيت القصبة جانباً .
هذه النظرة صائبة في حقول العالم الخارجي ، لانها تشيّء كل ما تقع عليه . ولكنها تلغى حيال الوجدانيات . هنا ، في القرارات الجوانية ، نعجز عن ترميد نار الحياة ، لنقول : الى هنا تنتهي الواسطة ، ومن هنا تبتدىء الغاية . نحن ، في مثل القصبة والانسان ، امام حاجة نفسية . هذه الحاجة وحدة لا تتجزأ ، ولا يمكن تجزءتها . هنا ، لم تعد القصبة واسطة . لم تعد في الخارج ، ومن الخارج . لم تعد ذلك الشيء المادي الذي طوله كذا ، وعرضه كذا ، وقطره كذا ، ونوعه كذا . لقد اصبحت القصبة جزءاً عينياً من الحاجة ، التي

ابتدأت في الداخل قوة ، وانتهت في الخارج فعلا . لو لم تكن القصبة ، ما استطاعت اليد ان تدرك العنقود . ولولا العنقود ، ما استطاعت الحاجة ان تتحقق ... لبقيت قوة ، فقط ، اي حركة سلبية الى الوراء . اجل ، لولا التحقيق ، ما تحرر الانسان من احتباس قواه ... من كبتها في الباطن ، لدفعها عبر العالم البراني افعالاً منظورة ، مسموعة ، ملموسة . هذا ، والقصبة هي حقاً من نوع مناف لنوع الانسان . فكيف بالواسطة اذا كانت من نوع الغاية ؟ هل تظل واسطة ؟

* * *

لا نستطيع القول ، بصدد اللغة ، انها اضافة برانية الى المعنى . الكلمات لا تأتي من الخارج . لا تأتي من الحجارة ، ولا من الاشجار ، ولا من الجبال ، ولا من اي كائن آخر غير الانسان . اللغة قائمة بقيام الانسان . لولا الانسان ما كانت اللغة . لهذا لا يجوز لنا ان نعتبرها من نوع مغاير لنوع الانسان . فاذا سهل علينا ، في مثل القصبة ، ان نقول اعتباطاً : الى هنا ينتهي الانسان، ومن هنا تبتدىء القصبة ، صعب علينا كثيراً هذا القول في مثل اللغة . اللغة ليست من طينة تختلف ، عيناً ، عـــن طينة الانسان . قد نتصور الانسان بلا فن ، ولا علم ، ولا مدنية ، ولكننا لا نستطيع ان نتصوره بدون لغة . ولا نقصد باللغة ، هنا ، الانشاء المجلو . وانما تلك الحاجة النفسية الملحة الى التعبير . الافكار لغة محقونة ، اللغة افكار تتنفس . وبين الاحتقان والتنفس ، في الباطن ، لا نستطيع ان نخط فاصلا واضحاً . لا نستطيع القول : الى هنا ينتهي الاحتقان ، ومن هنا يبدأ التنفس . ذلك لان التنفس هو الاحتقان ذاته، وقد ارتفع السد ، فجرت صهاريج الحياة . لهذا كله ، لا يجوز لنا ان نعتبر احدى هاتين الظاهرتين واسطة، والثانية غاية. عندما تكون الواسطة من صلب

الغاية، وامتداداً واجباً لها ، يبطل اعتبارها واسطة. تعتبر غاية على طريقة اخرى،
الواسطة يمكن الاستعاضة عنها . وقد يستغنى عنها . ولكن عندما نلاحظ ان
الطالب الأبكم ، او الذي بلسانه حبسة ، او لكنة ، او حكلة ، او لجلجة ،
او لثغة ، لا يمكنه اطلاقاً ان يجاري الطلبة الاصحاء في التحصيل الذهني ...
عندما نلاحظ ان النمو الفكري يتعثر بسبب احتباس الكلمة ، والتاريخ
لا يرينا عبقرياً واحداً كان اخرس ... عندما نلاحظ ان البكم الصحيح قتل
نهائي لجميع ملكات اللطيفة البشرية ، ولهذا يرتأي اليوم علماء النفس والتربية
فصل الطلبة البكم عن الطلبة الاصحاء... اجل عندما نلاحظ كل هذا الاثر للغة
في الوجدان، هل نجيز لانفسنا القول — بعد ذلك — ان اللغة واسطة لا غاية ؟
ان النظرة البرانية السكونية ، الى امور الوجدان ، هي التي تجعلنا نقول : ان
اللغة واسطة لا غاية. ذلك لانها تجمد اللغة في حركة الشفاه . لقد شيّأنا اللغة،
ومكنّاها، فأصبح بمقدورنا ان نقول: الى هنا ينتهي الفكر ، ومن هنا تبدأ اللغة.

اختلاف المبنى والمعنى اختلاف درجة لا طبيعة . اختلاف زمن. هذا
يأتي قبل ذاك ، ولكن النوعية واحدة . ان اللغة التي لا تعني شيئاً ، ليست
بلغة . وان الفكر، الذي لا ينزع الى اللغة ، ليس بفكر. اذن اين الخط الفاصل،
بينها ، لنعتبرهما واسطة وغاية ؟ الواسطة ، هنا ، هي ذاتها غاية اولى في سبيل
غاية ثانية. ولا اجد اصح من كلمة «عبارة» لتعريف مفهوم اللغة . العبارة من
جذر عَبَرَ . والعبور يفيد الانتقال من قوة الى فعل ... من حالة اولى الى
حالة ثانية. وهو، اي العبور ، من صفة الحياة، لان الجماد لا يعبر . الحياة وحدها
نزاعة الى التحول . والحياة هي هي ، من حيث النوعية، خلال مراحل العبور.
ان الوجدان لا يعبّر عن ذاته باللغة ، بل يعبُر لغة من وجدان بالقوة الى وجدان
بالفعل . واذا لم يعبر هذا العبور ، قضي عليه .

قلنا بأن الاختلاف ، بين المعنى والمبنى، هو اختلاف درجة لا طبيعة . وقصدنا
بذلك ان المعنى يستيقظ احياناً قبل المبنى . دليلنا الى هذا ما يقوله علم نفس

الطفل . كثيراً ما يفهم الطفل معنى كلمة « بابا » منذ الشهر الثالث ، دون ان يتمكن من النطق بها إلا في الشهر السادس . لكن هذا الفهم يظل برعمياً . يظل غامضاً ، مبهماً ، لانه لم يقترن باللغة . ولذا لا يجوز لنا ان نسميه « معنى » لان كلمة معنى تفيد البلاغ ، والوضوح . هذا الطفل، كلما كثر محصوله اللغوي، دقّ فهمه ، وتحددت معاني كلماته ، وتميزت لديه الاجناس بعضها من بعض . ان اسبقية المعنى للمبنى في الزمن ، لا تعني مطلقاً فوقية في القيمة. لا علاقة هنا لفوقية القيمة بأسبقية الزمن . اذا سلمنا جدلا ان المعنى يجيء قبل المبنى ، في الزمن ، فقيمته هي ان ينقلب مبنى ليصبح معنى كاملا .

* * *

٣

يبقى رغم ذلك ، ان معظم الفلاسفة والادباء قد انهالوا باللائمة على اللغة : قالوا : في اللغة قصور ادائي ، لا يظهر حبات الوجدان. بين الرغبة في التعبير، والقدرة على التعبير ، فجوة هائلة . هنا تدور مأساة الوجود الانساني . وما من احد يجهل هذه الغصّة في النفس ، عندما تستحرُّ فوارة الوجدان ، وتتلاطم امواج العقل على شواطىء الاقصى . في هذه المطارح الفكرية البعيدة ، لا يعود بمقدور الانسان ، إلا ان يلغو من جهة ، وان تتهافت اللغة من جهة اخرى : حينئذ يشعر الانسان بالحرقة في باطنه . ويل له اذا لغا ، وويل له اذا صمت :

ان السؤال الذي يخطر بالبال، هنا ، هو ان نعرف ما اذا كان هذا القصور الادائي راجعاً الى اللغة ذاتها ، او الى قوام الوجدان ذاته . الحق ان هذا القصور، في اللغة ، هو قصور كينوني في الوجدان. الوجدان هو الذي يتهافت، في قرارة ذاته ، عندما يتلمس اعماقه بانعكاف محاسب. في هذه الاعماق يتكسر بعضه فوق بعض ، وينهار على اقدام اللامدرَك . ما أعطي للوجدان ان يدرك

صماصيم وجدانه . لقد وُسِم بالعجز حيال المطلق . وما المأساة التي تدور، بين الوجدان واللغة ،الا المأساة عينهاالتي تدوربين الوجدان ووجدانه، حيال الله .. حيال الحقيقة. امام سرمدية الله ،تحترق اجنحة الفهم،وتسد طرق الادراك،ويطرق كل طامح. امام هيبة جبروته المحتجب ، يعود البصر كليلا ، دون ان يجد سبيلا الى كنه الحقيقة الربانية . اصعب ما على الانسان ان يعرف الاله المطلق .

هل يعود بمقدور اللغة ، اذ ذاك ، ان تعبّر عن هذا القصور الكينوني (في الوجدان عينه) الا بقصور في الالفاظ ؟ ما ذنبها ، عندما تقصّر في التعبير ، اذا كان الوجدان ذاته غير قادر على ان يدرك نفناف اجوائه العالية ؟ ان اللغة لا تنحصر في ان تعبر تماماً عن الوجدان ، بقدر ما تنحصر في ان تعبر عن قصور الوجدان امام اللامدرَك ، الذي يراوده .

لا سبيل الى ادراك اللامدرَك . الشيء الراهن ، حقاً ، والذي يحز في قلب كل كائن بشري واع ، هو تهافتنا في ادراك اللامدرَك . هذا التهافت الكينوني ، بالاساس ، تعبر اللغة عنه تعبيراً صحيحاً : هذا التهافت هو شعور انساني حق؛ وقد اثبتنا ، في مـــا سبق ، ان الوجدان واللغة شيء واحد . اذن لا يعود التقصير الادائي الى اللغة ، فقط ، بل الى اللطيفة البشرية رمةً . الانسان عيناً عاجز امام اللامدرَك . فهل من عجب ان يأتي قصور اللغة تعبيراً تاماً عن قصور الوجدان ذاته ؟ انا عندما اصرخ ، في آلامي ، قائلا : « انني عاجز عن التعبير » اكون قد عبرت بكل امانة عن عجزي الكينوني عن ادراك الالم .

* * *

من أهم خصائص الفاسفة الحديثة ، المساة بالوجودية ، التشديد على سلبية الوجدان . لقد اعترفت هذه الفلسفة بوجود فارق اساسي بين عالم الطبيعة وعالم الوجدان . اعترفت ان هذا غير ذاك . وبذلك ماشت الفلسفات الثنائية الكلاسية ، القائلة بازدواجية العالمين . ولكن الذي يميز الوجودية الحديثة ،

من الفلسفات القديمة ، اصرارها على سلبية الوجدان . الوجدان ، في نظرها ، عدم فاشل .

تقول هذه الفلسفة ما يلي : اذا كانت خاصة المادةان تكون ، فخاصةالوجدان ان لا يكون . ان الطاولة ملء متراص . هي هنا ، أو هناك ، أو هنا لك ، دون ان تبدي حراكاً . هي لا تتغير ، متى اخذت شكلا من الاشكال . انها عرمة ذرات متكدسة، بعضها فوق بعض. لا تتخالط . مصمتة لا جوف لها . لا فراغ بينها وبين ذاتها . حبيباتها متجاورة كتفاً الى كتف ، بدون ان تترك فرجاً هوائية فيها . هي غليظة . وبعبارة اخرى ، ان الطاولة مساوية لذاتها ، ملتصقة بذاتها . هي ما هي ، لا أكثر ولا أقل . لا تتمطى من الداخل . لا تتجاوز . كينونتها انها كائنة .

اما الوجدان فخاصته ان لا يكون . هو هنا ، ليصبح هناك ، في سبيل هنالك، دون ان يستقر على حال من قلقه الدائم : هو في تغير مستمر . هذا التغير يجعله على مسافة من ذاته.. على مرمى حجر من ذاته... على قاب قوس من ذاته..، ازاء ذاته ... حيالها ... وجهاً الى وجه امامها . يعني ان فرجاً هوائية تفصل الوجدان عن وجدانه . هذه الفرج الهوائية ليست شيئاً . انها العدم ، الذي لا يدرك . لا يمسك . لا ينظر . لا يسمع . لا يحدد . ولا يسكب في تعريف . في الوجدان مسام ، وتجاويف ، ومنافذ . هو ألطف من المادة . هو فضفاض. هو كالسراب انفلاتاً . وهكذا قضي، على الوجدان، بحكم الاعدام. بسبب تلك الفرج لن يتمكن من الوصول الى حدوده . لن يدرك شاطئه الامين . سيظل يمخر عباب ذاته . سيبقى بينه وبين ذاته طول رمح . وبعبارة اخرى ، لن يساوي ذاته . لن يلتصق بذاته . هو ما ليس هو، لانه لن يكون ما هو عيناً. يتمطى من داخله في تجاوز دائم . كينونته انه غير كائن . لهذا يعلن الوجوديون ان مهمة الوجدان هي الفشل دوماً . لا يكاد يصل الى حدود ذاته ، حتى يرى تلك الحدود قد تراجعت . وهكذا دواليك ، دون ان ينتهي ذلك التراجع ،

الى ما لا وراء بعده . ان الوجدان سلب دائم .

رب معترض يقول : اذا كان بين الوجدان الحامل والوجدان المحمول منسف هوائي ، هو العدم السالب، فان الوجدان الحامل كيان إيجابي : هو ملء ثابت. نقول ان هذا الوجدان الحامل ينفسخ بدوره الى حامل ومحمول، وبينهما منسف هوائي ، عندما ينعكف على ذاته ليدرك ذاته. ففي كل مرة، يلتفت الوجدان الى وجدانه ، ينعطب زجاجه . عليه اذن ان لا يبحث عن ذاتـــه ، ليكون تلك الذات . غير انه مدفوع اصلا الى البحث عنها : وهكذا يقع الصراع بين ان يكون ما هو ، وان لا يكون ما هو . لقد سلبت منه ايجابيته ، ولم يبق له الا ايجابية ذلك السلب . ان سوس العدم ينخر صلبه . هذه هي مأساة الوجدان: ان يكون في اللاكائن .

هل يعود ممكناً للغة ، بعد ذلك ، ان تعبر عن مطلق الوجدان ؟ ما دام هذا المطلق كائن في اللاكائن ، هـــل تعود مهمة اللغة سوى التعبير عن ذلك اللاكائن؟ ان فشل الكلمة من فشل الوجدان عينه. كبوتها من كبوته. تقصيرها من تقصيره . وهذا ما يدل الى انهما شيء واحد . كل من يهوّن خطرها ، يهوّن في الوقت نفسه خطر الوجدان . ان الانسان الذي يحاسب ذاته عن كل كلمة تخرج من فمه ، يكون قد حاسب ذاته عن سير فكره عامة .

الانسان لا يتكلم بفمه . لا يتكلم برأسه . لا يتكلم بلسانه . اللغة ليست فقط هذه الاعضاء . ان كل ما في الانسان يتكلم . كيانه رمةً يسهم في الكلام ، لان التكلم عملية كلية . وكيان الانسان يقوم على ان لا يكون له كيان . العجز اذن ابعد من حدود الشفاه. انه في الحشاشة الفؤادية .هو مزمن زمن اللطيفة البشرية. قديم قدمها . لِمَ ، والحالة هذه ، نلوم اللغة ؟ الا تعبر سلبيتها ، تعبيراً ايجابياً، عن سلبية الوجدان ؟ وهل يستطيع ان يكون، ذلك التعبير الايجابي ، الا بياناً سلبياً ، هو ذاته الفشل الذي يتميز به الوجدان ؟

عندما نقول بأن اللغة تعبر عن كلية الوجدان ، لا نقصد بذلك انها تملكه على

انه كيان جامد . الوجدان علاقة :.. مجال ... رابطة بينه وبين ذاته . امـا طرفاه ، الحامل والمحمول ، فلا قدرة لنا على التمكن منهما . انهما العـدم . يبقى تلك العلاقة الكائنة بين الوجدان وذاته . هذه العلاقة ، قد تكون عدماً ايضاً ، الا انها حجر الرحى في كياننا الانساني . هذه العلاقة هي التي تعبرعنها اللغة . أكثر من ذلك ، انها لغة .. انها اللغة . هذه العلاقة .. لنقل بالاحرى هذا الشق ، او هذا الفسخ .:. يزيد اتساعاً كلما اقترب الفكر من نفسه. يعني ان واجب وجود اللغة يقوى بازدياد الشق .

الغريب ، في الامر ، ان الذين ينهالون باللائمـة على اللغة – اعني الشعراء ، والفلاسفة ، والصوفيين – هم اكثر الناس مطاردة للغة . فلو كان القصور في التعبير ناتجاً عن اللغة، لجاء الصمت خير حل لهذا الصراع المؤلم بين قوةالوجدان وفعل اللغة . ولكن ما من احد يسلم بان الصمت يحل المعضلة ، بل العكس هو الواقع . ان شعور الانسان بالحاجة الى التعبير ، يزيد كلما غوّر الفكر في اعاميقه الغامضة . لذا لم نعثر على شاعر واحد ، ولا فيلسوف واحد ، ولا صوفي واحد ، استطاع (رغم قصور اللغة) ان يتنازل عن قلمه . وهذا دليل قاطع الى أن اللغة وقف على الانسان ، من باطن الانسان ، والوقف لا يكون اختيارياً . قصور اللغة في التعبير امتداد لقصور الفكر في الادراك . ومن هنا مأساة العقل الكينونية : التي تبدأ في المهد،وتنتهي في اللحد . عندما يقول الانسان ، وهو على فراش الموت « الآن عرفت انني لا اعرف شيئاً » يكون قد عرف المطلق الذي يخامره . وعندما يقول ، وهو في حضرة هذا المطلق ، « لا استطيع ان اعبر عن اللامدرَك » يكون قد عبر عن قصوره الكينوني في الوجدان . وهو الامر الذي يعظم الانسان .

* * *

اللغة في صميم الوجدان ، ومن صميمه ، والى صميمه . نقول ايضاً لا صميم

للوجدان بدون لغة . ان اللغة ليست صفة من صفات الوجدان ، بل هي الوجدان عينه . اذا توقف الوجدان عن ان يكون لغة (او في سبيل لغة) توقف عن ان يكون دلالة . واذا توقف عن ان يكون دلالة ، توقف عن ان يكون وجداناً . ان التزام الدلالة في الوجدان دلالة الى التزامه اللغة دائماً . اذا انعدم انتقاله الى اللغة ، انتقل العدم اليه .

المقصود من هذا الكلام ، أن اللغة متحدة اتحاداً عينياً بالوجدان . لذا كانت اللغة الى الايجاز او الاطناب ، الى اللين او الشدة ، الى الارتفاع او بعد المدى ، بمقدار ما تستلزمه الدلالات في الوجدان . وكانت الدلالات الوجدانية تتتابع ، لغةً ، بمناسبة طبيعية في الشدة او الرخاوة ، في الهمس او الهجر ، مما يجعل الوجدان غير قادر على ان يتصرف بالحروف ، والكلمات ، كما يشاء هو ، بل كما يفرضه الوجه الذي في الحروف ، والكلمات. وهذا الوجه في الحروف ، والكلمات ، لم يأت محتماً ، الا لانه يحمل فيه بلاغة الوجدان ذاتها . فدلالة الوجدان طبيعية في دلالة اللغة ، واللغة يكون فيها من دلالة ، على مقدار ما يكون فيها من روح الوجدان . وعلى مقدار ما يكون في الوجدان من دلالة ، ينجذب ضرورةً الى ان يصبح لغة .

اللغة ، اذن ، غاية لا واسطة . لولاها ما بان الانسان من باقي الحيوان ، الا بتخطيط جسمه . ولولاها ما وجد الى المعرفة باباً واسعاً . لا نرى عاقلا يشك في انها من مهمات علم الانسان ... في انها الاسبق الى منازل الشرف ، ومواقع التعظيم . لا علم الا وهو دليل عليها ، ولا خير الا وهو السبيل اليها . نقول ما كان شيء في الوجود انور فانوساً من اللغة ، التي نفثت الحياة في العــدم ، فاخصب ... وضربت السحر في الجماد ، فتحرّك . لولا اللغة لبقيت اللطيفة الانسانية كامنة ، محجوبة . لاستولى الخفاء على قاصيها ، ودانيها . لعجزت النفس عن ان تنتهي الى خابية الحق المعتقة .

جليٌّ أن اللغة التي نعني ليست قرع الشفاه . ولا هي وسيلة طينية في سبيل غاية

وجدانية . فرع الشفاه احد المظاهر فيها . اللغة التي نعني تبدأ في الوجدان ، وتمر على اللسان ، وتنتهي في الخط . مصبها اذن أبعد من الشفاه . اذا أردنا ان نأخذها من معدنها الصافي، كان علينا ان نستقيها من الوجدان ذاته ، اذ هي وجدان :..ان نمتشقها من طباع النفس عينها ، اذ هي نفس ،لانها مركوزة في سوس الآدمية . لاحقت الانسان منذ ان كان ، وهي تلاحقه الى ان يذوب ، في الحفرة الباردة .

• • •

لعل كلمة مصطلح — المشتقة من فعل اصطلح — هي التي ساعدت على تحريف واقع اللغة الحياتي . لقد جعلتنا نعتقد ان المصطلحات مجرد رموز الى مسمياتها ... وكنايات عنها ... واشارات اليها . فهي اذن وليدة الاختيار البارد ، الذي لا يبرره داع حياتي صارم . الشيء المصطلح عليه ، هو الذي انفق بعض الناس على ان يكون هكذا ، فكان . وقد يتفقون على ان لا يكون هكذا ، فلا يكون : مثل الاصطلاح كمثل كلمة السرّ بين الجنود ، في ساحة الوغى . اذا تفشت كلمة السرّ اصطلح على غيرها ، دون ان يتزعزع الموقف .

هذا الفهم الجامد للغة البشرية تحريف لحياتيتها ... تبريد لحرارتها . هي لا تكون عن طريق الاختيار ، الذي لا يبرره شيء . ولا عن طريق الحجج اللغوية . اللغة توقيف ،والتوقيف غاية اصيلة . اللغة تستمد توقيفيتها من الحياة ذاتها ، اي من العمل ذاته . ومنطق الحياة العاملة يعلو ولا يعلى عليه ، لانه نقطة التقاء السماء والارض .

على ضوء هذا المبدأ ، لا يعود بامكاننا ان نعتبر اللغة واسطة ، بل غاية . ان وجودها معاصر لوجود الانسان ، اذ الكلمة في البدء كانت ، فتصبح الانسان عينه ، والانسانُ غاية انسانه . على هذا الضوء ، لا يعود بامكاننا — ايضاً —

ان نتواطأ ، باسلوب لغوي صرف ، على وضع المصطلحات ، بل نترك الانسان يعيشها بالفعل ، وهو ينطقها بالقول . حينئذ تأتي المفردات ـ بصيغتها اللفظية ـ امتداداً للحياة ، فتكون عبارات مستقيمة .الضرورة ، أو الحاجة ، هي التي تدفع بالخاطرة الى ان تتكلمن بذوق سليم . المصطلحات تؤخذ من العمل ذاته . اذا لم يكن لها داع يدعو اليها ، من صميم الحياة ، خرجت هذياناً تمجه النفس . منطقها منطقُ الاعماق في النفس ، لا منطقُ ما تتفق عليه ـ لغةً ـ المجامع اللغوية . ومن هنا كانت المصطلحات لغزاً من الغاز الوجود الانساني ، لا قاعدة من قواعد الصرف والنحو .

* * *

المصطلحات يضعها من يزاول معانيها ، والا بقيت في حكم الموات ، لأن الداعي اليها مفقود . المصطلحات في بدء من الافعال التي تعبر عنها . فمتى وجد الفيلسوف ، وجدت معه المصطلحات الفلسفية . ومتى وجد العالم ، وجدت معه المصطلحات العلمية . ومتى وجد الاقتصادي ، وجدت معه المصطلحات الاقتصادية . الفعل اولا ، ثم القول به ثانياً ، او اذا شئت ـ وهو الاصح في اعتقادنا ـ الفعل والقول متعاصران . وهذا يعني ان وضع المصطلحات عمل تشترك فيه الامة كلها ، وقد حصرناها ـ حتى الان ـ في المجامع اللغوية ، التي يقف عملها عند حد التفتيش بين صفحات الكتب ، او الرجوع الى القديم .

ولكن القضية اوسع بكثير من التفتيش في الكتب ، والتسجيل ، والاطلاع الكافي على اللغات الحية . القضية قضية استعمال ، قبل كل شيء ، وفوق كل شيء . والاستعمال هو المعيار الذي تفرض به الحياة عنفوانها الصارم . ان للاستعمال سلطاناً قاهراً . ذلك لان الاستعمال دليل على ان اللفظة قد انبثقت دفعةً من عنفوان الحياة ، والحياة هي المؤتمنة على الذوق السليم .

* * *

٤

لا بد لنا من ان نبحث الآن في الصمت ، الذي اعتبره الكثيرون عكس اللغة، بمفهومها التقليدي الجامد. قيل اذا كان الكلام من فضة، فالسكوت من ذهب. وذكر ابن خلكان ان رجلا كان يجالس الشعبي ، ويطيل الصمت . فقال له الشعبي ، يوماً ، الا تتكلم ؟ فقال : اصمت فاسمع ، واسمع فاعلم . ان حظ المرء في اذنه له، وفي لسانه لغيره . وقال عليّ : سرك اسيرك ، فإذا تكلمت به صرت اسيره . وقال عمر بن عبد العزيز : القلوب اوعية ، والشفاه اقفالها ، والألسن مفاتيحها . فليحفظ كل انسان مفتاح سره وقال عمر بن العاص : اذا افشيت سري الى صديقي ، فاذاعه ، كان اللوم عليّ لا عليه. قيل له : وكيف ذلك. قال : لاني انا كنت اولى بصيانته منه .

جلي ان هذه الاقوال تغرّب وتشرّق بين الكلام والسكوت . مثل الاختلاف بينهما كمثل الاختلاف بين الليل والنهار .

قد يكون لهذا الاختلاف قيمة اخلاقية ، تعلمنا كيف يجب علينا ان نكبح بشدة اندفاعاتنا الكلامية ، التي كثيراً ما تأتي زائفة . ولكن هذه القيمة تبطل، وتلغى عندما نشرف على الصمت من الوجهة النفسية . لقد ولجه المفكرون دائماً من باب الحكمة الاخلاقية ، اي الفائدة العملية ، التي يجنيهـا منه الانسان ، في المواقف الحرجة . لذا جاءت اكثر الآراء ، في الصمت ، سطحية هشّة . ولكن ، مهما بان اطاره ضيقاً ، فهو الآن محور التيارات الفكرية الحديثة . ذلك لأن التنقيب فيه تنقيب في طبيعة الانسان ذاته . استجراؤنا عليه ، بدقة ممعنة ، دليل الى اننا نضع الاصبع على حقيقة اللطيفة البشرية .

* * *

الشعراء يحنون اليه . والفلاسفة يرغبون فيه . والمتصوفون يستنجدون به ملهما .
جميعهم يقدرونه حقاً ، ويولونه الصدارة . قيل فيه بأنه اللاشيء الكائن . بأنه
الفراغ الذي يملأ الامكنة غير المأهولة . بأن العين لا تراه ، والاذن لا تسمعه .
ولكن الحاكم والجاهل يعرفانه على حد سواء . ان القدر الذي اوجده ، يفرض
هو ذاته ان لا يكون للصمت وجود . اذن ، على اي شيء يقوم هذا اللاشيء
الكائن ؟ هذا الذي لا يستطيع ان يكون،الا على اساس ان لا يكون ؟ ما هو
هذا الوجود العدمي ؟

لنميز ، باديء بدء ، بين الصمت والسكوت . فقد ظن بعضهم ان هاتين
الكلمتين مترادفتان . والحقيقة ان الفرق بينهما كبير ...وكبير للغاية .
السكوت صفة للجماد والحيوان . نقول : وكان السكوت يخيم على الوادي. اما
الصمت فدلالة الىمعنى في النفس . نقول : الصمت زين للفتى . ومن هنا كان
الصمت صفة للانسان ، يتنوع بتنوع مدلولاته الوجدانية . لا يقال صمتت الريح
وصمتت الحركة . يقال سكتت الريح ، وسكتت الحركة.ولا يقال صمتة قلبية ،
بل سكتة قلبية ، لان السكتة داء تتعطل به اعضاء الجسد عن الحس ، والشعور،
فيميت الانسان . ولهذا كانت السكتة علامة جمود . وادباء العرب لم يستعملوا
كلمة الصمت ، غالبــاً ، الا للحالات النفسية . كانوا يقولون : الندم على
الصمت خير من الندم على القول . ومن قول المعتز : من أخافه الكلام اجاره
الصمت . من قوله ايضاً : الخطأ بالصمت يختم ، والخطل بمثله لا يكتم . وقال
بعض العلماء : اول العلم الصمت ، والثاني حسن الاستماع ، والثالث الحفظ ،
والرابع العمل به . وقال لقمان لولده : اذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر
انت بحسن صمتك . وقال علي بن أبي طالب :

ما زلّ ذو صمت وما من مكثر إلا يزلُّ وما يعاب صموت
ان كان ينطق ناطق من فضله فالصمت درٌّ زانه ياقوت

* * *

هذه الامثلة تؤيد ما ذهبنا اليه من ان السكوت مادي ، لا يأتي من ورائه غير سكوت ثان . اما الصمت فمعنى من معاني النفس ، تساق اليك دلالاته افواجاً من وراء الشفتين الجامدتين . ولكن بعض الكتاب لم يفرّقوا ، بين الصمت والسكوت ، عندما تكلموا عن الانسان . لقد استعملوا هاتين الكلمتين كانهما شيئان لمفهوم واحد . من هنا قول بعض الحكماء : الزم السكوت فان فيه السلامة . وقول الشبراوي :

الصمت زين والسكوت سلامة فاذا نطقت فلا تكن مكثارا

ما ان ندمت على سكوتي مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا

مهما يكن من امر ، فان الصمت ابلغ من السكوت . هذا يكشف ظاهراً ، وذاك يوحي باطناً . لذا كان الصمت درجات ادناها السكوت . معنى هذا ان الصمت ، اذا لم يدل على فحوى في النفس ، يصبح سكوتاً . وان السكوت ، اذا تنفس (اي اذا اشار الى حالة نفسية) يصبح صمتاً . لهذا سنجول اولا حول السكوت في الطبيعة ، وثانياً حول الصمت في النفس .

* * *

هل في الطبيعة سكوت ، بمعنى العدم الخام ؟ عندما نقول، بان السكوت يخيم على الطبيعة ، ماذا نقصد بذلك ؟ لننظر قليلا في هذه الطبيعة الساكتة . ولنتساءل اولا ما هي الطبيعة ؟ مما تتركب ؟ وما الغاية من وجودها ؟

* * *

اجاب ديكارت عن السؤال الاول ، ما هي الطبيعة ، بقوله انها امتداد . وقد اعطى دليلا على ذلك ، في حادثة الشمعة ، التي ذهبت مضرب مثل . في رأي ديكارت ان للطبيعة ذووّية مستقلة عن ذووّية الانسان . نقول ان هذا واقع الطبيعة لا حقيقتها . ذلك لأن حقيقة الشيء لا تقوم على ان يكون هذا

الشيء موجوداً – في حد ذاته – ولكن على ان يعرفه الانسان ايضاً . ان ذووية الطبيعة لا تكفي ، وحدها ، لاقامة تعريف حقيقي لها . الانسان هو الذي يعرّف ، ويصبغ كل شيء يعرّفه بتلاوين لطيفته . وهكذا يستحيل عليه ان يدرك حقيقة الشيء (كما هو في مادته الاولى) لأن الحقيقة تعريف ، والتعريف صبغة آدمية . بين الانسان والطبيعة ، اذن ، ستار حريري من نسج ايدينا . لا نريد بذلك ان ننكر ذووية الطبيعة . قد تكون هذه الذووية وقد لا تكون . المهم عندنا ان الحقيقة لا تقوم ، فقط، على ان الشيء قائم – في حد ذاته – ولكن على انه داخل في مجالات الانسان ، الذي يتولى وحده تحديد الحقيقة .

هنا نلتقي الفلسفة الكانتية ، التي ما فتئت تهيمن على ذهنية الانسان العشريني : في راي كانت ، من الصعب علينا ان نصل الى سريرة العالم الخارجي – كما هي اصلا – لأن وجدانياتنا تنتصب كالغشاء بيننا وبين الطبيعة . وهكذا تتحور المادة ، فـلا نعود نستشرفها الا وفق تلاويننا . وقد شدد كانت ، كثيراً ، على تلك العلاقة التي تربط الوجدان بالطبيعة ... علاقة رحمية لا يمكن قطعها، بتةً ، ما لم نقض على جوهو الانسان والطبيعة معاً . هذه العلاقة هي من داخل النفس ، لا من خارجها . ولذا جاز لنا ان نعتبر المادة جزءاً من اللطيفة البشرية .

وقد جاءت الفلسفة المظهرية الحديثة (الفينومينولوجيا) تثبت هذا الرأي . قالت ان الانسان يتمتع بصفة الهدفية ، التي هي اندفاع الوجدان نحو شيء خارجاً عنه . الوجدان حركة باطنية تهدف الى ... تندفع نحو ... والطبيعة هي احد الاهداف التي يتجه اليها . بدونها لا يتوجدن الوجدان . اذن هي مساعدة للفكر ، لا خصم له ، كما يظن القسم الاكبر منا . ولهذا كانت صلتنا بها اكثر من احتكاك خارجي . اكثر من مماسة برانية .

* * *

ومن هنا كون الانسان عاجزاً عن ان يبهت امام المادة . نعني عن ان يقف مكتوف اليدين، عندما يجد ذاته حيال اشياء من الطبيعة . عليه ان يُعمل فكره فيها ، بحكم طبيعة ذوويّته... أن يوجد وصلة بينه وبين الاشياء ... أن يَعبُر اليها. بهذا العبور تخرج الطبيعة عن بكمها التام، لتصير ايماءات ذات فحوى... لتشفّ ، وتحاطَ بمنديل آدمي ... لتستيقظ من سنة الغفلة . عندما يلمس الوجدان الطبيعة الظاهرة ، تحترق الاشياء ، وتتبخّر . يتلفت الوجود المادي ، وينغمس في ضياء الانسان . عندئذ يتّضح ، ويتقيّم . تلك هي عمليةُ تحويل ذوويّة الطبيعة ، وصبُّ المعاني في تجاويفها .

* * *

نتيجة هذا التحويل تبين في الاسم . الاسم هو ملتقى الانسان بالطبيعة . هو الطبيعة مؤنسةً ، والانسان مطبعناً . اجل نحن لا نستطيع ان نعبُر الى الشيء ، في العالم الخارجي ، إلا بواسطة المصطلح .

لا معرفة لنـــا به إلا عن طريق التحديد ، وارقى درجات التحديد هي في المصطلح الفرد . يظل الانسان جاهلا الشيء ، حتى يطلق عليه اسماً . حينئذ يتضح في ذهنه . ولهذا كان من الصعب جداً ان يُتصور ، او يُتخيل ، شيء لا اسم له اطلاقاً . المخيلة معرفة ، ولا معرفة بدون تسمية . المخيلة لا تخترع اختراعاً صرفاً . قد تخترع معدوماً غريباً لا اسم له ، في مجمله ، ولكنه يكون مركباً من امور محسوسة مدركة . فبقولنا من امور محسوسة ، مدركة ، خرج هذا المعدوم عن غرابته . واصبح ، في اجزائه ، من الاشياء المعلومة التي لها اسماء . ومن هنا صعوبة (بل استحالة) الرجوع الى الطفولة ، التي يحتك فيها الانسان للمرة الاولى باشياء العالم الخارجي ، دون ان يتمثلها عن طريق الاسماء . الديمومة لا ترتكس . الحياة لا تعود القهقرى . ولما كان الانسان قد وُضع ، اصلا ، ليعرف على اساس الحس والعقل ... وكانت المعرفة غير

حاصلة ، اذا لم تحصل التسمية ... فقد وجب الاسم ليعبر الانسان به الى أشياء الطبيعة . اذ ذاك تخرج هذه الاشياء من سديمها المادي الى اشراق الوجدان العارف .

عندما ينشىء الانسان اسماء للمواجيد ... عندما يحشر ، في المصطلح ، كثرة الطبيعة التي لولا الفكر ما قامت لها قائمة ... عندما يحوش التعداد ، ليرصه في قليل من الاحرف ، هي الاسم (او المصطلح) ... عندما يفعل الانسان هذا ، يكون قد تحكم بالكائنات، من جهة عقله . يكون قد خلقها ثانية ، في بدء منه . هذا الانضغاط ، او الرص لابعاد الشيء ، يُدخله في المجال الانساني الناطق . ان الشيء لا يتوجدن ، فيصبح ذا قيمة ، الا عندما تتجه اليه نية الانسان ... عندما يشار اليه بمصطلح واحد . لهذا نخطيء في اعتقادنا ان المصطلح اتفاق بارد، بين الناس، على ان يكون هكذا او لا يكون. المصطلح، جوهراً ، تصالح بين الانسان المسمّي والشيء المسمّى.تصالح يحسن الشيء به، فيصلح من جهة الفكر .

* * *

قد يتوجد الشيء ، في عين عينــه ، خارج الانسان . ولكنه وجود باهت ، خافت ، لا يبالي . انه الوجود البرّاني الخام . هو العدم الساكت بالنسبة الى الفكر . لا يتقيّم إلا بالانسان الذي يلقح هذا العدم بالتسمية ، فيورق جدبه ، ناتئاً من الغموض الى الوضوح ... من السديم المغبّش الى الفلك المغسول ... من سكتة اللاشيء الى الوجود المتكلم . حينئذ يصبح ذا دلالة . ذا جوهر يعيه الفكر . حينئذ يتأنسن . لقد ربط بالعقل فتعقلن . الاسم (او المصطلح) هو الذي يوجد الشيء ، في ذهن الانسان ، فينقلب حقيقة . إذ لا يكفي ان يكون الشيء موجوداً ، من جهة ذاته ، ليصير حقيقة. حقّ الشيء استقام ، فوجب، وهذا يتطلب وجداناً يقوّم،فيوجب . لهذا تفرض الحقيقة مسّ الشيء بوجدان

يحنُّ اليه ، فيعيه . الحقيقة ذات اصباغ انسانية ، وقد لا تكون هي عينها ذات شأن، إلا بفضل هذه الاصباغ . اجل، ما قيمتها... ما شأنها... ما خطرها... اذا لم يكن ثمة انسان يسير في خطاها ؟

. . .

لا اجد تفسيراً آخر لما جاء في سفر التكوين . قيل : وقال الرب الاله لا يحسن ان يكون الانسان وحده ، فاضع له عوناً بازائه . وجبل الرب من الارض جميع حيوانات البرية ، وطير السماء ، واتى بها آدم ليرى ماذا يسمّيها . فكل ما سماه به آدم من نفس حية ، فهو اسمه. فدعا آدم جميع البهائم ، وطير السماء، وجميع وحش الصحراء بأسماء .

نلاحظ ان الرب الاله لم يرد ان يبقى آدم وحده . لظلّ غير آدمي لو لم يحطه الله بما نسميه « الطبيعة » . الطبيعة عون له ، بازائه ، في سبيل فهم جوهره الروحي . لولاها ما استطاع ان يكون ذلك الذي هو ، بعد ان كانت هي التي هي . الوحدة المطلقة فتاكة . ميلنا الآدمي لا يستروحها . كأنني بالرب الاله لم يرغب في ان يطوّق آدم ، بالفراغ الكينوني ، فكانت حيوانات البر،وطير السماء . كانت الطبيعة الظاهرة .

ولكن هذا لا يكفي . ان كون الخلائق موجودة ، في عين عينها ، لا يسلطن آدم عليها . لقد وقفت الطبيعة من جهة ، ووقف الانسان من جهة . كائنان جباران وجهاً لوجه ، دون مماسّة ، دون تعانق ، دون وصلة . سكوت كينوني ضخم . وقد علم الرب الاله ان التصالح يجب ان يقوم بينهما . أن الطبيعة يجب ان تلتحق بالانسان .

هذه القطيعة ، بين آدم والخليقة، لا يزيلها غير الاسم . بالاسم ينطق السكوت، فتحصل المعرفة الصارخـــة. بالاسم تكتمل الحقيقة . بالاسم تدخل الاشياء في فلك الانسان ، فتصطلح. لهذا اتى آدم جميع الحيوانات البرية،والطيور السماوية ،

ليرى ماذا يسميها . وما ذلك الا ليرمي آدم اضواءه على عتمة الطبيعة ،فتضيء.
وليحرك سكوت الجماد ، فينطق.
منذ ان اعطى آدم اسماء للخلائق ، لم يعد وحده . لم يعد في عزلة .في سكوت.
ولا الطبيعة ظلت في جمود . لقد خلق بالاسماء عوناً ازاءه . لقد ضرب على
باب ذووية الطبيعة ، فانفتحت نورانيته . لقد اقام العبّارة الانطولوجية ، التي
نقلت الاشياء من ماديتها الى انسانيته . وبذلك اكتسبت الطبيعة بعداً كينونياً ،
جعلها ذات قيمة . جعلها مساعداً ، لا خصماً ، لآدم المسمّي .

• • •

منذ ذلك الحين ، واحتكاكنا بالطبيعة من الداخل الواعي . هي تلمسنا في بدء
من وجداننا . نحن لا نبقى ، في حضرة الطبيعة ، بدون ردّات فعلية . ولهذ لا
بد لنا من ان نعطي لاشيائها اسماء ، تربطنـا بالطبيعة . لا سبيل الى درك
الشجرة في «شجريتها» المادية . ما هي الشجرة في نسختها الاولى ؟ ماذا تكون
بمعزل عن الوجدان ؟ لذا تجري الكلمات على الاشياء اتساعاً محضاً ، من قبل
الانسان ، الذي يتحكم برقاب المواجيد ، عن طريق تسميتها بمصطلحات خاصة.
لا تنفتح مغاليقها الا اذا تعقلنت،والعقلنة لا تكون بدون تسمية . ان تسمية
الشيء ، بمصطلح واحد ، خطوة اولى واجبة نحو الاستبداد به . نحو تشتيت
الغموض من حوله ، وادخاله في ذمّة العقل البشري . نحو التحكم به ، بالنسبة
الى الوجدان ، الذي هو مقياس كل موجود آخر .
لهذا كانت الاسماء كلها مجازية . هي تجتاز بالاشياء من المادية الى الآدمية . . .
من اللامعنى الى المعنى . الاسم هو المكان الذي يجاز فيه كالمزار ، او المعاج :
هو لا يعبّر عن واقع الطبيعة ، بقدر ما يعبر عن نظرة الانسان في الطبيعة : هو
من عندياتنا . مهما تواضعت الكلمات ، وابتعدت عن الخيال ، في سبيل ادراك
الواقع المادي ، فهي مجازات بالنسبة الى الطبيعة . نقول «طلعت الشمس» .

نستعمل هنا مفاهيم كلامية ، تنبثق اصلا من الانسان ، لنعبّر بها عن وضع لا انساني . لهذا يتراءى لنا ان الطبيعة تتحوّل ، في القوالب اللفظية ، من جماد الى حياة .. من كائن لا ينبض فيه شرش، الى موجود ينطق ، ويسمع ، و يرى. «طلع» فعل يدل الى حركة ذات ارادة . لقد وضعه الانسان ، في سبيل التعبير عن حالاته ، او حالات تشابه حالاته . فعندما نلحقه بالشمس ، نكون قد اعرنا هذا الجماد خصائص ما وضعت اساساً ، في هذا الفعل ، الا لتعبر عن جوهر انساني بحت. كاني بالشمس في « طلعت الشمس » ذات وعي . تتحرك كما نتحرك ، وتتجه نحو ما نتجه اليه . لقد تأنسنت الشمس بفعل اللغة البشرية، لان الكلمة هي دائماً في حكم المجاز . بها يتخطى الانسان من موضع الى موضع. وهكذا قل عن كل شيء آخر . لهذا كانت وقفة الانسان ، في الطبيعة او حيالها ، هي دوماً وقفة شاعر . كلنا شعراء ، بالاساس ، ما دمنا لا تعرف الطبيعة الا باسمائها . واسماؤها مجازات . هذه الاسماء المجازية هي التي تدرّع المواجيد البرانية هيكلا انسانياً ناطقاً . اذن لا وجود للسكوت ، اطلاقاً ، في الطبيعة الخارجية . ان السكوت الذي نقصده عادة (عندما نقول : وقد خيم السكوت على الوادي) ينحصر في ان صوت الانسان غائب عن الوادي . ولكن سكوت الطبيعة نسمعه نحن . فقد يكون خرير ماء ، او صفير هواء ، او قوقأة دجاج . اذ لكل جماد صوت خاص به . في هذا السكوت تتكلم اشياء الطبيعة بواسطة اسمائها .

* * *

اشياء الطبيعة كلها تغنّي . كلها تحمل فيهـــا ارغناً يرتل . ولكننا لا نحسن الاصغاء الى الطبيعة . الشاعر الشاعر وحده يدرك هذا ، في سكوت الطبيعة ، التي يطرز بالخيال ارديتها. يتراءى له ان الاشياء تخاطبه بلغة سحرية . اذ ذاك يصرخ قائلا : ايتها الاشياء الجامدة ، هل لك نفس تحن الى نفسنا ؟ في هذا

السكوت تمتلىء الطبيعة في نظر الشاعر الشاعر . تتسع، وتغوّر . تتوهج ، وتتبلور . تتحلى بنفس لا غزة ، لتحرّك فينا بعض اللانهاية . هذا هو الفن . الفن لا يعاكس الواقع ، كما نظن غالباً . الشاعر وغير الشاعر ليسا على طرفي نقيض . نحن جميعاً شعراء . ولكن الشاعرية تتفاوت ، درجة ، عند الناس . لذا جاء الفن امتداداً لفطرة الانسان الاصيلة . هو هذه الفطرة عينها ، وقد سمت في كمالها . ان الذين ينادون بضرورة ابقاء الفن محاذياً للواقع ، يجهلون ان الواقعية هي تلك المثالية المغروسة في عنق الانسان . مهما تواضع الانسان نحو التراب ، يظل الشيء اعتباراً لديه . لهـذا كانت المثالية في شرش كياننا . ان الذي نسميه واقعية من جهة الطبيعة ، يكون مثالية من جهة الانسان. تلك هي واقعية مثاليتنا .

أن نقول : حاجب الشمس ، انف الجبل ، سُلّ سيف الصبح من غمد الظلام ، انحط قنديل الثريا ، باح الصباح بسره ، شاب راس الليل ، النار فاكهة الشتاء ، القلم مزمار المعاني . . أن نقول مثل هذه الاستعارات ، وغيرها ، فانه الواقع الذي يفرضه الكيان الانساني . لا حقيقة للطبيعة خارج واقع الانسان. وكلما زاد هذا الواقع الانساني واقعيةً، اي مثاليةً ، زاد التشبيه خفاءً ، فزادت الاستعارة جمالا . هذا هو تعديل الطبيعة الحاصل بالمجازات . إذ ذاك لا تعود سكوتاً . إذ ذاك تتحرّك ، وتنطق ، وتُسمَع ، وتُرى ، وتُلمَس ، وتتعطّر . إذ ذاك تصبح اركز في اللطيفة البشرية .

تصبح شهادة تؤديها لقلب الانسان ، كما قال الحكيم : « اشهد ان السموات والارض آيات دالات ، وشواهد قائمات ، كل يؤدي عنك الحجة ، ويشهد لك بالربوبية » . وقال الرقاشي : « سل الارض من شق انهارك ، وغرس اشجارك، وجنى ثمارك . فان لم تجبك حواراً ، اجابتك اعتباراً ». اجل ، ان الموعظة قائمة في جميع الاشياء . دلائل الصفة فيها واضحة . ما على الانسان إلا ان يتعظ ، ويعتبر . ان كل شيء ساكت هو ناطق من جهة الدلالة .

اذن . ليست الاستعارة شيئاً وهمياً . هي واقع ايجابي لا يقدره غير الشعراء . ان حساسيتهم الرهيفة تعينهم على خرق العدم ، الذي يحيط بالاشياء . قد يكونون الفئة الوحيدة التي يمكنها ان تبعد اطراف المواجيد الظاهرة. هم ينطلقون نحو عالم أشف. هذا العالم تدق كثافته ، ويلطف مأخذه، ويبعد مرامه . في هذا العالم ترى العين أبعد من مدى النظر ، وتسمع الاذن أبعد من مدى الاصغاء . فيه تترك الاشياء اطارها النهائي ، لتتحول الى رموز جمالية ذات اطار لا نهائي. هذا الحس الفني ليس انتفاء للطبيعة ، ولكنه امتداد لها في اتجاه الانسان .

* * *

٥

الصمت في النفس اعقد موضوعاً من السكوت في الطبيعة . ذلك لانه يمسّ الوجدان مباشرة . وهو من اهم المتسللات الى حقيقة النفس . يكشف لنا البحث فيه ان لا صمت في الوجدان ، الذي هو حوار بينه وبين ذاته . والحوار دلالة الى معنى ، بل هو معنى . والذي يثبته كون الصمت على انواع . هناك صمت الحب . وصمت الخوف . وصمت الحيرة . وصمت الاسف . وصمت الفرح . وصمت الاغراء . لكل حالة صمت خاص بها . هذه الحالات الوجدانية تتخذ الصمت دلالة لها . ان صمت الخوف هو خوف صامت . وصمت الحب هو حب صامت . وصمت الحيرة هو حيرة صامتة : وصمت الاغراء هو اغراء صامت.هكذا نرى ان الصمت صفة بيانية، لا فرق بينه وبين الحالة التي يعبر عنها . ان الخوف الصامت هو خوف قد عبر عن

ذاته بطريقة صامتة . لهذا يختلف صمت عن صمت باختلاف الدلالة التي تنبعث منه .

* * *

من الحقائق ، التي اصبح شاهدها منها ، ان الوجدان اثنان دائماً : فاعل وموضوع . هناك ذات عانية ، وهناك ذات معنية . الوجدان فعل متعد . هذا الفعل يتطلب فاعلا يَحمِل ، وموضوعاً يُحمَل . ولنفرض اننا استهدفنا الذات الفاعلة الحاملة ، فهي تنقسم ثانية الى ذات حاملة هي فاعلة ، والى ذات محمولة هي موضوع . وهكذا نجد انفسنا ، دائماً وابداً ، حيال وجدانين يتفاعلان حياتياً . مهما غوّرنا في اعالينا ، او حلّقنا في اغوارنا ، كي نصل الى وحدة لا تنقسم فاعلا وموضوعاً ... مهما عملنا في سبيل التقاط هذه الذات الفاعلة ، دون ان نتراجع الى الوراء ... مهما حصرنا طاقة الانتباه ، فاننا دوماً امام ازدواجية مغروسة في صميم الوجدان . لا وجدان الا وهو نتيجة هات وخذ .

هذه الازدواجية ، المشكوكة في قاعنا ، هي ذاتها الاساس الذي تقوم عليه لغة الشفاه . ذلك لانها تفاعل دينامي ، لا جمود سكوني . هذه الازدواجية ليست وجهاً الى وجه ساكت . هي فعل من الوجدان الفاعل ، وهي ردة فعل من الوجدان الموضوع . الوجدان الفاعل ، لا يقف مكتوف اليدين ، امام الوجدان الموضوع . هذا الوجه الى وجه تراشق محموم ، كلما زاد التوغل في الاعماق . وهل هذا التفاعل غير ابراق معان ، من الوجدانين معاً ، بعضهما لبعض ؟ هذا التفاعل معناه ان الوجدان يشتمل على مخاطِب يتكلم ، ومخاطَب يسمع ... على من يدلي ، ومن يتلقى ... على من يسرد ، ومن يصغي . مهما انفرد الانسان ، في وجدانه ، فهو دائماً محدِث ومحدَّث عنه . لولا هذه البذرة الانطولوجية ، المشكوكة عيناً في قلب كياننا الانساني ،

ما استطعنا قرع شفاهنا بكلمات ذات معنى .

• • •

اذن ليس الصمت توقفاً عن الكلام . قد يبدأ عندما يتوقف الكلام ، ولكنه لا يبدأ حتماً لأن الكلام قد توقف . الصمت ظاهرة وجـدانية ، لا تعني فقدان الكلام . هو اكثر من حالة يستطيع الانسان ان يضع ذاته فيها ، حين يروق له ذلك . هو حقيقة بيانية . يوقظ الى الحياة كالكلمة ، ويفيد الانسان كالكلمة ، ولكن على غرار آخر . الكلمة عينها تفقد لهبها ، عندما تقطع كل علاقة مع الصمت ، اي مع فعل التأمل ، الذي يتميز به الانسان من باقي الموجودات .

كثيراً ما يأتي الصمت ابلغ في الافصاح ، وافصح في الابلاغ ، من لغة الاصوات والحروف . والبيان ، على حد قول الجاحظ ، اسم جامع لكل امر كشف لك عن معنى . فيكون الصمت ، والحالة هذه (كما تكون اللغة عينها) وجهاً من اوجه البيان ، مثل اللفظ والاشارة . انه يُبلغ الى الآخر حاجةَ الصامت . الصمت ، وان لم يسند الى الصامت كلاماً بقرع الشفتين ، ينوب مناب الكلام في معرض الحاجة . والحقيقة انه يستحسن في مواقف عدة ، ويفضل على اللفظ ، فتنبعث اليك الدلالات من خلفه بقوة هي البلاغة ذاتها . فانظر الى العين ، ترَ كم تنطق احياناً بما في الضمير اكثر مما يعبر عنه اللفظ ؛ لهذا قال زهير :

فان تكُ في صديق او عدو ... تخبرك العيونُ عن الضمير

وقال محمود الوارق :

واذا تلاحظت العيون تفاوضت ... وتحدثت عما تجن قلوبها

ينطقن والافواه صامتة فما ... يخفى عليك بريئها ومريبها

وقال احمد شوقي :

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت عيني في لغة الهوى عيناك

• • •

تجدر الاشارة ، هنا ، الى ان الصمت على نوعين . صمت فارغ ، وصمت طافح . الاول عدم ، لا معنى له . وهو دون اللغة ، ما دام لا يشير الى مقصد . انه صمت ساه ، مجدب ، يعادل الصفر . لا شيء ينبثق منه ، ولا يحجب خلفه غير صمت آخر . قيل انه الموت . الثاني طافح ، خصب ، لانه يعني مقاصد ايجابية . هو صمت فاعل ، ناطق ، موح . هذا الصمت يضعنا ، وجهاً الى وجه ، امام القضايا الكبرى في الوجود البشري . يثير فينا القشعريرة ، ويوقظ آفاقاً مديدة امام بؤبؤ الوجدان . فيه ، وبه ، تنهمر على راسنا اخطر الافكار ، وانضج العواطف . واليه نعود في الملمات الجسيمة، من حياتنا ، لانه اصدق تعبير عن مشاعرنا العميقة .

صمت العارف غير صمت الجاهل . هو غير الصمت الذي يبعد الانسان عن مراقي العلم، واضواء النور الكاشف . هو غير الصمت الذي يطمس على القلب التائق الى الكلمة العلوية . هو غير الصمت الذي يشوه الكلام ، ويلغيه . ان يكون الانسان وحده ، فهذا لا يعني انه منفرد . لا يستطيع المرء ان ينفرد إطلاقاً ، مدة طويلة من الزمن . اذ يجد نفسه ، توا ، منفلقاً الى اثنين : ذلك الذي هو ، وذلك الذي يرغب في ان يكونه . في العزلة ، ينطوي الانسان على ذاته ... يعود الى ذاته ... ينفرد بذاته ... يحتكم الى ذاته ... يؤوب الى رشده . وهي كلها معان تفيد ان الوحدة قبر الحي . ان الالتصاق التام بين الفكر وعين عينه ، بحيث لا يبقى ممرّ بين الاثنين ، هو من ربع المستحيل. ولذا كان الصمت الباطني حواراً باطنياً ، قلّ من ادرك معناه . قيل : كل صمت ليس فيه فكر فسهو ، وكل نظر ليس فيه اعتبار فلهو .

• • •

الحقيقة ان الصمت لا يطل الكلمة ... لا يعزل المحادثة ، ولكنه يتوجها ... اذا صمت الفم ، فلكي تصغي النفس الى القلب ، يتحدث . في هذا الصمت الطافح ترهف الاذن الباطنية . تلامسها اصداء الداخل . يتعرى الخارج من حولها . تدغدغها نمنمات جوانية . الفكر ليس اناء فارغاً في هذا الصمت ، هو يحمل بين اغشيته الف هس وهس . هناك حالات مقمطة ، هي في ارتسام بادىء . هناك عواطف سانحة ، واحاسيس عابرة ، وظلال افعال وآمـال : هذه التلويحات تحرك، في الصمت ، الف لانهاية . هذا الصمت يقلق المادة . ويبعد اطرافها . ويضخم وديانها . بـه يغيب الانسان عن العالم الارضي ، ليدخل في ذاك الذي يسحر . ذاك الذي ينقلب فيه كل شيء الى طلسم .

ان الفم الذي يطبق شفتيه ، لا يقف عن الحديث بنظراته . فمن البؤبؤ تخرج ابدع المعاني ، لان كل صمت عميق ، هو عالم افكار . هو اروع اتحاد يقوم به الانسان مع ذاته . هو المجتمع النقال الذي يتبعنا ، حيث نكون . هو المجتمع اللامنظور ، الذي نحمله – بين جوانبنا – في المجتمع المنظور . ان الذين يعجزون عن ان يعيشوا هذا الصمت ، في قرارة نفوسهم ، يعجزون عن ان يدركوا عظمة الحياة في المجتمع البراني . ابرع المحدثين هم الذين يعرفون كيف يصمتون ... هم الذين يحسنون الصمت في المواقف الضخمة .

الواقع ان النتاج الخالد لا يجبل به الا في الصمت . اجمل الشعر هو الذي يتناوله الشاعر من بعيد الصمت . فيه ترى الحسن ، والبهاء ، والضياء . فيه ترى المحاسن الغريبة، العجيبة، الانيقة. فيه ينكشف الغطاء عن المكالمة الصريحة مع الحقيقة . فيه ترى النفس بدون ان تنظر ، وتسمع بدون ان تصغي . انه رؤيا في اللامنظور . اجل حالما تهجع الشفتان ، يستقيظ الفؤاد من غفوته ، ويبدأ نهاره ، اذ النفس لا ترتاح الا في الصمت . هدوء الليل يثير الفكر ، ويبدد الادخنة ، فيصفو الوجدان . حينئذ تبرز الالفاظ المنقحة ، في سماء البلاغة . وقد اشار ابو تمام ، الى هذا المعنى ، بقوله :

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى والليل اسود رقعة الجلباب

بان كيف ان ابا تمام جعل الليل ذاك الهيكل المقدس ، الذي تشرق فيه كواكب المعاني الدقيقة ، وتعلو به رتبة الكلام . ذلك لأن النفس تتمكن في الليل من ان تطرح ما يتجافى عن مضاجع الرقة . فيه يتضح مقصدها ، ويسهل مطلبها . كم من شاعر غنى الليل ، فمجد عتمته ، وراح يستلهم ظلامه ، ويبحث في حلكه عن فانوس الحكمة . كم من فيلسوف ترك الناس ، والتجأ الى الدجى ، ليفتش عن الحقيقة . كم من عالم هجر المدينة ، وتجلبب بالليل ليعثر على ضالته . ان النفس تتجمع فيه من اطرافها ، فيصفو خاطرها ، وتستيقظ واعيتها . فيه تهدأ الاصوات المضجة ، وتسكن الحركات المقرقعة ، وتطلع مرآة التهذيب صقيلة ، فيصح الذهن ، وينشرح الصدر . حينئذ تنقشع الظلماء ويبين الضوء الكاشف . في الليل تحلو الصلاة ، وتزار القبور ، ويستملح الحب ، وتحاك المؤامرات ، وتخطط المشاريع الجبارة ، وتوضع الاهداف . فيه تزحف جحافل الوجدان ، وتتمخض الواعية باجمل العبارات ، التي بقيت على الدهر . في الليل ينضج الادب ، والشعر ، والفلسفة .

لو استطعنا ان نتصفح يوميات نوابغ العالم ، لما رأينا قريحتهم تجود بلمع الضياء الباهر الا في الصمت الرهيب . ان النفس تقترب من نفسها في الوحدة . تتلمس جنباتها بامانة اصح . تنفرد عن المجتمع لتجتمع بفردها . في هذا الاحتكاك الصامت ، تتحدث مع نفسها . اذ ذاك تترصن الكلمة . الصمت لا يلغي الحديث ، الذي نجريه مع الاخرين . هذا الحديث هو امتداد حديث مع ذواتنا . لولا هذا ما كان ذاك . ولكن الذين يعرفون كيف يصمتون ، ويقدرون صمت الفكر ، هم قلائل . هم فئة تشعر بتعزية في الصمت ، قلما يشعر بها عامة الناس . ولهذا كان الصمت فراغاً ، لمن لا يستطيع ان ينقطع عن معاشرة الناس . وكان الصمت غذاء لمن تجوع نفسه الى مكالمة نفسها ، في احضان امنا الطبيعة .

٨

لهؤلاء القلائل ينفتح عالم النفس ، وترفع اعلام الحقيقة . ان النفس التي تطلب الكلام الجميل ، تطلب العزلة الصامتة. في الصمت تأخذ حظها من الاستجمام، فتسكن غمائمها ، وترق نسائمها ، وتتغنى حمائمها . اذ ذاك تلاقي نجومها الطالعة ، وبروقها اللامعة .

• • •

عندما انظر الى سواي... وقد جلس على مقعده يطالع صحيفته اليومية بصمت وسكينة... اقول بأنه صامت . الى اي شيء استند في حكمي هذا عليه ؟ استند الى شفتيه الجامدتين . هو لا يقرعها . لا يصوت عالياً . هذا جل ما اعاينه، لديه ، لانني لا استشرف غير ظاهره . ما يبين لي منه هو جسمه المرئي . هذا الجسم جامد لا يتحرك . هو في موضعه ، لا يبدي تململا . لا ينظر يمنة ولا يسرة . لا يتحدث مع احد في الخارج . اقول انه صامت بالنسبة إلي . ولكن عندما اجلس انا ، على مقعدي ، لاطالع صحيفتي اليومية ، بصمت وسكينة ... عندما اتبنى حالته بالذات ... هل يجوز لي ان اقول عن نفسي ، اني صامت؟ هل يسري علي الحكم ذاك، انا الذي اشعر بذاتي من الباطن؟ عندما قلت عن الغير ، بأنه صامت ، كنت قد اشرفت عليه من خارج فضائي . أنا لست هو . وهو ليس أنا . بيننا عالم مادي . لذا غاب عني باطنه . ولكن اين الفضاء بيني وبين ذاتي ؟ اين المجالات المكانية ، التي اتدرج فيها لاصل الى ذاتي؟

أنا لست صامتاً في باطني . وعندما اقول عن نفسي بأنني صامت ، أكون قد الغيت هذا الباطن . قد تجاهلته ، لاطل على ذاتي من شرفات برانية . أكون قد وقفت من ذاتي وقفتي من الغير الصامت . أكون قد انقسمت الى اثنين : واحد في الداخل وواحد في الخارج . هذا الخارج فيّ اصبح آخر . اصبح الغير ، الذي كنته ، بالنسبة الى غيري : هذا الغير ، فيّ ، هو الذي ينعتني بالصمت ، لانه لا يرى مني إلا الشفتين الجامدتين . انا الآن ذلك الغير ، في

ذاتي ، بالنسبة الى شفتي . وهكذا اقيم فضاء ، اي مسافة برانية ، بيني وبين نفسي . انشياً . اقف امام نفسي ... حيالها ... ازاءها ... لارى (كما ارى الغريب) شفتي اللتين لا تتكلمان . عندئذ اقول عن ذاتي : انا صامت .

فبر ان الفرق كبير بين الحكمين .هو فرق في الطبيعة ، لافي الدرجة . حين اقول عن الغير ، انه صامت ، استند فقط الى جمود شفتيه . ذلك لانني لا استطيع ان اجتاز حدود فمه . ولكن عندما اقول عن نفسي ، اني صامت ، اتجه فوراً نحو غاياتي الخاصة ... نحو دلالاتي ... نحو معانيّ ... نحو مراميّ الشخصية .

وبهذا اكون قد تساميت ، عن جمود الشفتين ، ودخلت في عالم البيان الروحي ـ اضف الى ذلك ، انني عاجز عن اطلاق حكم الصمت عليّ ، إلا بالقول انني صامت . وهكذا ينتفي الصمت ، إذ يصبح قولا ... اي كلمة .

الصمت هو في الجسم ، فقط ، وبالجسم . هذا الجسم لا اراه انا من الباطن . هذا الجسم اراه من الخارج ، فاشيّئه ، اي اجعله شيئاً من الاشياء الجامدة . وبذلك اتخذ موقف العالِم الطبيعي من المادة البرانية . او موقف الطبيب من المريض المتألم . هو جسدي ، الذي اقول عنه ، بانه لم ينبس ببنت شفة . هو جسدي الذي اراه شيئاً من الاشياء . مثَله مثَل جسد الغير ، الذي اشرف عليه من الخارج . ان الصمت ، الذي اراه ، هو صمت الغير . هو صمت بالنسبة الي . انا ارى صمت الجالس ازائي ، لاني ارى شفتيه الجامدتين . ولكنني لا ارى صمتي . لن اراه ما لم اتحول الى آخر فيّ . هذا الآخر يستطيع ان يحكم عليّ ، فيقول بأنني صامت . ولكن جمود الشفتين ، لا يعني مطلقاً عدم وجود حوار في الصامت . هذا الحوار يدور خلف الشفتين ، بينه وبين نفسه . هو لم يصمت إلا ليعبر عن حالة من الحالات النفسية . اذن هو صامت ناطق . ومن هنا قول الاخطل .

ان الكلام لفي الفؤاد وانما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

* * *

ومن اكبر الادلة على ان الصمت لغة ، اي معنى ، كونه مظهراً اجتماعياً :
لا صمت الا في مجتمع انساني . الانسان لا يصمت الا حيال آخر . قد يكون هذا الآخر في الخارج ، وقد يكون في الباطن . المهم ان الصمت من اكبر الادلة على الحياة الاجتماعية ، او المجتمعية . هو معنى ، او اشارة الى معنى، تستوجب آخر ليدركه . لو لم يكن على وجه البسيطة الا انسان واحد ، لما تمكن من ان يصمت ، الا اذا اعتبرناه اثنين : انا وانت في آن واحد . ذلك لأن الصمت هو من اجل الغير ، ولا معنى له الا في وجدان الغير . انا لا اصمت الا لانني اعني شيئاً . وانا اشعر في قرارة نفسي بانني اعني شيئاً . والناظر الي بامعان يدرك انني في حالة تبيانية .

الصمت كفيل ، كاللغة ، أن يجعل مني موجوداً له معنى في نظر الآخرين . وأن يشعرني بوجودي ايضاً عن طريق الآخرين . يردني الى نفسي بعد ان يبرقني الى غيري . الصمت تعاطف . اثنان تلاقيا ، بعد غربة طويلة ، وتعطلت لغة الكلام بينهما . يعبران بالصمت عن هذه الحالة الفرحة . يكون الفرح هنا فرحاً صامتاً . وهذا لا يعني تهوينا لخطورة اللغة . ولكن الالفاظ احتقنت ، قاموسياً ، فتوقفت حينا ، متحولة الى دموع تنهمر من العيون ، والى قبلات تنهال من الشفاه ، والى ضمّ ، وشمّ ، وعناق . كل ذلك في صمت هو ملء اللغة ، بمعنى الدلالات ، لانه صمت ناطق . وهكذا قل عن كل صمت آخر . معنى الصمت موجود في نفس الآخر ، او الغير . الغير هو الذي يتلقى معناه ... يدرك معناه ... هو الذي يفهمه ، ويفسره ، ويحاول ان يرد عليه اما بصمت مقابل ، واما بكلام .

لا ندري اذا كان الحيوان يصمت . الظاهر انه لا يصمت ، ما دام لا يزاول اللغة ، على طريقة الانسان . لاصمت الا حيث تكون اللغة . ولا تكون اللغة الا حيث يقوم المجتمع ... أي المجتمع البشري . الصمت دليل ، عند الانسان ، على تقيده بقوانين البيئة ، التي يعيش فيها ... على احترامه لتلك

البيئة . يسود الصمت ، في الجنازة ... في بيت الفقيد ... امام القبر . يسود الصمت في الاماكن المقدسة . لا معنى للصمت ، على قمة جبل عال ، الا في اعتبار انسان تسلق هذا الجبل . انا بحاجة دائماً الى آخر لاقول له بان العزلة جميلة . والا يفقد معنى الجمال ، اللهم اذا قلته لنفسي . انطوي على نفسي ، واصمت صمت مفكر يتأمل ، ثم ازرع ارض غرفتي ذهاباً واياباً . هذا الصمت لا يكتسب فحوى الفكر المتأمل ، الا اذا اطل عليّ احد من الخارج، ورآني في هذه المشية . حينئذ يتردى معنى التأمل . حينئذ يقال عني : هو في صمت يتأمل .

تصور معي قاعة الدرس ، مساء ، في معهد كبير . وقد تغيب الناظر ، تلبية لدعوة له . قامت قيامة التلاميذ . هذا يلكز رفيقه . وذاك يتثاءب ، غامزاً من جلس ازاءه . وذلك يطلب مسطرة بصوت عال . ثم تصور معي الباب ، ينفتح بغتة ، ويطل الناظر قبل اوانه . لا ينبس ببنت شفة اطلاقاً . يدخل ، ويقف ، ثم يصمت ، فيعود النظام الى ما كان عليه . ما قيمة هذا الصمت ، لو حدث في قاعة درس ، خالية من التلاميذ ؟ لا قيمة له . ليس هناك حضور انساني ، في القاعة ، ليتلقاه ويفسره . الطاولاتُ لا تقيّم الصمتَ ، ولا الجدرانُ ، ولا السقف ، ولا الكلب المربوط امام الباب . واذا كان الداخل الى الكنيسة يصمت ، فلاعتقاد منه ان الله موجود فيها . الصمت باب من ابواب التهذيب الاجتماعي . قيل الصمت زين للفتى . هو زين لانه يظهر الفتى ، في نظر الآخرين ، بمظهر الذي يحترم من هم اكبر سناً ، فلا يتقدم عليهم بالحديث . الصمت فن من فنون التمدن . المثقف يعرف كيف يصمت ، واي متى يصمت . الهمجي وحده لا يراعي نواحي الصمت ، لان الحياة الاجتماعية لم تصقله .

* * *

هل النظر الصامت هو صمت في النظر ؟ سؤال وجيه ، يدخل في اطار البحث، الذي نحن بصدده . ولكي نجيب عنه ، ينبغي لنا ان نفرق بين العين والنظر : بهذا الفارق بينهما ، نعرف تماماً ان العين ليست النظر الذي يعبر ، كاللغة ، عن كتمات القلب الانساني . العين هي ذلك العضو اللحمي ، تحت جبهة الرأس . من خصائصها انها جامدة في فلكها ، لا تنتقل . لا تذهب الى مسافة . هي دائماً في غلافها . هي شيء جسمي ، لا يقترب ، ولا يبتعد ، من الآخر الذي تراه .

النظر بالعكس هو ذلك السيال الوجداني ، الذي لا تراه العين العارية ، ولكنه ينبثق من العين ذاتها ، ليذهب الى هناك ... الى مسافة بعيدة ، او قريبة ... ويقع على الشخص المنظور. النظرة شحنة من شحنات النفس ، تتطاب وجداناً طارداً ووجداناً لاقطاً ... وجداناً يرسلها ووجداناً يتلقاها . النظرات هي التي تَرى وتُرى . العين تظل قابعة في محلها . النظرات هي التي تَسأل وتُسأل ... هي التي تخاطِب وتخاطَب . تفاوِض وتفاوَض . هي ضابطات ارتباط .

النظر هو الذي يحمل شحنات الذهن ، وينقلها معه ، ليرميها على الآخر المنظور . وهو الذي ندركه ، لا العين ، لأنه كساعي البريد مؤتمن على رسالة. هذه الرسالة ينبغي له ان يوصلها الى صاحب العلاقة . النظر هو الذي ينشىء شبكة مواصلات ، بين اثنين او اكثر . وهل يعني هذا الا ان النظر ذو دلالة محمولة الى آخر ؟ العين كسولة ، لا تتحرك . النظر يروح ويجيء . وعندما تدرك معاني النظر ، تغيب عنا العين . نحن لا نرى جمال العين . نحن نرى جمال النظرات . الجمال معنى ، والنظرات وحدها تعني . العين لا تبرق شيئاً . هي طينة لحمية . قيل عن المرأة الاميركانية : لها عينان كبيرتان ، ولكنها فاقدة النظر . مقصده ان عينيها لا تتكلمان ، لانهما لا ترسلان نظرات ناطقة .

لا مبالغة في القول : وقد وقعت نظرات الحاكم على المجرم كسيف قاطع .

النظرات تقع فعلا على الغير ، لانها شحنات نفسية نقالة . جسم الغير يشعر بوطأتها ، كما يشعر بوطأة المادة . النظرات تكون حادة ، شاحذة ، لاذعة ، مغرية ، ناعمة ، لئيمة ... الى ما هنالك من معان في النفس البشرية . لنتصور شاباً ، في مقتبل العمر ، يحـــاول ان يسرق من غرفة ابيه شيئاً ثميناً غالياً . وهو يعتقد ان لا احد ينظر اليـــه . ثم يلتفت بغتة الى الباب ، فيرى اباه واقفاً ، ونظراته المؤنبة مسددة اليه . لم تحصل مشافهة بينهما . ولكنه شعر بما هو في مستوى المشافهة ... من عيار المكالمة . لقد سقطت نظرات الوالد ، على الابن ، كابر حادة . احس بها احساساً جسمياً . اخترقت هيكله الخارجي ، وراحت تنخس ضميره. والدليل الى انه شعر بها ، وادرك معانيها هو جموده في مكانه ... ارتجاف يديه ، واصطكاك ركبتيه، واحمرار وجهه.. هو خوفه الذي جعل لسانه يتلعثم .. هو العرق الذي سال من جبينه . حدث كل ذلك ، دون ان يسمع صوتاً . لقد قامت النظرات مقام قرع الشفاه .

لنتصور ، الآن ، هذا الوالد اعمى وقد مرّ بالباب ، مصادفة ، فوقف ، دون ان يدري ماذا يفعل ابنه ، في الغرفة . وقف ، لا لشيء آخر ، الا لأنه اراد ان يقف . ثم التفت الولد ، بغتة ، فرأى اباه . اتعتقد انه يضطرب ؟ عين الوالد موجودة ، وقد تكون مفتوحة ؛ ولكنها لا تنظر . اذن لا تبرق شحنات نفسية . اذن لا تعني شيئاً . ويتابع الابن السارق عمله ، اذ يشعر با نه منفرد في الغرفة ، لا احد يراه ...: لا احد ينظر اليه .

* * *

يبين لنـــا الآن الخطأ ، الذي انزلق فيه برغسون . لقد فهم اللغة على اساس الكلمة المعزولة . فهمها مجموعة ألفاظ مخلعة .. فهمها تجليداً لمائيّة الديمومة . فهمها اسماً ، وفعلاً ، وحرفاً . هي عنده من مواليد الفضاء ، وبنات المجتمع ، بمعناه الاشح . ولذا جاءت وسيلة تجارية ، لتفاهم تجاري ، بين الناس . اما

الغاية الكبرى ، القابعة خلف المجتمع والفضاء ، فاللغة عاجزة كل العجز عن ان تدرك قلبها . هذا هو موقف برغسون من اللغة ، على ضوء نظرية الديمومة ، كما سبق شرحها . وهو موقف عدائي صريح لوظيفة الكلمة ، التي هي تجريد.

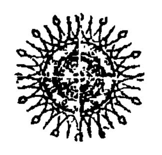
ولكن برغسون لا يُنكر ان الفارق ، بين الانسان والحيوان ، هو المعرفة. المعرفة، مهما يكن لون اتجاهها، هي الحجة الكبرى التي يرمي الانسان اليها . إلا ان المعرفة ، لا تحدث بمعزل عن الكلمة . لا معرفة إلا وهي معرفة مكلمنة ، شرط ان نعتبر اللغة وحدة" آدمية" ... انبثاقاً ديناميا من لطيفتنا البشرية . اللغة لا تنفصل عن باقي نشاطات الوجدان . عجزها من عجزه ، وزخمها من زخمه. هي انطلاق داخلي من الديمومة عينها . هي ديمومة الديمومة بالفعل . والتجريد، الذي تزاوله ، هو ايضاً من الديمومة عينها . وإلا من اين تأتي ؟

التجريد بمعناه المألوف ، تبريد لجذوة الحياة ... تكليس لحرارة الباطن ... تجميد لحركة الديمومة . هذا التحديد ، للتجريد ، لا يعطي غير مطل واحد عليه . التجريد التجريد ذو نطاق اوسع . هو ليس عملية فرز العناصر المشتركة، فيما بين المواجيد ، واهمال العناصر الباقية . قد يكون هذا احد مفاهيم التجريد، كما تدل التسمية ذاتها . فنحن نجرد ، من جميع الناس ، العناصر المشتركة فيما بينهم ، كي نصل الى الجوهر العام ... الى ما يحدد الانسان عموماً .

هذا التحديد للتجريد يحوّر واقع التجريد . التجريد ليس فرزاً ، كما يُظن ، ولكنه عملية امتصاص ... واختزال ... وانضباط ... تفضي بنا الى الكلمة. ليس كالتجريد ما يساعد الانسان على ان يحوش كثرة المادة في قليل من الاحرف. على ان يضبط انفلاش الطبيعة بنظرة واحدة . ويختزل بسط الامتداد في قبض اللغة. بالتجريد يتحكم الانسان بالماجريات ، ويتسلط على الحالات الوجدانية. التجريد دليل على ألوهية الواعية فينـــا . هو شدّ ارتخاء ، وضبت شتيت ، ولملمة تنوّع ، وانضغاط اجزاء مخلعة في قليل بسيط . لقد كان برغسون احرص ، من غيره ، على تعريف الحياة كتشدد ، بالنسبة الى المادة . هذه

المادة تتمدد ، وتنفلش عبر الفضاء ، كلما امعنت في ماديتها . ميزتها انهاانبساط جامد . ثم يصعد تيار الحياة ، من دركات المادة ، الى درجات الروح . هذا الصعود يبدأ امتداداً وينتهي تشدداً . هو كد تنكمش فيه المواجيد، شيئاً فشيئاً، حتى تصل الى القمة التي هي الروح . هنا تتصفى .. تتنقح . هنا تنضبط قواها كلها ، في ومضة واحدة من ومضات الوجدان .

هذه القوة الضابطة لانفلاش الديمومة ، وارتخائها ، وسيلانها ، تبين جلية في ملكة اللغة. الكلمة الواحدة تختزل لانهائيات جرارة. الكلمة خلاصة الخلاصات. فيها تتكدس عوالم ، وحالات . فيها ترص الكثرة المتمددة . انها آية الله في مخلوقه الادمي . أما قيـل بحق : في البدء كان الكلمة . اجل ، في البدء كان الواحد ... كان البسيط ... كان القليل الصافي ، الذي انفلشت منه الكائنات .



الفصل الثاني

في وجودية اللغة

الباب الأول

في اللغة الأم

قلنا بان اللغة غاية لا واسطة . وقد عنينا بذلك انها جوهر من الجواهر ، التي يقوم عليها محض الانسان . والجوهر عام . لكن الانسان لا يشرف على الجوهر الا ابتداء من الوجود . والوجود خاص . والخاص واحد . ان الذين يريدون ان يثبوا توآ الى الجوهر العام ، بدون الاستناد الى الوجود الخاص ، لا يصيبهم الا الفشل ... لا يدركون الا الفراغ . ان الانسان ، شاء ذلك او ابى ، هو في سبيل الجوهر مبتدءاً من الوجود .

يظن البعض ان الجوهر والوجود — اي العام والخاص — يتنافيان ضرورة . والحقيقة ان التعاضد قائم بينهما . تلك هي جدلية الحياة . ان الجوهر بحاجة الى وجود ، ينحدر فيه ، والا ما كان جوهراً . والوجود بحاجة الى جوهر ، يصعد نحوه ، والا ما كان وجوداً . اذا فصل الجوهر عن الوجود ، قطعاً ، تهافت الاثنان معاً . لا يعود الجوهر منسكباً في وجود ، ولا الوجود وجوداً مسدداً الى جوهر . ان الانسان عاجز عن ان يرفع الجوهر العام ، الا بحضر اسس له في الوجود الخاص . ان جوهراً لا ينوجد ، ووجوداً لا يتجوهر ، تنتفي عنهما صفة الجوهر والوجود . لذا كان على الانسان ، كي يستبقي حياته ، ان يراوح فيما بينهما .

اجل ان حياتنا لا تدوم الا اذا تعاضد هذا التناقض القائم ، دوماً ، بين الجوهر والوجود . لولا التعاضد ، بين هذين المتناقضين ، لذهبت حياة

الانسان . اذا استقل الجوهر بجوهريته (دون أن يرتكز على الوجود) واستقل الوجود بوجوديته (دون ان يسدد نحو الجوهر) كان فناؤنا خلف كل منهما. اذن ، لا كيان لجوهر عام الا في وجود خاص ، اي في وجود واحد .

* * *

١

اذا طبقنا هذه القاعدة على ما نحن بصدده، في هذا الكتاب، قلنا بان اللغة جوهرلا يتحقق الا في وجود واحد ، هو اللسان . ان الانسان لا يتكلم اللغة. الانسان يتكلم اللسان . نقول ، مثلا ، هذا الرجل يتكلم اللسان العربي ... يلسن العربية . وعندما نقول اللغة العربية ، لا يكون ذلك الا على سبيل الحصر .

اللغة ليست فكرة مثالية ، على النمط الافلاطوني ، عارية من كل وجود مظهري . ان اللغة مضمون حياتي ، يعيشه الانسان في حيز الخاص ، الذي هو اللسان . هي وجود حنجري . ومن هنا قول سارتر :

> لا يقوم التكلم على ان نطق الالفاظ ، فقط ، وان نفهمها بصورة عامة . يقوم التكلم على ان نلفظ لغة ما ، اي لساناً من الالسنة ، لنبين بذلك اننا ننتمي الى الانسانية في بدء من القومية ١ .

ونحن نضيف الى هذه الفكرة ، عند سارتر ، ان اللغة التي يبرهن بها الانسان عن انه ينتمي الى الانسانية (في بدء من قوميته) هي لغته ـ الام. هذه اللغة هي القادرة وحدها على ان تفصح تماماً عن

---

١) راجع كتابه « L'Etre et Le Neant » وجه ٥٩٥ Gallimard ١٩٤٣ .

شخصيته . وهكذا يعود البحث في علاقة الوجدان باللغة ، الى البحث في علاقة الوجدان باللسان ، او باللغة ـ الام :

• • •

لا بد لنا هنا من ان نحدد اللغة ـ الأم. ما هو المقصود بها ؟ او بعبارة أوضح ما هو المراد بالنعت «الام» ؟ اتكون اللغة ـ الام هي التي يولد فيها الانسان ، اي لغة الشعب الذي ينتمي اليه عرقياً ، وبذلك تأخذ كلمة لغة ـ ام معنى مادياً ؟ أم تكون اللغة ـ الام هي التي تعبر كل التعبير عن الوجدانيات،وبذلك تأخذ كلمة لغة ـ أم معنىً لا مادياً ؟ .

ان القول بكون لغة الانسان الام ، هي التي يولد فيها ، يشتمل على فكرتين متصاهرتين : العرقية ، والتأسلية . أما العرقية فهي تعني ان لغة الانسان الام هي لغة البلد الذي يكون قد وُلِد فيه . واما التأسلية فهي تعني ان الولد يرث بالسلالة لغته ـ الام ، كما يرث من والديه ، سيماءه ولون دمه . انقول ، إذن (وفقاً لهاتين الفكرتين) ان الالماني العرق يتكلم بالضرورة ، الالمانية ، كلغة ـ أم لــه ؟ وان الطفل المولود من ابوين افرنسيين يرث منهما لغته ـ الام ؟ ان الوثائق العلمية لم تتوافر لدينا ، بعد ، في سبيل البرهنة ايجابياً على صحة هاتين الفكرتين .

لا شيء يثبت ، موضوعياً ، ان هناك علاقة سببية بين العرق واللسان . مدار الاول يختلف عن مدار الثاني ، لأن العرق مزاج واما اللسان فمهارة . ودليلنا الى ذلك الافراد الذين ينتمون ، من حيث العرق ، إلى شعب... ويتكلمون ، كلغة ـ ام ، لسان شعب آخر . ان الادب الافرنسي يشتمل على كتبة خالدين هم من عرق غير افرنسي . وهكذا قل عن كل أدب ضخم من الاداب العالمية قديماً وحديثاً .

لا شك في ان اللسان يعكس روح الأمة . لكن الامة شيء، والعرق شيءآخر .

هناك تواز محكم بين الامة واللسان ، لا بين العرق واللسان . كل ولد يستطيع أن يتلقن لسان اي بلد في العالم ، حتى يصبح هذا اللسان لغة — ام له ، شرط ان ينقل الولد الى ذلك البلد ، فور ولادته ، وان يعيش فيه طويلا . دليلنا الى ذلك اولاد المبشرين الذين يتجولون في الارض . هم يتكلمون لسان البلاد التي يرون فيها النور ، بالكفاءة ذاتها التي تتكلم بها رعايا البلاد عينها . ان القول بجبرية العلاقة بين العرق واللسان ، في كيان الانسان الفردي ، هو قول ظني لا يرتكز على اسس إيجابية .

ولا شيء يبرهن ، موضوعياً ، ان الولد يتناول لغته — الام بالسلالة ... وان الوراثة هي التي تضع في حنجرته صوتية هذا اللسان ، او ذاك ، او ذلك . ان الادلة العلمية تشير ، بالعكس ، الى ان المرء مسلط — فور ولادته — على جميع ألسنة الأرض . اللغة — الام لا تتحكم به فعلا، إلا بعد ان يعطى جميع الألسنة قوة . يعني ان ألسنة الارض متساوية ، في لسان الولد ، بُعيد ولادته . هو مفطور عليها كلها . ولنا دليل قاطع الى حقيقةهذا الواقع . ان المولود من اب وأم عربيين ، اذا دُفع الى حاضنة روسية ، مثلا ، لتعتني به حتى الكمال (وقد أقصي مطلقاً عن سماع اللسان العربي) هذا المولود ينشأ خالياً من ملكة التكلم باللسان العربي . هذا المولود يكتسب لسان ، التي حضنته ، وعلمته . ان اللغة بالفطرة، واما اللسان فبالتلقين. ولكن الانسان بعد ان يتلقن لساناً ما، بصورة جدية صارمة ، يقفل عليه باب العبقرية في النتاج العالي ، إلا من ناحية واحدة هي ناحية ذلك اللسان . قال أحد ائمة اللغة :

> ان عبداً صغيراً ، متحدراً من عبيد السودان، يستطيع ان يتكلم جيداً الفرنسية والانجليزية، اذا بدأ فور ولادته ممارسة هاتين اللغتين في محيط يتكلم بها جيداً [1] .

نذهب الى ابعد من ذلك ، فنقول بان الانسان قادر احياناً على ان يهجر

---

١) راجع كتاب Meillet بعنوان Les Langues dans l'Europe Nouvelle ص ٧٨ Payot ١٩٢٨ .

لغته ـ الأم ، في سبيل لغة ـ ام اخرى ، اذا كانت الأولى لم تتركز بعد نهائيـاً في مطاوي قلبه . فالروائي الانجليزي الشهير ، جوزيف كونراد (Joseph Conrad) وهو من اصل بولوني ، لم يتبن اللسان الانجليزي لغة ـ ام له ، الا في الثلاثين من عمره . تعلم البولونية اولا ، عندما كان في بولونيا ... ثم الفرنسية ، عندما هاجر الى فرنسا ... واخيراً الانجليزية ، عندما انتقل نهائياً الى بلاد الانجليز ، واستقر فيها .

وقد ذكر اسحاق ابشتين (Izhac Epstein) حوادث كثيرة ، بهذا الصدد ، شبيهة بحادثة كونراد . قال ، في احدى ملاحظاته ، ما يلي :

قضت الآنسة ك ... ولها من العمر تسع عشرة سنة ، مرحلة طفولتها الاولى في اليهودية ، بين جماعة من الاسرائيليين ، حيث تلقنت اللغة العبرية . ثم هاجرت ، في السادسة من العمر ، الى اميركا حيث امضت ثلاث سنوات ، نسيت خلالها اللسان العبري مطلقاً ، وتعلمت جيداً اللسان الانجليزي . عادت ، بعد ذلك ، الى فلسطين ، وعاشت كتلميذة داخلية في مدرسة المانية ، ثلاث سنوات ، تعلمت خلالها اللسان الالماني ، ولكنها نسيت الانجليزي . وفي الثالثة عشرة من العمر ، رحلت الى لوزان ، حيث اتقنت جيـداً اللسان الافرنسي ، ونسيت الالماني مطلقاً ، على الرغم من انها درست هذا اللسان في المدارس [1] .

* * *

تنبيه .

ان الهجرة مـن لغة ـ ام الى لغة ـ ام لا تعني ان الانسان قادر على ان يتحكم بلغتي ـ ام (او اكثر) في آن واحد . للانسان قدرة مطلقة ، فور ولادته ، على ان يتعلم اي لسان يفرض عليه ، وان يترك فيما بعد هذه اللغة ـ الام ، في سبيل غيرها ، اذا استطاع ذلك . ولكن هذه القدرة ، ذات الابعاد الكثيرة وهي قوة ، تضيق عندما تنتقل الى الفعل . حينذاك تصبح ذات بعد واحد . ان الانسان لا يجيد الاجادة الكاملة الا لغة ـ ام واحدة . اذا هجرها ، ضعف زخمه فيها ، وتحولت طاقته الى اللغة الثانية . وهذا يعني

---

١) La Pensée et la Polyglossie صفحة ١٢٨ . الناشر Payot .

ان لغة ـ ام واحدة تتسلط بعبقريتها على اللغات الاخرى ، التي يتكلمها الانسان .

• • •

قد يخطر ببال القارىء الاعتراض التالي . وجبران ؟ ألم يكن ذا لسانين عربي وانجليزي ؟ ان هذا الاعتراض لا يهدم النظرية التي ندافع عنها . ولا بد من القول ، ههنا ، ان جبران لم يتحكم بالعربية والانجليزية ، في آن واحد . عندما كتب في العربية ، كان يجهل الانجليزية . ولما انتقل الى الانجليزية ، فقد اللسان العربي كلغة ـ ام له ، ليدون في سواه اجمل افكاره . لقد جاء هذان اللسانان ، في حياة جبران الادبية ، الواحد تلو الآخر ... لا دفعة واحدة . ولا يجوز لنا ان نعتبر جبران ، في المرحلة الثانية ، من عنديات الادب العربي، لانه لم يكتب اروع نتاجه في لساننا . هذا الجبران الثاني ، سيظل غريباً عنا ، مهما تُرجم بأمانة . هذا جبران متلبنن ، لا جبران لبناني صرف . هو جبران بالوكالة . ذلك لان الترجمة ، مهما دقت ورقت ، لن تجعل الدخيل اصيلا . لا ترجمة كاملة ، مئة بالمئة ، سيما في الآثار الادبية الخالدة . لو صحّ عكسه ، لجاز لنـــا ان نترجم شكسبير ، وندعيه ... ان نترجم دانتي ، وندعيه ... ان نترجم غوته ، وندعيه . العبقرية الادبية تظل ابنة امة واحدة ، وان تُرجمت الى جميع لغات الارض . هذا وان جبران لم يتوصل الى عفاف اللغة الانجليزية. لم يُعرف جبران ككاتب انجليزي مرّ . عُرف، اكثر ما عُرف ، بشاعريته ... بروحه الشعرية التي حملها الى الغربيين من سماء الشرق .

• • •

الفكر الصافي لا يعطى إلا في لسان واحد . لغة ـ ام واحدة تتحكم بعبقرية الاديب الكبير . هي وحدهـا القادرة ، من بين اللغات ، على ان تنفذ الى حيز

الباطن الكائن خلف العقل ، لتسيطر على ابعاد الفكر . ان تاريخ الآداب العالمية ، لم يرنا بعد شاعراً كبيراً استطاع ان يخلد في ادبين معاً . ولا ناثراً كبيراً استطاع ان يخلد في امتين ، كتب بلغتيها - الام . هناك راسين واحد ، هو ذلك الذي كتب بالفرنسية . هناك افلاطون واحد ، هو ذلك الذي كتب باليونانية . ان النتاج العالي لا يكون إلا في لسان واحد .

يتحصل، من كل هذا ، انه لا يوجد منذ البدء رابطة جبرية بين اللغة والعرق. ولا يمكن اقرار وراثة لسانية، تنتقل بها اللغة - الام جبراً من الاباء الى البنين - الادلة تثبت بالعكس ان هذه الرابطة ظنية،تماماً ، وان هذه الوراثة غير كائنة - ان الطبيعة لا تقيد الانسان ، منذ البداية ، بمثل هذه الصرامة . في هذا التقييد ما يتنافى مع الحرية . اجل ، هو ابن القانون . ولكن القانون يفترض اولا ان يكون الانسان حراً . كيف ، ولماذا ، تريد الطبيعة ان تربطه - منذ البدء - بهذه اللغة ، او تلك ؟ ايجوز لنا ان نقيم هذه الجبرية ، ولا شيء يقرها علمياً ؟ الانسان حر بالقوة ، مقيد بالفعل .

* * *

٢

اذا كانت اللغة - الام ، في حياة الانسان ، ليست ضرورةً لسان الشعب الذي ينتسب اليه عرقاً ، ولا لسان الوالدين وراثةً ، فماذا يمكن ان تكون؟ نقول بان اللغة - الام هي مطلق لسان من السنة الارض ، شرط ان يتمكن الانسان من ان يعبر فيه عن واعياته بطريقة لا واعية ، اي بطريقة عفويّة ، كلية ، خلاقة . هذه المزايا الثلاث (العفوية ، والكلية ، والخلق) هي التي

تحدد اللغة ـ الام ، لأنها تفجر الكلمات مباشرة من العقل والقلب معاً ، حالما يشعر الانسان بضرورة التعبير عن فكر عميقة وعواطف سامية . في اللغة ـ الام يندمج التفكير والتعبير ، لأن الباطن لا ينتظر عندما تجيش اعماقه . فيها يتحد التعبير عن الارادة بارادة التعبير ، فلا يعود الفكر سابقاً للكلمة . فيها نتحكم باعصابنا ، وانفاسنا ، وميولنا ، فتصبح ام لساننا . فيها ننسى اننا نتكلم ، فتمتزج القوة بالفعل . فيها نرتفع الى فلك اللاكلمة في بدء من الكلمة ؛ فيها نؤمن بوجود عالم المثل الصامت. هي التي نتسامى عليها من داخلها . هي التي ننفعل بها عندما نكتب ، ونتسلط بها على غيرنا ، وننفذ بها الى سوانا ، ونقود بها الآخرين . هي التي نخاطب ذاتنا بها، عندما نلزم الصمت . هي التي نتمكن فيها من ان نفصح عما نريد بعفوية لا واعية ، وكلية مطلقة ، وابتكار خلاق. هي التي نجيدها اكثر من إجادة قاموسية . هي التي تخلدنا ،في ادب من الاداب، لو كنا من درجة العباقرة .

بهذا التحديد نعيد الى الانسان حرية البداية ، ليكون المسؤول عن لغته ـ الأم. لكنه (وقد انتخب حراً لغته ـ الام) يخضع بموجب هذه الحرية عينها الى احكام اللغة ـ الام ، اذ يصعب عليه بعد ذلك ان يتصرف بلسانه كاملا ، إلا في لغة واحدة . هذا القول لا يعني ان الانسان عاجز عن درس لغات اخرى على هامش لغته ـ الام . المقصود انه عاجز عن التعبير ، في غير هذه اللغة ، بالعفوية ذاتها، والكلية ذاتها ، والخلق ذاته . ليس للمرء الا شرفة لسانية واحدة يطل منها على المطلق العام .

الانسان (جوهراً) هو الانسان المطلق . الانسان (وجوداً) هو هذا ، أو ذاك ، او ذلك ... هو امتداد أمة واحدة ، لا أمتين ... وبالتالي امتداد لسان واحد لا لسانين. ان ادراكنا للمطلق لا يكون إلا في اجادتنا للخاص . المطلق المطلق لا وجود له في حياة الانسان . المطلق الخاص هو الكائن . ولكن هذا المطلق عفوية ، وكلية ، وخلق . وما دام الخاص يعكس المطلق ، نسبياً ، فمن واجبه

ان يعبر نسبياً بعفوية ، وكلية ، وخلق . نقول اذن لا مجال للقلب الواحد غير لسان واحد ، يكشف به بقوة جارفة عن كنمات نفسه،وخطرات فكره . واللغة التي نعني ، ههنا ، تتجاوز النطاق القاموسي . هـــذا المفهوم للغة لا يبرز انطولوجيتها . لا يعلن مدى رسالتها للتاريخ . إذ لا يكفي ان يعبر الانسان ، بجمل صحيحة ــ صرفاً ونحواً ــ عما يحتاج اليه في حياته العملية . المهم انه يتوصل الى الاجواء الفكرية السامية . ان يصطاد القيم ، مهما كانت بعيدة ـ ان يؤدي الشهادة ، امام التاريخ الاكبر ، ببلاغة وفصاحة وبيان .

* * *

نحن لا نتخذ لغة الكاتب العادي مقياساً لتحديد اللغة ـ الام . الكاتب العادي لا يشعر إلا بأشياء عادية. هذه الاشياء يمكن التعبير عنها ، في اكثر من لغتين، بطريقة قاموسية صحيحة. ولكن لغة الكاتب العادي لا تعكس لنا اسمى طبقات الوجدان . هذه الطبقات السامية لا يمكن التعبير عنها ، ببلاغة وفصاحة وبيان، الا بلغة واحدة. هذه الطبقات كلما انسعت جوهراً ضاقت في الوجود المكلمن. ومن هنا يحرص العباقرة على لغاتهم ــ الام حرص العذراء على عفافها . ان محاولة العبقري ان يعبر عن اريحيته ، بأكثر من لغة ــ ام ، هو انحراف عن مسالك الحياة . هذا ، وان التاريخ لم يظهر لنا بعد مثل هذا الانحراف . لغة هذا العبقري هي التي نتخذها مقياساً لتحديد اللغة ــ الام . هي وحدهاالتي تتصف بالعفوية ، والكلية ، والخلق . وهي الصفات عينها ، التي تكوّن عناصر اللغة ــ الام ، لدى الانسان . وما دمنا في الحديث عن اللغة ــ الام ، عند العبقري، يجدر بنا ان نقول كلمة في العبقرية ، من جهة علاقتها بفلسفة اللغة.

* * *

اجل ، من الصعب ان نبحث في حقيقة اللـــغة ، دون ان نطرق مشكلة

العبقرية . العبقرية صورة حية لمنطق الحياة . ما تقوله هذه ، تحققه تلك :
وقد كان محكنا دائماً ، عبر الكتاب ، ان العبقرية لا ترضى لها بغير لسان واحد؛
والتاريخ امامنا يشهد على صحة ما ندعيه . ما من عبقرية استطاعت ان
تخلد الا في مجرى واحد ... في شعب واحد ... في امة واحدة . ولكي
نظهر سطوة اللغة على تركيز العبقرية ، هنا او هناك او هنالك ، نتصور اديباً
عبقرياً ، تركي المولد ، فرنسي الجنسية ، الماني اللغة — الام . هذا الاديب
العبقري مات . الى اية امة يعود ؟ اين يجد مقره النهائي ؟ اين يخلد ؟ في اي
مجرى من مجاري التاريخ يتركز ؟

يقيننا انه يعود الى الامة الالمانية . هناك يخلد ... هناك يسهم في خلق جيل
طالع ... هناك يتحكم بالزمان . من هذه العناصر الاولية الخطيرة (الوراثة ،
الجنسية ، الارض ، اللغة) لم يفز بعد الموت الا عنصر اللغة . هي الضابط
الاهم ، الذي يجسم عبقرية الانسان . الذي يمظهر فيه جوهر الانسان . ان
اللبناني ، الذي يتبنى الفرنسية لغة — ام له ، يحيى في فرنسا بعد موته . هناك
يمتد في دوام الزمان... هناك يدخل في مجاري التاريخ الاكبر ... هناك يتحقق
التفاعل بينه وبين الاجيال الفرنسية الطالعة ... هناك يزهو فكره ، وينضج ،
ثم يثمر :

لقد انحرف هذا المتفرنس عن لغة لبنان ، فانحرف عن تاريخ لبنان ايضاً ،
وعاد الى الامة التي اختار لذاته لغتها — الام . والعبقرية الصارمة تفعل بعد
مماتها ، اكثر مما تفعل في حياتها . يتزايد فعلها مع الاجيال ، والا يبطل كونها
عبقرية ، اذا وقف تأثيرها عند حد وجودها ، في قيد الحياة . قد يُفكر
في ترجمة هذا الاديب اللبناني المتفرنس . ولكن الترجمة لا تحوّل الدخيل اصيلا.
وهي لا تفيد الا اذا فاعلت بين حضارتين مختلفتين ، اذ ذاك يحصل الانتفاع،
وتفتح شبابيك الامة المترجمة على مروج غير مروجها ، وجبال غير جبالها ،
ومناجم غير مناجمها . اما ان يترجم اللبنانيون عبقرية كانت فيهم ،ومنهم...

اي ان يترجموا انفسهم لانفسهم ... فهذا دوران في حلقة مفرغة ، عبر التاريخ . هذا انحراف عن قاعدة الخلود الصحيح . هذا نوع من التزوير يرتكبه الانسان ، بدون ارادة منه ، في علاقته مع الحياة .

الترجمة تنقل خاصاً الى عام ، ولكنها لن تنقـــل خاصاً الى خاص . ان الترجمة تجعل من شكسبير الانجليز شكسبيراً لجميع الشعوب ، غير انها لن تنقله من تاريخ الامة الانجليزية الى تاريخ الامة الافرنسية . ان اللبناني المتفرنس ، لغة ، يبقى في لبنان ما دام حياً . ما دام يحتك بشعبه احتكاكاً جسمياً . ومن بعده ، يتسلل الى حيث اراد هو ان يكون ... الى الامة الافرنسية ، اذا كان من طينة العباقرة الخالدين .

لن تفلح الترجمة في اعادته الى لبنان . مثله مثل الوالدة والابن ، اللذين يحتاجان الى ثالث ، يقيم التفاهم بينهما . الا يكون هذا الابن مولوداً غريباً ؟ شاذاً ؟ كالابيض المتزنج . اجل ، ليس كالموت غربالاً يرجع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله . ليس كاللغة غاسولاً تنقح الفكر من اعراض هذا العالم . لذلك تعود العبقرية : بعد الموت ، الى الشعب الذي تكون قد تبنت لغته ـ الام : في هذه اللغة تستقر عينها . وفي شعب هذه اللغة تزاول اثرها . لقد كتب زينون السوري ، في اليونانية ، فصنفه التاريخ بين عباقرة اليونان . وكتب الفارابي التركي ، في العربية ، فصنفه التـاريخ بين عباقرة العرب . والامثلة كثيرة لا تحصى. وقد أدرك ابن خلدون حقيقة هذا الواقع. قال في مقدمته[1] ، ما يلي :

ان عرض لك ما تسمعه من ان سيبويه ، والفارسي ، والزمخشري ، وامثالهم من فرسان الكلام ، كانوا اعجاماً مع حصول هذه الملكة لهم ، فاعلم ان اولئك القوم الذين تسمع عنهم ، انما كانوا عجماً في نسبهم فقط . واما المربى ، والنشأة ، فكانت بين اهل هذه الملكة من العرب ، ومن تعلمها منهم . فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا شيء وراءها ،

---

١) الفصل الثاني والاربعون .

وكأنهم في اول نشاتهم من العرب ، الذين نشاوا في اجيالهم ، حتى ادركوا كنه اللغة ، وصاروا من اهلها . فهم وان كانوا عجماً في النسب ، فليسوا باعجام في اللغة والكلام ، لانهم ادركوا الملة في عنفوانها ، واللغة في شبابها .

• • •

فحوى ذلك ان اللغة هي من اهم ضوابط العبقرية . من اهم الافعولات (ان لم تكن الافعول الاكبر) التي يحصل بها امتداد الانسان في مسالك الديمومة . اللغة هي التي تصنف العبقرية هنا ، او هناك ، او هنالك ، بين اعيان الانسانية . عندما ينتسب المرء الى شعب ، ويكتب بلغة شعب آخر ، يكون قد حكم على ذاته مسبقاً انه تبنى تاريخ الشعب ، الذي اختار لسانه لغة — ام له .

لهذا يخاف الاديب الكبير على عبقريته من الكتابة في عدة لغات . الواقع اننا لم نعثر على عبقرية واحدة ، استطاعت ان تشمل في المطلق ، دون الاستناد الى شعب واحد من الشعوب الكثيرة . كأني بها قد فهمت حق الفهم ان عفاف الفكر من عفاف اللسان . متى زنى اللسان ، زنى الفكر ، فتعكر الانسجام ، وتعكر صفاء القلب . ان الذي يتصفح تاريخ الآداب ، عند مختلف الشعوب ، يرى ان الاديب الاديب يحرص كل الحرص على نقاء لغته — الام . كم من اديب ملك لغة غير لغته — الام ، ولكنه لم يدنس انتاجه الممتاز بالكتابة فيها . حسبنا ذكر الشاعر الافرنسي الكبير ستيفان مالارمه ، الذي قضى كل حياته ، تقريباً ، استاذ اللغة الانجليزية . رغم ذلك لم يخط شيئاً من ادبه الصافي ، الا في اللغة الافرنسية . العبقرية لا تكتب الا في لغتها — الام ، ومن ثم تترَجم . الترجمة هي المقياس الاكبر ، الذي نعرف به عند الامم مدى سمو الفكر ، في درجات الكمال الانساني .

يغتبط الانسان اذا قيل عنه بانه يتكلم لغات عديدة ، ويكتب لغات عديدة .

ولكنه يجهل ما يكمن تحت هذا الاغتباط من تعطيل لصفاء قلمه ، وقوميته : ذلك لان درسه اللغات الاجنبية (باسلوب يقرب من الكمال) يفسد ميزته الادبية ، والقومية ، ويؤول به الى العجمة . ومتى دبت العجمة في اللسان ، انحطت قوة الخلق والابداع ، وضعفت ملكات النفس الممتازة . ان السنة عديدة لا تسكن تحت سقف واحد ، بدون ان تتناحر . والعجمة لعنة على الفكر ، لأن اللغة — الام وقف على اللسان ، وللوقف قدسية لا يمكن الالحاد عنها .

لذا عندما يدافع الكاتب الابي عن لغته — الام ، يدافع عن ابعد ما في وجدانه الانساني . بموتها فيه ، تموت عناصره الابداعية . وباستئنافه اياها ، يتجدد عزمه ، ويقوى زخمه الى فوق . الم يُقَل ان الانشاء هو الانسان عينه ؟ اجل ، ان اللغة — الام هي الانسان عينه . ان بين الانسان ولغته — الام رحماً ماسة. اذا انقطعت، حكم على الانسان الخلاق بالزنى، وطرد من جنة الخلود. ان دفاعه عن لغته — الام ضرورة حياتية . هو استجابة لاعمق النداءات في ضمير الانسان . هو نزوع الى اسمى درجات الحرية في العقل . هو انتفاضة من الاستعباد الفكري ، الذي ينتهي باستعباد الجسم . هو برهان على رقة في الحس ، وميل للبحث في الاسباب والعلل .

كان لبرغسون اطلاع واسع على اللغة الانجليزية . هذا الاطلاع جاءه عن طريق امه ، التي كانت ارلندية الجنسية ، مما ساعده كثيراً على التملك بارتياح من اللغة الانجليزية . وكم مرة طلب المفكرون الانجليز من برغسون ان يكتب فلسفته ، باللغة الانجليزية ، فكان يرفض دائماً . كأني به قد شعر ان الكتابة ، في الانجليزية ، ستبقيه للانجليز بعد موته . والمعروف عنه انه احب فرنسا حباً عظيماً ، حتى آثر كتابة فلسفته الانيقة ، بلغتها القومية .

وما لنا الا ان نأخذ مثلا قريباً منا ، جبران خليل جبران . لو لم يكن هذا الكاتب اللبناني قد سبق له ان انتج باللغة العربية ، لما بقي لنا منه شيء

اطلاقاً . ان جبران المتأمرك هو للامة الاميركانية . ندرس الثاني عن طريق الاول ، ليس الا . ان اللغة ـ الام هي ام اللغات ، التي يتكلمها الانسان .
كان فولتير يقول : من السهل ان يتحدث الانسان في عدة لغات . انه عمل بضع سنين . اما ادراك صفاء اللغة ـ الام ، والقبض على كنوزها المخبوءة ، فهو عمل الحياة كلها . والعبقرية لا تضرب الا في الاعماق ، ولهذا تماشي عمل اللغة ـ الام ، في لسان الاديب الكبير .

* * *

٣

لنعد القهقرى الى اليوم ، الذي يرى الانسانفيه نور هذا الوجود...الى يوم الولادة . ولنتساءل كيف يبدأ الطفل بالكلام ؟ .. كيف يَفهَم ويُفهِم ؟ في هـذا الجواب ايضاح لمعضلة اللغة ـ الام ... ايضاح لعلاقة الوجدان بانطولوجية اللسان .
تميل الاتجاهات الحديثة، في علم النفس، الى القول بأن الانسان يحمل فيه ـ فور ولادته ـ ملكة اللغة ، بصورة قوّانية، اي بالقوة . ولكن هذه الملكة القوّانية لا تكفي . وحدها ، لتجعل الولد يتكلم لغة معينة . هذه الملكة قوةٌ بحاجة الى ان تصير فعلا لسانياً خاصاً . ولا شيء ينقلها ، من المطلق الى الخاص (اي من القوة الى الفعل) الا المجتمع الانساني . المجتمع هو الذي يحوّل ملكة النطق من اللغة الى اللسان . من العام الى النسبي .
ان وجود الطفل في بيئة معينة ، اي في مجتمع آدمي ، هو الذي يضفي على قدرته الصوتية طابع اللسان... هو الذي يجعله يتكلم هذا اللسان ، او ذاك ،

او ذلك، والا بقيت اللغة تصويتاً مبهماً . دليلنا الى هذا ، الاطفال المتوحشون الذين ينشأون بين الحيوانات . انهم لا يتكلمون ... لا يلسنون . لقد حرموا القدرة الفعلية . ظلت اللغة ، عندهم، ملكة بالقوة . ظلت مطلقاً هشاً ، وسديماً غامضاً . هذه الملكة القوّانية لا تتعين (أي لا تصبح لساناً معيناً) الا عندما يسمع الطفل ألفاظاً ، يتكلمها مجتمع يحيط به ... عندما يقلد سواه في النبرة واللفظ ، وتركيب الجمل .

أجل لقد اعطي الطفل ، عند ولادته ، كل أجهزة النطق . اعطي الحنجرة ، والحلق ، والفم ، واللسان ، والشفتين ، والانف ، والاذنين ... واعطي الرئتين، والحجاب الحاجز ، وعضلات البطن . اعطي كل هذا ، واعطي الملكة القوّانية . ومع ذلك ، يجب عليه ان يعيش في مجتمع آدمي ، لتزاول اجهزة النطق وظيفتها بصورة منتظمة ... لتتحول القوة من الانفلاش الى الانضباط، الذي هو فعل خاص .

يقول بعض علماء النفس بأن للحيوان اجهزة النطق عينها ، التي للانسان . رغم هذا ، ورغم كل المحاولات التي قام بهـــا المدربون ، فقد ظل الحيوان خارج الكلمة ، لانه لا يعيش مجتمعياً . مجتمع الحيوان تراكم كمي ، ولهذا كان مقفولا . مجتمع الانسان تداخل كيفي ، ولهذا كان مفتوحاً . ومن هنا انتقال ملكات الانسان ، من القوة الغامضة الى الفعل الواضح ، بواسطة المجتمع . الحيوان عبد الغريزة المحدودة . الانسان اطلق في مدى التقدم اللانهائي .

نمو اللغة عند الطفل مرتبط، إذن ، بعامل المجتمع . هذا النمو اللغوي ، لايمكن دراسته على انه مستقل في حياة الطفل . ذلك لان المجتمع يحيط به ، من كل صوب ... من الداخل والخارج . المجتمع هو اكثر من بيوت ... أكثر من جبال ... اكثر من وديان ... أكثر من اطار برّاني . المجتمع مناخ روحي ، لولاه ما استطاع المرء ان ينعكف على باطنه . اذن لا غنى للطفل عن المجتمع ، كي ينتقل من أصوات تلقائية لا معنى لها الى كلمات مقطّعة ذات معنى ، من

حيث أنها نظام اجتماعي ... من حيث انها لسان ، كما يقال اللسان اليوناني ، اللسان اللاتيني ، اللسان العربي .

لولا المجتمع لبقي الطفل في مرحلة اللغة الببغاوية . لبقي دون لغة المجتمع . ان اجهزة النطق ، كلها ، مستعدة لاداء وظيفتها . يبقى ان يحاط الطفل سلبياً بلغة كاملة ، قبل ان يتكلمها بصورة ايجابيه . هذه اللغة الكاملة هي وليدة مجتمع انساني . معنى ذلك ان الطفل لن يلسن ، اذا لم ينتسب الى مجتمع آدمي معين . لن يتكلم الفاظاً ذات مقصد ، اذا لم يعش في وسط بشري . ان الطفل لا يفهم الاشياء ، الا على اساس الآخرين الذين حوله ، والذين يطلقون اسماء معينة على هذه الاشياء . اللسان ، اذن ، واقع اجتماعي ينشأ عن احتكاك الناس ، نوعياً ، بعضهم ببعض . ولهذا كان من اشد العرى التي تشد الجماعات؛ لولا المجتمع ما كان اللسان . ولولا اللسان ما ادرك المجتمع الانساني ما ادركه من رقي ، وانفتاح .

يقول علماء النفس ان نمو اللغة ، عند الطفل ، يمر في مراحل متتابعة . المرحلة الاولى تسمى بالمرحلة قبل الكلامية . وهي مرحلة الاصوات العشوائية ، التي تبدأ منذ الصرخة ، بعد الولادة . هذه الاصوات هي عملية آلية ... هي نتيجة لما يحس به الطفل من حالات جسمية كالجوع ، والبرد ، والبلل ، وضغط اللفائف على جسده... هذه الاصوات تصدر عنه افعالا منعكسة ، اي افعالا غير ارادية .

ثم يبدأ التخصص ، بفضل وجود الام اولا ، بجانب الطفل . من هنا ينطلق عمل المجتمع بالفعل . اذ يشعر الطفل ان من حوله، يسرع لتلبية رغبته ، عندما يصرخ . حينئذ يلجأ الى استخدام الصراخ ، كلما اراد نتيجة ما ، فيصبح صراخه العشوائي ذا معنى محدد . يدرك مـــن تكرار سلوكهم ، على وتيرة واحدة ، ان هذه الاصوات تحدو الراشدين على تلبية مطالبه ... على تحقيق رغباته ... لهـــذا يلفظها توالياً بشكل ارادي ، بعد ان تكون فطرية غريزية

لا واعية ، تصدر بدون سابق تعليم . وهكذا تتحول آلية اصواته الى تصرف ارادي معبر . لقد صار سلوكه ذا فحوى اجتماعي . صار ينقل الى الغير حاجات صاحبه . صار وسيلة تفاهم . صار يتعمد البكاء ، ويتمادى فيه بشكل ارادي، حتى تحمله مربيته. حالما يكتسب صراخه معنى اجتماعياً ، ترتبط العلاقات بينه وبين البيئة ، فيصبح انساناً مجتمعياً .

ويتدرج التخصص من العشوائية الى النغاء ، الذي يستعمل فيه الطفل اجهزة النطق ، كانها دمى يلعب بها . في هذه المرحلة الثانية ، تكون الاصوات النغائية عضلية محضة ، بادىء بدء ، ثم تصبح محاكاة لاصوات يسمعها من غيره .

ذلك النغاء كثيراً ما يشتمل على اصوات لا يعرفها الابوان ، ولا هي موجودة في لغتهما . كثيرون هم الاطفال الاوروبيون ، الذين يلفظون خلال هذه المرحلة اصواتاً ، لا نجد لها مثيلا الا في لغات الصين ، او اليابان ، او في رطانات زنوج افريقيا . الاطفال الانجليز ، مثلا ، يصوتون الحاء ، والعين ، والغين ، التي هي اصوات عربية . وهذا دليل الى ان اعضاء النطق مرنة ، في هذه المرحلة... مطلقة جداً. وهو الأمر الذي يظهر فساد النظريات القائلة بأن الاطفال لا يلفظون ، في هذه المرحلة ، الا الاصوات العائدة الى لغة بلادهم . فكأن تلك النظريات تريد ان تطبق ، على الانسان، اضيق التخصص منذ الساعة التي يرى فيها النور . حال كون الواقع لا يثبت شيئاً من كل هذا . ان اعضاء الطفل ، في تلك المرحلة ، لينة كثيراً . ذلك اللين هو الذي يجعلها تتجه الى هنا ، او هنالك . التخصص لا يُفرض ، منذ البداية ، والا قضي على مفهوم الحرية اطلاقاً. غير ان انتساب الطفل الانجليزي الى مجتمع معين، هو الذي يوجه المرونة اولا ، فتتخصص ثانياً . ما هو غير معروف ، لدى المجتمع الانجليزي ، يُنبذ عند الطفل . كلما انخرط هذا الاخير في مجتمعه ، تقلصت دائرة المطلق ، واتخذ كيانه (جسماً ونفساً) مجرى معيناً .

وتبدأ المرحلة الثالثة من الشهر العاشر . تلك المرحلة هي مرحلة تقليد . هنا يقلد الطفل اللغة المنطوقة حوله ... اعني اللسان . وتأخذ الاعضاء شيئاً فشيئاً قالباً خاصاً في التعبير . ان دائرة المطلق تضيق ، بقدر ما يزيد اقتساب الطفل الى المجتمع، الذي يحيط به . والتضييق ، متى اتخذ شكلا من الاشكال ، لا يعود الى الوراء . لا تفك اطاراته ثانية . في هذه المرحلة ، وفي ما بعدها، يحاكي من هم حوله محاكاة ، لولاها لا يستطيع المرء ان يتعلم لغته القومية ، ولا اية لغة اخرى . وتستمر المحاكاة في جميع اطوار الحياة . تتدرج عبر اطوار ثلاثة : المنزل ، المدرسة ، البيئة . المجتمع اذن هو الذي يُعين القوة على ان تصير فعلا ... واللغة على ان تصبح لساناً .

* * *

ان السؤال الذي يجب ان نطرحه الآن هو التالي : هل بمقدور الانسان ان يلتحق بأكثر من مجتمع واحد ؟ الجواب كلا . ذلك لان المجتمع ليس تراكم افراد . المجتمع نوع آدمي ، وطبيعة خارجية ، وتاريخ عادات ، ثم رؤية مشتركة للقيم ذاتها . هذه العناصر لا تتساوى في كل البيئات . وهي ، متى طبعت الانسان بختمها ، لا يعود ممكناً التخلص منها . مثله في ذلك مثل انتمائه الى والدة واحدة . ومن هنا القول بأنه لا يعبّر كاملا إلا في لسان واحد .

هذا من حيث الجوهر. اما من حيث العرض فباستطاعة المرء ان يربط علاقات ودّ مع اكثر من مجتمع ، وامرأة ، ولسان . ولكن باطنه عيناً لا يتحقق إلا في واحد احد . في هذه الواحدية ـــ والد واحد ، لسان واحد ، مجتمع واحد، عائلة واحدة، والدة واحدة ـــ سر العفاف الذي يعطي الانسان العظمة الحقة . في هذا الخاص قوة اندفاعه ، بزخم ، نحو المطلق الشامل . كذب من قال بأن ادراكنا للسماء لا يحصل إلا بتقطيع روابطنا مع الارض. ان السماء الصحيحة لفي امتداد الارض ، اي في بدء منها . والسماء واحدة ، واما الارض فارضون : اجل

ان الأنسان عاجز عيناً عن ان ينتمي الى اكثر من مجتمع واحد ... الى اكثر من ام واحدة ... الى اكثر من امة واحدة ... والا تهافت في العدم . والعلوم التربوية ، واللغوية ، والنفسية ، والاجتماعية ، تزيد على ذلك قائلة : ولا على الانتماء الى اكثر من لسان واحد. وهل اعطى التاريخ مثلا يعاكس هذا القول ؟

الواحد هو ارفع معاني التلقائية ... اسمى درجات العفوية . هو الحيز الذي ينصاهر فيه العقل والقلب ... الفكر والكلمة ... ليندفع الوجدان بزخم نحو الانسانية المطلقة. فاذا تتبعنا ، لدى الطفل، عملية اكتساب فعل الكلام حسياً ، رأينا ان التلقائية (او اللاوعي) خير تعبير عن الذاتية الباطنية ، والقدرات الكامنة في النفس .

ان كلمات الغير تسقط على اذن الطفل ، وترسخ في ذهنه ، بدون ان يتعمد الانتباه الى استعمال اوجه الالفاظ . هو لا يتساءل كيف ينطقها الغير ... وكيف يديرها بين شفتيه . وانما تتسرب الى فؤاده بلا استئذان. تحدث تلقائياً ، بطريق المحاكاة . هذا التسرب الى الذهن ، بصورة عفوية ، لا يحصل تماماً لو انتمى الانسان الى اكثر من مجرى واحد ... الى اكثر من مجتمع واحد .

يلتفت الطفل الى اصوات الاشخاص ، الذين يحيطون به ... الى نبراتهم ، ومقاطعهم ... ثم يحاول ان يحاكي . أن يقتبس من افواههم ، الى فمه ، ما يستطيع الى ذلك سبيلا . المحاكاة العفوية عالم اول في تعلم الطفل لسان مجتمعه .

لا عجب ان تكون الحياة قد ركزت الانسان ، على هذه القاعدة ، لان الطفل لا يستطيع ان يجهد فكره ليتعلم اللسان، بطريقة عقلية واعية . انه رخص العود . على اللغة ، اذن ، ان تندس بشكل تلقائي في لسانه الرطب . وتلقائية اللسان واحدة .

لا يقدر الانسان على ان يتكلم عفو الخاطر الا في لغته — الام . قد تتوالى ... على مدى الزمان ... تلقائيتان ، الواحدة تلو الاخرى . اما سكنهما ، تحت سقف واحد ، وفي زمن واحد ، فهذا شيء من ربع المستحيل . قد يستبدل

المرء تلقائية بتلقائية . اذ ذاك يستبدل مجتمعاً بمجتمع ، اي تاريخاً بتاريخ . اذا اراد الانسان ان يحتفظ بتلقائيته الاولى ، وجب عليه ان يحتفظ بالمجتمع ، الذي يحيط بهذه التلقائية . يعني ان الانسان ، الذي يريد ان يحتفظ بلسان مجتمعه ، يجب عليه ان يحتفظ بعبقرية هذا المجتمع ... بمناخه الطبيعي والروحي. اذ اللغة ليست قبضة الفاظ مخلعة ، بعضها عن بعض ... اللغة كائن حي ... كائن يعيش ، وينمو ، ويتطور ، في الانسان . ومن الانسان . والى الانسان. ناموسها من ناموسه . نقصد بذلك انها تحمل فيها تاريخاً ، وحضارة ، ورؤية انطولوجية . لهذا لا يمكن فصلها عن المجتمع ، الذي تعكسه ، والا لاقت حتفها ... اكثر من ذلك ، عادت الى العدم . يقول احد اقطاب الفلسفة ما يلي :

اعلن ان الانسان لا يستطيع ان يحصل على تربية ذات لسانين ، في آن واحد . ان كل لغة تعكس طريقة من طرق التفكير والاحساس .فاذا وضعنا اللغات كلها في مقام واحد ، وعلى قدم المساواة ، تكون قد ارتكبنا خطأ فاحشاً . وهذا يعني – عندما نطبق تلك النظرية على الولد الكندي ذي اللسان الافرنسي – ان ذلك الولد الكندي ، اذا اراد ان يحتفظ بتراثه الفرنسي ، يجب عليه ان يحيط ذاته بافرنسيين ، لانه يعيش في بيئة انجليزية ١ .

* * *

يتفق هذا الرأي مع ما لاحظه الاستاذ موريس جرامون Maurice Grammont في التجارب الملحوظة على ابنه ، الذي كان قد اختار له مربية ايطالية . هذه المربية لازمته طيلة مدة اصوات التمرينات النطقية . ثم غادرته . ولما بدأ الطفل بمرحلة المحاكاة (او التقليد اللغوي) لاحظ الاستاذ جرامون ان ولده يلفظ الكلمات الفرنسية بلهجة ايطالية . فكان عليه ان يحيط ابنه ثانية بجو

---

١) راجع هذا التصريح لجلسون Etienne Gilson في كتاب Philosophie du Langage بقلم L.Lachance صفحة ٢١٣ Montréal ١٩٤٣ .

ايطالي بحت، ليتخلص الولد من ذلك الانحراف . وقد تحرر منه بعد امد طويل.

وهذا دليل اقطع الى ان المحيط يمكن من لسان الولد الاصوات التي يسمعها ، فتتركز في سمعه اولا ، وتدخل اذا طالت الى صميم فؤاده ، وتقوى هناك [1] . الخطورة في ذلك ان الاصوات والكلمات لا تنقل الى الطفل مجردة ، بل تحمل معها معانيها . فيحاكيها وهو يتصور المعاني تصوراً يكمل او ينقص وفقاً لمبلغ الدقة في ملكة الملاحظة عنده . المعاني لا تأتي الا من الانسان والانسان كائن مجتمعي . لهذه كانت الاصوات تحمل معاني مجتمع خاص يتلقح به الطفل .

* * *

هذا الرأي الفلسفي ، الذي طلع به علينا احد اقطاب الفكر في فرنسا ، يتفق تمام الاتفاق مع علمي التربية والنفس . ان اللغة ـ الام لا تقبل لها ضرة تحت سقف بيتها . فاما هي واما غيرها . وقد دلت جميع الابحاث النفسية ، واللغوية، ان الولد الذي يزاول اكثر من لغته ـ الام (اي من لغته القومية) وهو دون العاشرة ، تضعف طاقته الاستيعابية ... تتفرفط قواه ... ولا يعود قادراً على حصرها . ذلك لانه يتأرجح بين لغتين ، واحدة يتكلمها بتلقائية ، وواحدة يتكلمها بجهد في اللسان والفكر ، مما يضيع عليه وقتاً كبيراً ، ويجعله يتذبذب بينهما ، بدلا من ان يستقر بصورة نهائية (نسبياً) في صحن لغته القومية. يتوزع الولد بين أمتين ، بين تاريخين ، بين عبقريتين ، اذ لكل لسان عبقرية خاصة. فإذا استطاع المرء ان يوفق بين لسانين ، في صغره ، فإنه يعجز عن ذلك في كبره . لا بد لإحدى اللغتين من ان تسيطر على الثانية ، كي تشغل الصفوف الأمامية . لا مجال للإزدواجية اللسانية ، في آن واحد . هذه الازدواجية هي

---

١) راجع كتاب Maurice Grammont بعنوان Traité de Phonétique باريس ١٩٣٩ .

عكس شريعة الحياة ، ومنطق الواقع الانساني :

اللغة ليست شيئاً جامداً . هي المستودع الأكبر ، والامين ، للتراث الاجتماعي. وهي ايضاً العامل الأوحد لنشر هذا التراث، بصورة مشتركة بين مختلف صفوف الشعب . لهذا كانت علة ضمّ افراد الامة ، بعضهم لبعض . بها يتسلم الجيل الطالع من الجيل المتواري نظرته في الانسان ... في الطبيعة ... في الخالق . فتكون همزة وصل بين الاجيال .

لا بد للانسان من ماض . من جذر له في الزمان . هو ابن تاريخه . وتاريخه واحد ، لا اثنان . هذا التاريخ ... او هذه المجموعة من ضروب الحياة ... وُضِعت في ذمة اللغة القومية. اللغــة القومية، اذن ، ليست حفنة من الالفاظ المكدسة في القاموس . هذا فهم جامد للغة . وانما هي من نبضات الحياة ، تعكس جميع مزايا المجتمع .

ليس هناك احكم من اللغات ، في تعريف مرامي الشعوب ، وآرائهــا ، لان الكلمات التي يتلفظ بها الناس تظهر لنا انهم من اهل الزراع ، او الصناع ، او التجار ، او رجال الحروب . أنهم من أهل الخيــال ، او الحقائق . أنهم من المطبوعين على بسط المزاج ، أو قبضه . ومن هنا كانت اللغة القومية من أهم الاساليب، التي تصهر عناصر الامة ، في بوتقة واحدة... من اهم الاساليب التي تقيم التفاهم بين مختلف الطبقات .

من أجل هذا كان عظيماً جداً خطأ الذين يفرضون لغة اجنبية، كأداة للتدريس، على التلميذ دون العاشرة . لكأننا بهم يفرضون عليه ان يعيش غير تاريخه ... ان ينتسب الى أجداد غير أجداده ... ان ينتمي الى غير فصيلته ... الى غير أمته . وان يتصرف بجسمه عكس منطق العفوية. ان جهود هؤلاء لا تأتي بالثمر النافع ، بل تساعد على خلق جيل ، لا شيء يربطه بمحيطه ، ويصله باختبارات السابقين من اسلافه .

معارف هذا الجيل تظل سطحية . هي ضرب من الزنى الفكري ، حيال حفاف

التاريخ . إن الطالب الذي يتلقن العلوم بلغته القومية ، الطائعة لمعطيات فكره ، يبز الطالب الذي يناخ لالفاظ في اللغة، لم يتسلمها فطرة من اجداده. هذه اللغة التي يجبر لسانه ودماغه على مزاولتها ، تصبح قيداً لافكاره ، لا فضاءً حراً فسيحاً يخترقه . تصبح سبب وجود عقد نفسية مخربة لكيانه المعنوي .

يتعلم الولد لغته ـ الام من المجتمع ، الذي يحيط به . يتعلمها بالمحاكاة ... اي بالتلقائية . وهو يحاكي ، أول ما يحاكي واكثر ما يحاكي ، أمه التي تعتني به منذ ولادته . اذا سافرت الام ، او بعدت عن طفلها ، فقد موهبة الكلام . الام هي اهم شخص يلتفت اليه الطفل ويتعلق به . ومن هنا تسمية اللغة القومية باللغة ـ الام . فيها لا يقوم اي فارق بين الاسم المنطوق والشيء المسمّى. فيها يحصل عند الولد ، ما يحصل عند البدائي،من ان معرفة اسم الشيء تعني الاستيلاء على الشيء، وافتضاح سره . يتعلم الولد لغته ـ الأم، ويختبر الاشياء ، في الوقت نفسه . يتعلمها تلقائياً بقلبه... يعيشها في كل حركة من حركاته اليومية .. .في البيت...في الشارع...في المدرسة...في اللعب . يفرزها عفو الخاطر، بقوة من اللاواعية. اللغة الاجنبية لا يتلقاها الولد من مجتمع يحيط به . هو بعيد عن المجتمع الذي يتكلمها بتلقائية . لهذا يشغل عقله في سبيل تعلمها. لا يزاولها عفواً في كل حاجة من حاجاته اليومية . وهو الامر الذي يضيف على عقبة فهم المادة عقبة فهم اللغة ، خلال عمر لا يقوى فيه الطالب على ان يبذل طاقة فكرية .

* * *

تضافرت جهود علماء التربية ، في وقتنا الحاضر، على دراسة البيئات المزدوجة اللسان . لقد وعوا خطورة هذه الظاهرة الاجتماعية ، بعد ان تداخلت الشعوب، ولم يعد للاستعمار فحواه الاستعبادي ، الذي كان يحمله قبلا . وكان الدكتور دي كرولي (احد اساطين علم النفس التربوي الحديث) من الذين انعكفوا باهتمام على استقصاء هذه الناحية ، في الميدان اللغوي : واول ما لاحظه كون

البلاد المستعمَرة هي وحدها مزدوجة اللسان . اما الحدود التي تفصل بين بلدين ، فهي ايضاً مزدوجة اللسان . ولكن ازدواجيتها ، لا ترتدي الطابع الاجباري ، الذي ترتديه في البلاد المستعمَرة . هنا مشيئة وضع جغرافي ، هناك مشيئة مستعمِر قاهر .

ما هي النتيجة العامة ، التي اظهرهـا دي كرولي ، في اختباراته ؟ دلت التجارب ، عند هذا البحاثة ، ان اتقان لغتين او اكثر حالة جد فردية . هو استعداد شخصي .ان بعض الاولاد مهيء، مزاجياً ، الى تعلم اللغات بسهولة. هذا الاستعداد المزاجي لا يمت بصلة ما الى حدة الذكاء . اذ ليس من الضروري ان يكون الولد المزدوج اللسان اشد ذكاء من الولد ذي اللسان الواحد . لا علاقة لتعدد اللغات بنمو الفكر . وقد حصر دي كرولي نتائج اختباراته في بضع قواعد . صنف الاولاد الى(١)اولاد يجهلون كل الجهل لساناً اجنبياً . لا تسود عندهم الا لغة واحدة .(٢)اولاد يزاولون ازدواجية لسانية ، دون الوسط ، حيث تتغلب اللغة ـ الام على اللسان الاجنبي .(٣) اولاد يزاولون ازدواجية لسانية ، قريبة من الوسط ، حيث تتغلب اللغة ـ الام بعض الشيء فقط على اللسان الاجنبي .(٤)اولاد يزاولون ازدواجية لسانية كاملة ، تامة ، حيث يتساوى اللسانان قوةً وشدةً . هنا يتكلم الولد اللسانين بالسهولة عينها . لا صعوبة عنده لتعلم اللغات الاجنبية ، ومزاولتها بالاضافة الى لغته ـ الام .

هذه الازدواجية اللسانية الكاملة نادرة جداً . نجدها عند القليل من الاولاد ، الذين هيئوا طبيعياً ، اي مزاجياً ، لتعلم عدة لغات . وهي ليست دليلا الى ان الذكاء احدّ ، عند الطالب . هي قابلية فطرية . وقـد ادت اختبارات دي كرولي الى النتيجة الآتية : على الولد ، بصورة عامة ، ان لا يزاول ، في السنوات العشر الاولى ، لساناً غير لغته ـ الام . هذه اللغة كافية ، في سنه ، لتغذي عقله . يعني ان تعدد الالسنة يعرقل النمو الفكري ، عند القسم الاكبر

من الاولاد . من المستحسن ، اذن ، ان ينتظر الولد ، ريثما يكون قد اكتسب نسبياً لغته ـ الام ، قبل ان يقدم على دراسة لغة ثانية. هذا ومن الواجب اعطاء مركز الصدارة، للغة ـ الام، عند الاولاد الذين يعيشون على الحدود الفاصلة بين بلدين مختلفي اللسان[1] . والا ضعفت هذه اللغة ، وحلت محلها اللغة الاجنبية .

* * *

ما هي الامثولة التي يمكن استخلاصها من اختبارات علم النفس التربوي ؟
الامثولة هي هذه : لا يجوز لنا ان نعمم على جميع الطلاب ، دون العاشرة ، ما هو استعداد مزاجي عند الفئة القليلة . لا مجال ، دون العاشرة ، لتقوية ثقافة الطالب . هو في مرحلة ، جلّ ما ينبغي تأمينه ، الحصول على المعطيات الاولية اللازمة . في هذه المرحلة البدائية ، يجب ربطه محكماً بالمجتمع الذي ينتسب اليه ... يجب تزويده بالوسائل الحياتية الواجبة .

ان الولد بحاجة ؛ في هذه المرحلة ، الى ان يعبر عن وجدانه بطريقة سليقية . هو يحمل، بين جنبيه ، حياة فتية. جلّ همها ان تجد المنافذ السهلة التي تطلقها الى الخارج . هو دفق من الشحنات المتأججة ، التي تريد ان تتفجر... ان تعبّر عفوياً . هذا التعبير العفوي عن مجموع افكاره وعواطفه ، لا يحصل عليه الولد اذا كانت اللغة التي يتكلمها في المدرسة ، هي من غير فصيلة اللغة التي يتكلمها في البيت والشارع .

اللغة الاجنبية لا تتدفق من تحت لسانه بالعفوية ، التي تتدفق بها اللغة ـ الأم . في هـذه الاخيرة لا يجهد نفسه . لا يجرّد . لا يفكر اولا . في لغته ـ الام يعيش محرور وجدانياته ، محمولا على أكف الاسترسال اللاواعي . وهو شرط أولي ، من شروط التربية ، عند الولد الذي لم تمكن فيه ملكة التجريد . لذا

---

[1]) راجع كتاب La psychologie de l'Enfant Normal et Anormal d'aprés le Docteur O. Decroly تاليف J. E. Segers ص ٢٣٨ وما يليها . باريس ١٩٤٨ .

يوصي المربون المعلمين ان يشجعوا الولد على التعبير عن رغباته ، ومشاعره : أن يتعهدوا عنده قوة النطق ، والمقدرة على الكلام . من الخطأ إذن ان ننيخه وقت اللعب ، للتكلم بلغة أجنبية ، تحت طائلـة العقاب ، اذا عصى أو خل بالقاعدة . هذه الطريقة تساعد على كبت قوى الولد ، فتحرمه التعبير السليقي، الذي هو من أكبر مستلزمـات النمو ، في سبيل تحقيق ذات واعية ، نشيطة ، مسؤولة .

التعبير عند الولد هو اكثر من حاجـة بسيطة ... هو افتضاح سر الاشياء ، وامتلاك مباهج الحياة . علينا اذن ان نجعله يمارس اللغة بعفوية كاملة ، لنعينه على ازدهار شخصيته المعنوية . علينا ان نذلل ، دون سن العاشرة ، كل عقبة يصطدم بها الولد. الولد بحاجة الى ان يخرج من جلدته . الى ان يعبر تلقائياً عن مجاريه الطبيعية... عن بواطنه . ولا شيء يلبي هذه الحاجة النفسية كاللغة الام، التي يتناولها الطفل عفو الخاطر من المجتمع المحيط به ، والتي يعطيها عفو الخاطر ايضاً . ومن اللازم في هذه المرحلة ، تعليمه النطق الصحيح ، والتعبير القويم ، والقواعـد اللغوية السليمة . ذلك لأن الولد الذي يتدرب على صحة التعبير ، يتدرب أيضاً على صحة التفكير . التعبير والتفكير جوهر واحد . فاذا اعتاد ، منذ صغره ، سماع اللغة الصافية ، تعلم طرق استخدامها بدون جهد متعب .

قد يتفق للطفل ان يكون من ابوين مختلفي اللسان ، فيأخذ عن كل منهما لسانه الخاص ، وبذلك يصبح ثنائي اللسان (Bilingue) . وقـد يتاح للطفل ان يسمع عدة ألسنة ، يأخذها عن طريق المحاكاة ، بدون الشعور انه يتعلم ، وبذلك يصبح متعددة الألسنة (Polyglotte) . وهو الامر الذي يحدو العائلات الموسرة على اختيار مربيات مختلفات الالسنة ، لاولادها في السن المبكرة ،حتى تنتقل اليهم جميع الألسنة بواسطة المحاكاة . ومن طريف ما يسرد، بهذا الصدد، ان الطفل الذي تنتقل إليـه عدة ألسنة عن طريق المحاكاة ، يتجه نحو كل شخص ويخاطبه بلسانه الخاص ، دون ان يشعر انه يتكلم عدة ألسنة . وقد

روى الاستاذ جيوم Paul Guillaume ، ان طفلا ابوه ألماني ، وامه فرنسية ، كان يخاطب كلا بلسانه . وكثيراً ما طلب منه ابوه بالالمانية ان يبلغ امه امراً من الامور ، فكان يخاطب أمه بالفرنسية ، بدون شعور منه انه يترجم .

هنا ، لا بد لنا من ان نبدي الملاحظة التالية : اذا سلمنا جدلا بأن ثنائيةاللسان او تعداده ، شيء ممكن في السن المبكرة ، فإن بقاء هذا الشيء امر غير ممكن اطلاقاً متى أصبح الولد راشداً . ان حاجيات الطفل ، التي يتاح للتعبير عنها ، لا تتجاوز دائرتها المدى القريب . هذه الحاجيات قليلة جداً ، وهي لا تتعدى بعض الرغبات الجسمية . ولذا لا يصعب على الولد ان يعبر عنها في اكثر من لسان واحد . تحصل الصعوبة ، عندما يصبح الطفل راشداً ، ويسمو في اجواء الفكر المتعالي ، ويصير بحاجة الى البلاغة والبيان ، كي تتفجر معانيه بقوة مقنعة لا تعاكس . حينئذ يعود التفوق في التعبير الى لغة واحدة ... الى تلك التي يعبر فيها المجتمع المحيط به . اما اللغات الباقية فتتضاءل ، وتتقلص دائرتها.

لقد وعت كل الامم الراقية هذه الحقيقة النفسية ، والتربوية ، فلم تسمح دون العاشرة بتسرب لغة اجنبية الى قلوب الاولاد . في هذه المرحلة يجب ترسيخ الطالب في مجتمعه ... يجب تسهيل ازدهار الحياةبين جنبيه .ان عوده رخص، ينبغي مسه برفق ودراية . متى قويت ، عنده ، ملكة التجريد ... واصبح قادراً على ان يفصل بالذهن بين الاسم والمسمى ... حينذاك تبدأ المرحلة الثانية ، في التدريب اللغوي ، نعني اشرافه على لغات اجنبية . ذلك لأن تعلم هذه يختلف عن تعلم تلك . طريقة اللغة ـ الام شيء ، وطريقة اللغة الاجنبية شيء آخر . على الولد ان يتقن اولا لغته ـ الام اتقاناً نسبياً ، بطبيعة الحال ، لتصبح له متكئاً يستند اليه في تعلمه اللغة الاجنبية .

* * *

جاء في كتاب اميل ، لجان جاك روسو ، ما فحواه : ستدهشون من عدّي

درس اللغات بين اباطيل التربية . ولكن تذكروا انني لا اتكلم هنا عن غير دروس الدور الاول من العمر . ومهما يكن من امر ، فانني لا اعتقد انه هناك ولداً استطاع ان يتعلم لغتين ، حقاً ، قبل بلوغه الثانية عشرة او الخامسة عشرة من سنيه ، ما لم يكن من النوابغ .

اوافق ان درس اللغات يلائم الاولاد ، اذا كان درس الكلمات فقط ،اي درس الرموز والاصوات التي تعبّر عنها . ولكن اذا تغيرت الرموز ، في اللغات ، تعدلت الافكار التي يعبر عنها . ولنذكر ان الاذهان تتألف من اللغات ، وان الافكار تتخذ صبغة اللهجات . العقل وحده مشترك بين الجميع . اما الروح فلها في كل لغة شكل خاص . هذا الفارق ، في الشكل ، قد يكون علة الاخلاق القومية ... او معلولها من بعض الوجوه . والذي يلوح مؤيداً لهذا الرأي هو ان اللغة ، لدى جميع الامم ، تتبع تقلبات الطبائع . تبقى او تتغير مثلها .

والاستعمال يمنح الولد احد تلك الاشكال المختلفة . هذا الشكل وحده هو الذي يحافظ عليه حتى سن الرشد. ويجب ، كي يكون لديه شكلان ، ان يتمكن من المقابلة بين الافكار . وكيف يتمكن من مقابلة ، كهذه ، وهو يكاد لا يكون في حال يدركها به ؟ قد يكون عنده لكل شيء الف اشارة مختلفة . ولكن لا يكون لكل فكر سوى شكل واحد . هو لا يستطيع ان يتعلم ، اذن، غير لغة واحدة .

مع ذلك ، لقد قيل لي بانه يتعلم عدة لغات . انا انكر هذا . وقد رأيت من هؤلاء الصغار البارزين من يعتقدون انهم يتكلمون خمس لغات ، او ست . وقد سمعتهم يتكلمون الالمانية ، تعاقباً ، بالفاظ لاتينية . والفاظ فرنسية ؛ والفاظ ايطالية . وكانوا يستعملون من المعاجم ، في الحقيقة ، ما يترجح بين الخمسة والستة . ولكنهم لا يتكلمون بغير الالمانية دائماً . والخلاصة انكم اذا اعطيتم الاولاد مترادفات كثيرة ، كما تودون ، غيرتم الالفاظ لا اللغة .

وهم لن يعرفوا غير واحدة [1] .

* * *

سؤال .
يتعلم احدنا ، عدة سنوات ، لغة من اللغات القديمة دون ان يتفوق فيها .
ما هو يا ترى ، سبب هذا الاخفاق ؟ سبب الاخفاق كائن في ان المجتمع ، الذي يزاول تلك اللغة ، قد غاب عن مسرح الوجود . ولا اتقان لغة الا في نطاق مجتمع يتكلمها ... في مجتمعها . ولهذا يقف محصول الطالب لها عند حد الجانب القاموسي . يشرح قواعدها اللغوية من نحو وصرف ... يحفظ شواذاتها ... يفسر معاني الفاظها ... وبكلمة انه يحلل جوانبها الشكلية المنطقية . وهي كلها محاولات تشريحية لجثة لا حياة فيها . ان العنصر الهام في اكتساب اللغة ، والتحكم بها ، هو مزاولتها . ولا مزاولة الا في المجتمع الخاص بها . اجل ، ان اللغة مهارة يجب ان تزاول وجودياً . اللغة ليست اضبارة تجمع فيها القواعد . فمن العبث ، اذن ، ان نطلب التفوق في لغة من اللغات القديمة ، زال مجتمعها من الوجود .

من هنا نرى كيف تطور تعليم اللغات الحية . لقد كانت الطريقة المتبعة ، في الماضي ، هي ذاتها طريقة تعلم اللغات القديمة . يكتفي المعلم بتلقين القواعد ، فيظن الطالب ان استيعاب هذه الشكليات المنطقية، يؤدي به الى الغاية المنشودة. على حين ان اتقان تلك النواحي القاموسية ، لا يكسب المهارة اللغوية اللازمة. ان مهارة اللغة مران وتدريب في المجتمع ، الذي يزاولها . ولذا كانت انجع الطرق ، عند الذي يريد اتقان لغة من اللغات الحية ، ان ينتقل الى مجتمع هذه اللغة. السر في ذلك انه يربط اللغة الاجنبية ، بالخبرة المباشرة. بهذا الترابط يبني الانسان فيه عادات لغوية .

بهذا الاستعمال المتواصل يتعلم الانسان اللغة الاجنبية، كما يتعلم الولد لغته-الام، بطريقة

---

١) اميل . تاليف جان جاك روسو . ترجمة عادل زعيتر . الفصل الثاني .

عفوية . هذا الولد لا يفكر في «الابريق» ، قبل ان يلفظ اسمه . حالما يراه ينطق اسمه دفعة . احس بالعطش، فاندفع نحوه ، في جو مشبع باسمه . الجميع من حوله يلفظون كلمة « ابريق » .والمجتمع، في الخارج، يلفظ كلمة «ابريق». لا حاجة له ان يفصل الأسم عن المسمى . تأتي العبارة ، ههنا ، امتداداً طبيعياً للاحساس بالشيء . وهكذا يتضح لنا التساند، الذي يقوم بين العين والأذن . لا فاصل بينهما اطلاقاً . يمر الولد في الشارع ... يرى كلمة « شارع » ... يقرأها على الحائط . يسمعها في البيت . يلفظها مراراً في الاحاديث مع اترابه ، حين يشعر بالحاجة اليها . هنا يتعاضد الفكر والعمل ، فتدخل كلمة « شارع » الى قلب الولد بدون استئذان . لهذا لا يلاقي ، في السنوات الاول من عمره ، تعباً يذكر في تعلم لغته القومية . ذلك لانه يسمعها في محيطه : يعيشها كما ينطقها الجميع من حوله ... كما تحدث الأثر المباشر في اعصابه .

تصور معي هذا الولد يتعلم اللغة الافرنسية ، في لبنان، حيث تزاول العربية كلغة قومية . تصوره معي ، في هـــذا الجو العربي اللسان ، يتعلم كلمة « Rue » . هنـــا لا تأتي العبارة عفوية ، بدون استئذان ، لان الكلمة لا تتجاوب مع الاحساس ... مع المناخ العام . هو لا يرى إلا كلمة «شارع» بالعربية . لا يقرأها الا بالعربية . لا يتحدث عنها إلا بالعربية . هو يعيش هذا الشيء ، في جو عربي اللسان . ويريد مع ذلك ان يتعلم كلمة «Rue» . في مثل هذا الظرف يقوم الطلاق بين الفكر والقول ... بين الذهن والعمل : هنا ينشط العقل ، وحده ، دون ما عضد من الحس. تنشط الحافظة ، وحدها ، دون ما نجدة من الواقع . ان درس اللغة الفرنسية ، خارج المناخ الافرنسي ، عمل لا ترتبط فيه الخبرة باللغة . انه عمل الذهن المجرد .

• • •

من هنا صرخة جلسون ، عندما قال بان الولد الكندي ، ذا اللسان الفرنسي

ـ اذا كان يريد ان يحافظ على تراثه الفرنسي في بيئة انجليزية ـ يجب عليه ان يحيط نفسه بمواطنين افرنسيين . ذلك ليخلق حوله المناخ الافرنسي اللازم ، الذي يقيم الترابط المباشر بين الاشياء واسمائها الافرنسية . وقد صرخ عالياً ، جلسون ذاته ، بعد ثلاثة اشهر من البقاء في بيئة انجليزية ... صرخ قائلا : لقد تسرب الزغل الى لغتي القومية . يبين لنا الآن الخطأ التربوي ، الذي نرتكبه ، عندما ننيخ الاولاد باكراً لتعلم اللغات الاجنبية ... لا سيما الميتة . هــذا الولد ، الرخص العود ، يعيش في اطاره القومي . لم تنشط فيه بعد ملكة التجريد ... ملكة التصور . ما زال على صعيد العفوية ، حيث يتعلم كل شيء بدون استئذان .

ها هو يساق الى تعلم لغة اجنبية . لغة ، لا يعيش ابجديتها ، ولا نبرتها ، ولا صرفها . لغة لا يتحسس منها شيئاً على الاطلاق . هنا يضطر الى عمل تجريدي صرف ، قبــل اوانه . والتجريد نشاط ذهني مرهق ، لا يتناوله إلا كل من قويت ذاكرته . الطريقة المثلى هي ان ينتقل هذا الولد الى البلد ، الذي يتكلم مواطنوه تلك اللغة . لكن ذلك الانتقال يفقده الترابط المباشر مع لغته القومية . من الأفضل ، والحالة هذه ، ان ينتظر كي يتقن لسان قومه ، حتى اذا ما رسخ في قلبه ، تحول بعده الى تعلم اللغات الأجنبية . من هنا الاخفاق في تعلم هذه اللغات ، خارج اطارها القومي .

* * *

نحن الشرقيين اخفقنا هذا الاخفاق ... اخفاق التحكم تماماً بالافرنسية ، او الانجليزية . ذلك لأن الطريقة التي تعلمناها بها عقيمة جداً . هذه الطريقة تبدأ بحفظ القواعد، وتهمل العنصر الدينامي في اللغة . العنصر التدريبي . كم من طالب شرقي درس الفرنسية دراسة تحليلية ، عدة سنوات ، دون ان ينجم عن هذا نجاح ظاهر . يكفي ان ينتقل الواحد منا ، بضعة اشهر ، الى الديار الفرنسية

ليجتاز المسافات . ذلك لانه يقيم بهذا الانتقال ترابطاً مباشراً بين الخبرة واللغة الافرنسية ... اي انه يعيش محرور تلك اللغة بين ظهراني ، الذين يزاولونها كلغة ــ ام لهم . هذه الطريقة المباشرة، هي المتبعة اليوم ، في تعلم اللغات الحية. يبقى ان نقول ما يلي : ان الترابط المباشر ينبغي الا يدوم ، طويلا ، بين الخبرة واللغة الاجنبية . هذا الترابط ، إذا طال امده ، قضى على الترابط المباشر بين الخبرة واللغة ــ الام. حينذاك تنقلب اللغة الأجنبية الى لغة ــ ام ، وتطرد اللغة الام الاولى . ومن هنا صرخة جلسون عندما قال بأن الزغل تسرب ، الى لغته الافرنسية ، بعد مكوثه ثلاثة أشهر في بيئة انجليزية . ان الترابط المباشر لايبقى عفيفاً على صعيد لسانين في آن واحد . ذلك الترابط المباشر له مسلك واحد . إما هذا وإما ذاك. والذي يحصل غالباً ، اذا لم يتدارك الامرَ صاحبُ العلاقة، انه يضيع بين اللغتين . ما يدركه منهما لا يتجاوز الحد الوسط . ولذا يحرص الادباء العبـــاقرة على عفاف لغتهم ــ الام ، بعدم المبالغة في مزاولة اللغات الاجنبية . هم لا يهجرون مجتمعهم . وإذا هجروه احاطوا انفسهم بمواطنين خلص من بيئتهم . سألت مرة احدى السيدات الانجليزية احد الكتبة الافرنسيين الكبار عما اذا كان يتحدث باللغة الانجليزية . اجاب : كلا ، يا سيدتي . وهذا من حسن حظي .

* * *

٤

ومـــا يقال في الفرد ، يقال في المجتمع . لكل شعب لغة قومية واحدة . هذه اللغة هي أقوى مضرب لافكاره ، وعواطفه . هي اوضح مظهر لحقائقه . انها

الدليل ، يوم تدق في اساليبها وتراكيب مفرداتها ، على نزعة الشعب الى مطاردة العلل الأولى . من أوتي بيانها ، كان سيد امره . كان محققاً لكيانه ، مزاولا لقوته ، آخذاً بحقه . ان الشعب الواعي ، الشريف ، العفيف ، يكبر شأن لغته القومية . يحرص عليها كما يحرص على عرضه . متى ذلت هي ، ذل هو . لغة الام ام اللغات التي يتكلمها المواطنون . سميت قومية لان بلاغة الفكر لا تستقيم الا بها، وفصاحة اللسان لا تقوم الا عليها . اذن علاقة الشعب بلغته القومية هي اكثر من شكل قاموسي .

* * *

علة ذلك ان الشعب ، الذي يتمادى في معرفته للغـــات الاجنبية ، يدرك روح اجداد هذه اللغات ، دون ارادة منه . وهو سبب للغموض ، الذي يطفو على انشائه . وسبب للعبودية ، ايضاً ، ولكن بشكل ثقافة. واحد من اثنين: إما ان يُحكِم الشعب لغة اجنبية ، إذ ذاك تحتل مركز الصدارة ، وتصير بدورها اللغة القومية . حينئذ تلغى امومة اللغة الاولى ، لتصبح لغة تابعة . ومتى تأجنبت اللغة ، تأجنب الفكر حتماً ، إذ لا فرق جوهراً بين عقل ونطق . ومتى تأجنب الفكر تأجنب الشعور القومي. لا يمكن للانسان ان يُحكم لغة ما ، فتنقلب لغته الام، بدون ان تميل كل جوارحه النفسية نحو الشعب ، الذي يتكلم هذه اللغة. واما ان يحافظ الانسان على عفاف لغته ـ الام الاولى ، ويزاول اللغات الاجنبية بسياسة واعتدال ، كي لا يرفع التكليف معها ، إذ ذاك تتطاول على اللغة القومية وتقوم القيامة فيما بينها . لا مفر من نافذة واحدة ، لا غير ، للاطلال على مروج المطلق الشامل .

* * *

لا عجب ان يعتبر علماء الاجتماع فرض لغة اجنبية ، على شعب من الشعوب ،

جريمة خلقية . اكثر من ذلك، تفسيخاً لانسانية الانسان الكاملة . اللغة القومية هي الكفيلة وحدها ان تسمو بالفكر الى درجة العبقرية الخالـــدة . انه الذي يتنازل عنها يتنازل عن جوهره . والتربية الصحيحة لا تتساهل ، مطلقاً ، في هذا المجال . بل تسهر بحذر على ان تتبوأ اللغةُ القوميةُ مركزاً يليق بها . هذا المركز اللائق هو الاول في سلسلة المراكز .

قد يكون في تعدد الالسنة ثقافة اوسع . ولكنها ثقافـــة فوّاشة . كلما زادت الطفاوة، تلاشى الغوص على الاعماق . لا أمة واعية بدون لغة قومية واحدة.

يقول ابراهيم اليازجي :

اللغة هي الامة بعينها ، فكما تشخص تاريخها، وعلومها ، وعاداتها ، فانها تشخص الامة بنفسها، وبها يشار اليها ، ويدل عليها . ذلك فضلا عن انها هي مجمع الفتهـــا ، والوصلة الحسية بين آحادها ، وجاعاتها . هي علة الضم الحقيقية بينها ، والجامعة الوطنية ، التي بها يستتب معنى المدنية ... هي الفصل الفارق بين امـــة وامة ، وعليها مدار الوحدة الوطنية ، وصيانة المصلحة الامية . ١

* * *

الامة الواعية ذات لسان قومي واحد . متى تأجنب لسانها طردت من امامية القافلة . ثم ان اللغة القومية لا تكون لغة فئة دون فئة ... لغة طبقة دون طبقة . اللغة القومية هي لغة الامة كلها . لغة الجميع على السواء . أن الذي يختلف ، في اللغة القومية ، بين هذا الانسان وذاك ... بين هذه الطبقة وتلك ... هو الانشاء . هو طريقة استعمال الكلمات ، وتركيب الجمل : هو الديباجة ، التي تعكس مزاج الانسان ، وعقليته . ولذا قيل بان الانشاء هو الانسان ذاته . تلك الاختلافات الديباجية تظل ضمن هالة واحدة من اللغة . أما أن ُيتخطى هذا الاختلاف من الفرع الى الجذر ، اي ان تتكلم الطبقة اللبنانية المثقفة اللغة الفرنسية (نعطي ذلك على سبيل المثل) وتتكلم الطبقة

---

١) راجع روائع لؤاد افرام البستاني

اللبنانية غير المثقفة اللغة العربية ، فانه يعطل القومية تعطيلا كاملا . هذه الازدواجية في اللسان ، تضعف الشعور القومي ، ويصبح الشعب في دركات الانحلال المعنوي . هذا الشعب هو في حكم الانهيار . هذا الشعب يبقى صعلوكاً بين العمالقة .

• • •

من اهم خصائص اللغة القومية ان تخدم المجتمع كله ... ان تخدم جميع المواطنين ... ان تكون اداة تفاهم بين الطبقات كلها . يكفي ان تنحصراللغة في جماعة دون جماعة ، اي ان تصبح لغة طبقة معينة من الشعب ، لتفقد صفة القومية . ان لغة تمارسها طبقة واحدة ، بمعزل عن الطبقات الاخرى ، ليست بلغة قومية . انها مدعوة الى الزوال . مثل اللغة القومية للمجتمع مثل اللغة ـ الام للفرد . هذه اللغة تتناول العقل والقلب معاً . تتناول كلية الانسان . ولذلك لا تجزأ . لا يمكن تجزءتها . انها صاحبة الصدارة .

والمقصود بالصدارة ، هنا ، اعطاؤها الاولوية في كل ميادين الفكر . في كل النشاطات الاجتماعية . الصدارة لا تتناول ناحية دون ناحية . اللغة القومية وقف على الشعب ، في جميع نواحي وجوده القومي . في الصناعة ، والزراعة، والتجارة ، والسياسة ، والفلسفة ، والطب ، والمحاماة ... الى ما هنالك من ضروب في العلوم الانسانية المختلفة .

• • •

اجل ، الامة الراقية لا تكون لغتها راقية ، في ناحية دون ناحية . لا تكون لغتها راقية جزئياً ، كأن تكون لغة الادب ، والشعر ، والدين ، ولا تكون لغة باقي العلوم . الامة الراقية لا ترضى للغتها الا الارتقاء العام ، الذي هو اضمن صك لمناعة بقائها ، واصلح طريقة لجعلها قوّامة على سواها ، تحت

سقف بيتها . اما اللغة التي لا تعبر الا عن بعض احوال الامة (كأن تكون لغة القلب ، ولا تكون لغة العقل) فهي لغة عوراء ، تظل عرضة للزوال ، عندما تجابه لغة ثانية من الخارج . اللغة ـ الام تتناول متكلميها ، في جميع احوالهم العقلية ، والقلبية . هي لا تقبل ضرة ، في عقر دارها . هذه هي اللغة المرفوعة الشأن ، وهذه هي الامة العزيزة الجانب . اللغة القومية والامة القوية شرطان متلازمان . الاولى اصدق الصور عن الثانية ، واضبط المقاييس لها . تزدهر بازدهار الامة ، وترتقي بارتقائها ، وتلاحقها في كل مظاهرها الاجتماعية ، حتى اذا ما انحدرت الامة ، انحدرت اللغة معها .

* * *

اللغة هي الانسان . والانسان هو الانسان المجتمعي . والمجتمع هو اكثر من احتكاك برّاني بين هذا وذاك . هو الطبيعة الخارجية ايضاً . وهو صراع الانسان مع الطبيعة . وهو مدى التاريخ الطويل في الماضي . وهو الشعور بوجود القيم ذاتها في الحياة . ومن هنا نرى ان مهمة اللغة لا تقف عند حد نقل الافكار للآخرين . اللغة القومية تحمل كل هذا ، في آن واحد : الانسان ، الطبيعة ، التاريخ ، الرؤية المشتركة . فلغة افرنسية في مجتمع لبناني ، عربي اللسان ، لن تصبح لغة قومية ، ما دامت لا تعكس تلك العناصر الهامة . اللغة القومية لا تضاف من الخارج اضافة سكونية . من ابتغى التحكم باللغة الافرنسية ، مثلا ، كان عليه ان يذهب الى بلاد الفرنسيس ، ويعيش بين ظهرانيهم ، لتصير الفرنسية من صلبه . ليدرك هو نقاء عفافها المستمد من الانسان الفرنسي ، والطبيعة الفرنسية ، والتاريخ الفرنسي ، والرؤية الفرنسية . الانسان ، جسماً ونفساً ، له اثره في تكوين اللغة القومية . الطبيعة الخارجية لها اثرها في تكوين اللغة القومية . التاريخ له اثره في تكوين اللغة القومية : الرؤية المشتركة لها اثرها في تكوين اللغة القومية . هذا اذا فهمنا اللغة فهماً

ديناميا . اما ان نكتفي بتحديدها وسيلة للتخاطب ، بمعناه السطحي ، فاية لغة تستطيع ان تعبر عن اية حاجة يومية .

* * *

من الواضح ان الامة الواعية،هي المنسجمة طبقاتها ، في بوتقة واحدة . هي التي تدور طبقاتهافي فلك واحد. هذا الفلك وليد ذهنية واحدة .عقلية واحدة- عبقرية واحدة . روح واحدة . فاذا كان لكل طبقة لغة ، انعدم الانسجام ، وقامت الشقوق في صرح الامة . اللغة حياة . والانسان لا يستطيع ان يتكلم لغة ما ، دون ان يميل بعض الميل نحو شعبها . دون ان يتلبس عبقريتها بعض التلبس . فاذا كانت الطبقة المثقفة تتكلم لغة ما ، والطبقة غير المثقفة تتكلم لغة اخرى ، دب التفسخ في بيت الامة .
لا عجب ، والحالة هذه ، ان نرى الشعوب الحاكمة تسارع الى فرض لغتهاعلى الشعوب المحكومة . انها طريقة لاضعاف روح الامة . لتخليع قواها . للقضاء على عفافها القومي . عندما يزاول الشعب لغتي – ام ، او اكثر ، يتهافت حيله مع الزمان . يقوم الصراع بين الطبقات ، لعدم الانسجام في الرؤية ، كما يقوم الصراع في قرارة الانسان ذي اللسانين .لهذا نرى الشعب الكامل، الواعي، يحرص تمام الحرص على ان لا تمارس طبقاته عدة لغات مختلفة .

* * *

عندما تتلاقى لغتان تحت سقف واحد ، اي على لسان شعب واحد ، لا يبقى هذا التلاقي بارداً . بل تلتحم اللغتان في معركة حامية الوطيس . ماذا يحصل بعد ذلك ؟ تطغي لغة المستعمِر على لغة المستعمَر ، او تتساويان ، حتى اذا ما اشتد وعي الامة المستعمَرة ، وانتفضت في سبيل حريتها ،عادت لغة المستعمَر القومية الى سالف مجدها ، وطردت لغة المستعمِر ، وإلا كانت الغلبة لهذه .

ولا يطول التساوي ، بين اللغتين ، الأفي الشعوب الصغيرة . ان امة قوية الساعد لا ترضى الا لغتها القومية لغة — ام لها .

ان الاستعمار اللغوي لا يزول ما لم يترك اثراً في اللغتين معاً . ذلك لان اللغات كائنات حية . تتلاقح فيما بينها . ان لغة المستعمِر تكتسب مفردات ، لم تكن فيها ، قبل الاحتكاك . ولغة المستعمَر تكتسب ، هي ايضاً ، مفردات لم تكن فيها ، قبل الاحتكاك . ويتطور الانشاء : ولكن هذا التغيير لا يمس قوام اللغتين . الفرنسية تظل فرنسية . والعربية تظل عربية .

* * *

الى الذين يعترضون ، بأن الازدواجية قائمة بين العامية والفصحى ، نقول ان كلمة ازدواجية غير موفقة ههنا . لا ازدواجية بين عامية وفصحى ، لأنهما فصيلتان من لغة واحدة . وكل لغة بشرية تنقسم الى عامية وفصحى . ان الفارق بينهما فارق فرعي ، لا جذري .

الازدواجية الحقة هي التي تقوم بين لغتين مختلفتي الروح ، والعبقرية . بين الفرنسية والعربية . بين الالمانية والتركية . بين الصينية والروسية . اما ان يتكلم المواطن الانجليزي لغة انجليزية عامية، او ان يكتب لغة انجليزية فصيحة ،فهذا لا يعد ازدواجية . انه ظاهرة طبيعية من مظاهر قوام اللغة ، وتطورها خلال التاريخ .

يظن بعض اللغويين ان هذه الظاهرة وليدة الاجيال . اي ان الانسان كان يتكلم الفصحى ، بادىء بدء ، ثم تدهور لسانه نحو العامية . ويظن البعض الآخر ان العامية هي الحالة اللغوية المثلى ، التي يسير نحوها الانسان . المهم ان هؤلاء واولئك يرون في العامية والفصحى، معاً، ظاهرتين غريبتين . اذن يجب ارجاع العامية الى فصحى ، او تحويل الفصحى الى عامية .

الواقع ان لا شيء ، من وثائق التاريخ ، يثبت ما يدعون . منذ ان سوي

الانسان انساناً ، وهو يمارس هذين الاسلوبين . والشعور القومي ذاته يفرض وجود نمط عامي ، ونمط فصيح . اذ لا يعقل ان يعيش المجتمع بدون حياة طبقية . والطبقية تستلزم التنوع . ليس في هذا انتقاص للحياة القومية . انما الانتقاص هو في ان يزاول الشعب لغتين مختلفتين كل الاختلاف .

* * *

جاء في كتاب « علم الاجتماع » لجرجي زيدان ما يلي :

اللغات المختلفة في مملكة واحدة انما هي حواجز منيعة ضد الاحتكاك العقلي ،وتدفق الافكار والعادات من عنصر الى عنصر . فهي مانعة من الالتئام في وحدة قومية واحدة . يمكنك ان تجمع جماعات عديدة تحت راية حكم واحد ، ولكنك لا تقدر ان تجمعها في قومية واحدة ، اذا كانت متعددة اللغات ، ما لم تعمم فيها لغة واحدة .

ان تعميم اللغة ضرورية لتغليب القومية على العنصرية . ذلك كان سبب مصاب تركيا في عجزها عن توحيد عناصرها في قومية واحدة . ان ما بين التركي ، والعربي ، واليوناني ، والارمني ، والسلافي ، من التباين بقدر ما بين لغاتهم منه ، فكيف يمكن انشاء قومية عثمانية ؟ ان هذا التباين قديم جداً ، والتقاليد بين هذه العناصر متباينة جداً ، فهيهات اتحادها في قومية واحدة ، بل يستحيل ما دامت حواجز اللغات المنيعة تفرق بينها [١] .

* * *

ان الذي يستعرض حياة الشعوب القوية ، اي العزيزة الجانب مادةً وروحاً ، يرى بوضوح ما بعده وضوح ان حرصها على اللغة القومية هو من اهم ركائز الوعي الوطني . ذلك لأن هذا الوعي لا يقوم اذا ما قام التفاهم بين مختلف الفئات . والمقصود بالتفاهم ، ههنا ، اكثر من فهم بارد للافكار . هو مشاركة باطنية في الرؤية للقيم العالية . هذا التفاهم لا يتم بمعزل عن اللغة القوميـــة .

اللغة القومية هي وحدها التي تجعل المواطنين يجمعون على الرؤية . واللغة

١) راجع الكتاب الاول ، حياة الهيئة الاجتماعية . ص ١٦٩ .

المعينة ، في هذا المجال ، ليست مجموعة من الأصطلاحات . ليست قبضة من القواعد الصرفية ، والنحوية . هذا فهم مقرز للغة . اللغة اكثر من ذلك . هي الاختبار الباطني العميق ، الذي يعيشه الانسان ، ويقاد بمنطق الحياة الى التعبير عنه . اللغة حالة صوفية .

هذه الحالة ، متى كانت صادقة ، يتفجر التعبير عنها من الحساسية . العقل وحده لا يكفي . وهي تتطلب البيان الجميل ، والبلاغة المحكمة ، والفصاحة المزازة . الحساسية ، عندما تصفو ، لا تخرج غير كاملة . هي الحياة ، والحياة منبع الجمال . القضية ، اذن ، تتجاوز رصف الالفاظ ، جنباً الى جنب ، بشكل صحيح من حيث القواعد .

القضية انطولوجيةالنفس. القضية قضية حساسية . واللغةهي ذاتها تلك الحساسية في انفجار. تخرج من اللاواعية في الانسان، كما تخرج من اللاواعية في الشعب ، حاملة كل الشحنات المتوهجة . هذه اللاواعية لا تعترف بغير اللسان القومي: اما اذا انبخت للغة اجنبية ، لا تخرج الا من العقل ، فان الحساسية اللاواعية تكبت . اذ ذاك ترفع ستار من حديد بين فئات الشعب ، مما يجعل التفاهم الاصيل من ربع المستحيل . وهو الامر الذي يخرب معنويات الامة . من الادلة التي يقدمونها عادة ، في سبيل دحض هذه النظرية ، بعض البلدان التي تتكلم عدة السن . نذكر منها سويسرا على سبيل المثال .

سويسرا دولة صغيرة تزاول نظام الاتحادية . وقد تنوعت لغاتها الى المانية ، وافرنسية ، وايطالية . منهم من يتكلم الاولى كلغة ام لهم ، ومنهم من يتكلم الثانية كلغة ام ، ومنهم من يتكلم الثالثة كلغة ام. من الطبيعي، والحالة هذه، ان تكون سويسرا قد انقسمت الى قوميات ثلاث: المانية، وفرنسية، وإيطالية .الواقع ان تلك القوميات الثلاث موجودة في سويسرا. ونظريتنا مافتئت صحيحة لاشائبة عليها. ان السويسري في المنطقة الالمانية ، لا يتكلم سوى الالمانية كلغة – ام له . اما الفرنسية ، والايطالية، فهما لغتان مساعدتان . اي انهما في الدرجة الثانية . حتى

الصدارة للالمانية فقط . والسويسري ، في المنطقة الفرنسية ، لا يتكلم سوى الفرنسية كلغة ــ ام له. اما الالمانية ؛ والايطالية،فهما لغتان مساعدتان، اي انهما تأتيـان في الدرجة الثانية . حق الصدارة للافرنسية فقط . وهكذا قل عن الايطالية،في المنطقة الايطالية ، حيث لا يتكلم السويسريون سوى الايطالية كلغة ام لهم .

اذن لا تعدد السنة ، بمعنى اللغات ـ الام، عند السويسري ذاته . ان السويسري لا يتكلم هذه اللغات بالقدرة عينها ، لأن المناخ الاجتماعي يختلف من منطقة الى منطقة . والدليل الى ذلك ان السويسري الالماني لا ينتج الا في الالمانية.. والسويسري الفرنسي لا ينتج الا في الفرنسية ... والسويسري الايطالي لا ينتج الا في الايطالية . وقد برزت نتائج تلك اللغات ــ الام ، من الوجهة النفسية الاجتماعية ، في قلب كل سويسري، من هذه المقاطعات الثلاث . ان السويسري الالماني يميل بكل جوارحه الى الامة الالمانية . والسويسري الفرنسي يميل بكل جوارحه الى الامة الفرنسية . والسويسري الايطالي يميل بكل جوارحه الى الامة الايطالية .

يبقى السؤال التالي : لماذا ظلت سويسرا دولة واحدة ؟ لماذا لم تنقسم الى ثلاث دول ؟ لننظر ، اولا ، الى نوع الحكم في سويسرا . من المعلوم ان سويسرا دولة فدرالية مرنة كل المرونة . تتألف هذه الدولة من خمس وعشرين مقاطعة: لكل مقاطعة دستور خاص ، يضعها مجلسها التمثيلي . وهي تتولى شؤونها ، وقوانينها ، وفق منطوق الدستور ، دون ان يتدخل في امورها احد مـــن الخارج . نستطيع القول بان كل مقاطعة هي حكومة مستقلة في حد ذاتها : اما السياسة الخارجية ، والدفاع الوطني ، وبعض القضايا المتعلقة بالمواصلات، فهي من صلاحيات الاتحاد السويسري . على هذا الاتحاد ترتسم علامة استفهام [1].

---

١) راجع كتاب ساطع الحصري « دفـــاع عن العروبة » ص ١٨٢ – ١٨٧ بيروت شباط ١٩٥٦ .

هنا يجب القول بان مشيئة الدول الكبرى المجاورة ، هي التي ارادت هذا الاتحاد السويسري . لقد ضمنته بمواثيق دولية ، ولم تقدم على الاخلال بها دولة واحدة ، من هذه الدول الثلاث الكبرى . اذن لا يعود اتحادها الى معطيات حياتية من ضمنها ، بقدر ما يعود الى اتفاق الدول الثلاث الكبرى ، فيما بينها، على ان بقاء سويسرا دولة محايدة انفع لمصالح تلك الدول المذكورة عينها :
لذا نرى ان وضع سويسرا هو شاذ ، بكل معنى الكلمة ، لا يشبهه في العالم كله وضع آخر .

هذه القومية المتعددة الالسنة تظل عرضة للتهافت . هي قومية مصطنعة ، لا تمتشق وحدتها من باطنها . هذه امة مركبة بطريقة فسيفسائية ... اي باسلوب مخلع . ولن تصبح امة منيعة الا يوم تعم فيها لغة ـ ام واحدة ، تصهر انقساماتها في ذهنية واحدة . ولهذا تعتبر الدولة السويسرية من الدول الصغيرة في العالم . ومن هنا قول سعاده :

> فهذه سويسرا ، يطلق عليها كل ما يطلق على الامة الا وحدة اللغة ، ولكنها بدون لغة واحدة تظل ضعيفة الوحدة الروحية ، قابلة للتفسخ بعامل التأثيرات الثقافية التي تمتد اليها بواسطة لغاتها المتعددة المتصلة وراء الحدود بامم عظيمة ذات مراكز ثقل ضخمة وجاذبيات قوية ١ .

هذا عدا عن القول بأن المانية سويسرا قد أخذت تبتعد عن اصلها ، لتتلبس قالباً خاصاً بهـا . ان ألمانية سويسرا توشك ان تصبح لهجة متميزة عن المانية الالمان . وهكذا قل عن افرنسية سويسرا ، وايطاليتها ايضاً .

قد لا تنفرد الامة بلغتها ـ الام . ولكن من الواجب عليها ان تتكلم لغة ـ ام واحدة . المقصود بالواحدة هنا ليس التفرد بالنسبة الى الامم الاخرى . وانما التفرد بلغة ـ ام واحدة بالنسبة الى طبقـات الامة ذاتها . المهم ان لا يزاول الشعب عدة لغات ـ ام . لغة ـ ام واحدة توحد ذهنية الصفوف ، وتجعلها

---

١) راجع آخر نشوء الامم

متراصة الاجزاء ، في وجه الاعاصير . واذا شاركت امة أخرى ، في لغتها الام ، خلقت هذه المشاركة بينهما تعاطفاً يجعل الفدرالية ممكنة ، كما هو الحال في الولايات المتحدة الاميركية .

• • •

هذا مع القول بأن المشاركة اللغوية ، بين بلدين ، لا تكون تامة مئة بالمئة. ان انجليزية الولايات المتحدة بدأت تختلف عن انجليزية بريطانيا في كثير من الكلمات ، واساليب النطق . حتى ان الانجليز ليسخرون من اللهجة الاميركية ، كما يسخر الاميركان انفسهم من اللهجة الانجليزية . مفاد ذلك ان الشعوب قلما تتشابه في لغاتها — الام . لكل شعب لغة — ام واحدة خاصة به. ويرجع ذلك الى عدة عوامل هامة نذكر منها :

(١) العامل الاجتماعي السياسي ، الذي يعود الى استقلال البلاد ، والذي يوجه اللغة في مجرى خاص بهذا الاستقلال . (٢) العامل الاجتماعي النفسي الذي يعود الى التقاليد ، والعادات ، والثقافة ، والتفكير ، والذي يوجه اللغة في مجرى خاص بنفسية المجتمع .(٣) العامل الجغرافي ، الذي يعود الى فروق في الجو ، والى طبيعة البلاد ، من بيئة ، ومناخ ، وبحار ، وجبال ، والذي يوجه اللغة في مجرى خاص بتلك الجغرافيا . (٤) العامل الشعبي ، الذي يعود الى فروق في الاجناس ، والفصائل الانسانية ، والذى يوجه اللغة في مجرى خاص بهذا العامل . (٥) العامل الجسمي (اي الفيزيولوجي) الذي يعود الى فروق في التكوين الطبيعي لاعضاء النطق ، والذي يوجه اللغة في مجرى خاص به .

فمن الصعب ، ان لم يكن من المحال ، مع فروق كهذه ، ان تظل المانيةسويسرا كالمانية ألمانيا .. وانجليزية اميركا كانجليزية الجزر البريطانية . ان تطورالولايات المتحدة يسير بها نحو تكوين لغة مختلفة عن اللغة الانجليزية : وقد بدأ يظهر هذا الاختلاف في التسمية ايضاً . ان لغة الولايات المتحدة لم تعد اللغة الانجليزية ، بل هي اللغة الاميركية . ان استقلال اميركا ، وجغرافيتها ، وسياستها ،

ونفسيتها ، وشعبها ، وفيزيولوجيتها ، لا تسمح لها بأن تكون تابعة في اللغة . حتى التسمية قد أخذت تتراجع . لقد أصبح لاميركا لغة اميركانية .

ولا شك في ان تطور سويسرا سيفضي بها ، بعد المئات من السنين ، الى لغة ام واحدة ، تختلف تماماً عن الالمانية والطليانية والفرنسية . إذ لا يعقل ، متى قوي استقلال سويسرا بمفهومه الاصح ، وصارت دولة منيعة الجانب ، لا يعقل – مع الفروق التي ذكرنا – ان تظل مشطورة ثلاثة اقسام لغوية. هي امام امران: إما ان تتحد اللغات الثلاث ، لتعطي لغة واحدة تكون خلاصتها. وإما ان تتغلب احداها ، فتتسلط على الباقية . ان اللغات لا تبقى مكتوفة اليدين، بعضها تجاه بعض . هي تخضع لنواميس الصراع . فمن المحال ان تظل لغات ثلاث ، جنباً الى جنب ، دون أية حركة صاهرة . ومن المحال ان لا يتفاعل الشعب الاميركي مع لغته ، لتخرج في النهاية لغة تعكس طبعه ومزاجه .

* * *

لا بد لنا من ان نعطي مثلا آخر ، يكون ابرز في خطوطه ، واوضح . ذلك لان الصراع لم يظهر على أشده ، في سويسرا . ان الدول الغربيـــة الكبرى هي ذاتها، التي أرادت هذا الوضع السياسي . أضف الى ذلك ان السويسري الواحد لا يزاول بالواقع إلا لغة – ام واحدة . اللغات البـــاقية لا تفرض عليه فرضاً مزاحماً للسانة الاول . لننتقل الآن الى الالزاس ، حيث تتسايف من اجلهـــا امتان عريقتان : المانيا وفرنسا .

من اجمل ما حُبّر ، في هذا الموضوع ، واصدق ، كتاب فريدريك هوفت الذي حلل بدقة عجيبة نفسية الشعب الالزاسياني . وقد حرص المؤلف ، كل الحرص، على ان يبرز... في أحد فصول الكتاب... المأساة الثقافية، التي يعيشها الشعب الالزاسياني، بسبب الصراع القائم على أرضه بين اللغة الالمانية واللغة الافرنسية . خليق بنا ، في هذا المجال ، ان ننقل فحوى هذا الفصل الممتاز . قال هوفت ما معناه :

الالزاس المانية الشرش ، اي الحساسية ، وهي تعيش منذ ثلاثة اجيال في ظل العقلية الفرنسية . هنا التمزق ... هنا الانقسام ... شعب ذو حساسية المانية ولسان افرنسي . لهذا لم تعط الالزاس ، على الرغم من ان اللغة الافرنسية هي لسان الطبقة المثقفة ، لم تعط كاتباً افرنسياً واحداً من العيار الضخم ... من المستوى الممتاز العالي...من الدرجة الاولى. لقد اعطت المقاطعات الافرنسية،في فرنسا،نوابغ افرنسيين من المقام الرفيع .اعطت الاوفرن (L'Auvergne)بسكال . واعطت الجورا (Le Jura) فكتور هوجو. واعطت البروتان (La Bretagne) شاتوبريـــان . واعطت اللورين (La Loraine) موريس باريس : واعطت البورجون (La Bourgogne) لامرتين . من اعطت الالزاس ؟ لم تعط احــداً .

ما يقصد بالكاتب :ههنا، هو الاديب الخلاق..المبدع...القائد .هو الذي يلخص فيه عبقرية شعبه . ان الاديب الذي تتوافر عنده فقط الشروط القاموسية للغته ، لا يعكس مرآة جيله ... لا يخلد عبقرية شعبه . هذا الاديب لا نعنيه . الاديب الاديب هو الذي يتجاوز ادبه معرفة اللغة صرفاً ونحواً ... هو الذي لا يكتفي بمزاولة القواعد ، والمفردات ، بصورة صحيحة لائقة . ان اللغة في شق قلمه هي اكثر من واسطة .. اكثر من غلاف برّاني ... من قشرة خارجية . هي ذاتها معزوفة الوجدان الباطني . هي نبضة من نبضات الحساسية في الاديب الكبير .

هذا الاديب المطبوع لم تستطع الالزاس ان توجده في الادب الافرنسي : لقد عجزت عن وضعه ، لأن الوحدة مفقودة من لسانها . انفلقت عبقرية الشعب الالزاسياني الى حساسية المانية وعقلية افرنسية . هذا التصدع قضى على عفاف الانسجام الواجب ان يكون بين العقل والقلب . ومن هنا المأساة الثقافية التي تمثل على مسرح الانطولوجية الالزاسيانية . هذه الانطولوجية شقت الى وجودين متنافرين ، فتغبشت طهارتها . ان اللغة الدخيلة لا تخلق

حساسية ملائمة لها . والحساسية هي التي توزع الماوية في الشرايين كلها .
بين الحساسية الافرنسية والحساسية الالزاسيانية فارق عظيم . هذه الحساسية عاطفية الصبغة . فكيف تتفق مع روح لغة ، حساسية شعبها عقلية الصبغة . هناك رومانسية القلب، وهناك كلاسية الفكر . فاذا عبر الالزاسياني ، فانه يعبر بلغة لا تدرك عبقريتها حساسيته . لا تتناول تاريخه ، وطبيعته ، ورؤيته لقيم الوجود . انها مستوردة من الخارج . يقول هوفت بان الجيل الالزاسياني الطالع لا يترك شاردة ، ولا واردة ، تفوته من الادب الافرنسي . انه جد شغوف بمطالعة كل ما ينتجه اهل القلم في فرنسا . يقرأ جيد ، وكلودل ، وسارتر ، بنهم متزايد ... بتذوق رهيف .
وعلى الرغم من كل ذلك ، يقول هوفت ، ليس للالزاس لغة . ليس للالزاس اديب . وهو يقصد باللغة البيان الممتاز ... البلاغة الخلاقة ... الفصاحة المبدعة . لا تطبيق القواعد بصورة قاموسية مضبوطة . ويقصد بالاديب ذلك المفكر العملاق ، الذي يخلق بقلمه المروس تاريخاً لامته ، ويعكس تاريخ امته ... ذلك الذي يكون ادبه اكثر من لغة صحيحة . هذه اللغة المدهشة ،وهذا الاديب الفطحل ، لم تعطهما الالزاس في اللغة الافرنسية ؛ ولن تعرفهما ما دامت عبقريتها منقسمة بين حساسية المانية وذهنية افرنسية .
ان الذين كتبوا بلغة المانية (اي الذين تبنوا الالمانية لغة – ام لهم) كان لهم حظ اوفر من الخلود في تاريخ ادب الامة الالمانية . ذلك لانهم حافظوا على فطرة الحساسية ، التي هي المانية . ولهذا اذا فتحنا تاريخ الادب الالماني ، رأينا عدداً لا يستهان به من الكتبة الالزاسيانيين . اما في الادب الافرنسي فلا ذكر البتة لاسم كاتب الزاسياني واحد . ان اللغة القومية لا تضاف من الخارج الى اللسان ... انها امتشاق صادق من صماصيم الحساسية عينها ... انها الحساسية ذاتها مكلمنة في الفاظ تعكس بامانة محرور العاطفة .
هذه هي المأساة التي تعيشها الالزاس . وقد صورها لنا فريدريك هوفت

بدقة فائقة ، في التحليل ، والتخريج [١] . مما يدل على ان اللغة القومية لا تسلق سلقاً ... لا تطبخ حسب مشيئة القوى المستعمِرة ... لا تفبرك بصورة اصطناعية ... لا تركب تركيباً سكونياً . للغة القومية جذور حنجرية في لسان الشعب . هي تنبثق من حساسية هذا الشعب ، الذي يتكلمها وجودياً ، مثلما تنبثق من ذهنيته . كما في حياة الفرد ، كذلك في حياة الشعوب . الشخصية الكاملة هي في زواج العقل والقلب معاً .

* * *

يبقى ، بعد هذا كله ، ان نجلي امراً خطيراً . ان العصر الذي نعيش فيه ، يوجب على الانسان ان يتعلم عدة السنة . لم يعد بمقدور الانسان ان يعتزل المجتمعات، التي تحيط به . لقد قرّب الحديدُ جميعَ الابعاد . والشعوب تماس، شيئاً فشيئاً ، مما يجبر الانسان على التكلم باكثر من لغته – الام . هذا العمل كبير الفائدة . ذلك لانه يزيل احياناً سبب العدوان ، فيما بين الشعوب ، كما يقرب الافئدة بعضها الى بعض ، ويقيم التفاهم بين العقول . قال برغسون :

ان من يتقن لسان شعب ، ويتعرف الى ادبه ، لا يستطيع ان يكون عدوه اطلاقاً . وهو امر ينبغي الا ننساه ، عندما نطلب من التربية ، ان تمهد السبيل الى التفاهم بين الامم . فاتقان لسان اجنبي باسلوب يجعل من الممكن ان تتشرب روحنا ادب هذا اللسان وحضارته ، هذا الاتقان يستطيع ان يهدم دفعة واحدة سوء الظن ، الذي حاكته الطبيعة ضد الاجنبي عموماً [٢] .

* * *

ان رأي برغسون لصائب . ونحن لا نسمح لذاتنا ان نجهل الفوائد الجمة ،

---

١) راجع كتاب La Psychanalyse de l'Alsace بقلم Frédéric Hoffet فصل le Drame Culturel

٢) راجع كتابه Les Deux Sources de la Morale et de le Religion ص ٣٠٩ Alcan ١٩٣٤ .

التي يجنيها المرء من الاطلاع بدقة على الالسنة الاجنبية . لقد ثبت عندنا ثبوتاً لا يقبل الشك فيه ، ان تعدد الالسنة يزيد ثقافة الانسان ، لانه يفتح شبابيك عدة في النفس ، يطل منها الفكر على آفاق متنوعة الالوان . نضيف الى ذلك ان تعلم الانسان السنة اجنبية يعينه كثيراً على فهم لغته — الام ذاتها بطريقة اصح . فما من احد جلس على مقاعد الجامعات الاجنبية ، ونهل من علومها ، يجرؤ على نكران هذه الفوائد الجمة ، من حيث الفكر والخلق . ان شعباً لا يتكلم السنة اجنبية هو شعب عاجز عن ان يدرك ابعاد لسانه ذاته ادراكاً صحيحاً .

ان الشعوب تسير كلها نحو فكرة الوحدة الانسانية . الانسانية واحدة ، لأن الانسان واحد في الجوهر . ما كان يتغنى به الفيلسوف « كانت » من ايجاد جمعية عامة للامم المتحدة، اصبح في الوقت الحاضر وجوداً واقعياً . لقد صارت السياسة الخارجية ، في الدولة ، هي التي توجه الشؤون الداخلية . ومن هنا الانطلاق ، اليوم ، نحو ما هو ابعد من حدود الوطن . لذا كانت ضرورة الاطلاع على الالسنة الاجنبية .

* * *

ولكن هذا الاطلاع ، على الالسنة الاجنبية ، يجب ان يمارس برفق وحذر . هذا الاطلاع له شرط اساسي يقوم ، اولا وآخراً ، على اعطاء اللغة القومية الاسبقية والسيادة . ذلك لان الالسنة الاجنبية ليست معادلة لها ، من حيث القيمة في الاداء . اللغة القومية هي وحدها التي تبصّرنا بانفسنا . هي وحدها التي تكفل لالمعية الشعب ، واريحيته ، ان تدركا فلك الابداع .

اجل ، ان الانسان قادر ، بل واجب عليه ، ان يسوح في كل السنة الارض ، قراءة وكتابة . ولكن الخلق الممتاز ، في النتاج العالي ، لا يحصل الا في اللغة — الام . بها نتمخض ، وبها نضيع . ذلك لاننا عاجزون عن ان نتبلد غيرها .

هي وحدها القادرة على ان تعبر عما اكتن من الحقائق البعيدة في وجداننا .
هي وحدها التي تجيز لنا ان نبتدع للامة شخصية فكرية جبارة ، عبر الزمن ؟
لذا وجب على كل انسان يحترم ذاته ، وعلى كل شعب يريد استقلاله ، ان
يحتفظ بلغته القومية . وان يفهمها ، ليس فقط فهماً قاموسياً يتناول معطياتها
الشكلية المباشرة ، بل فهماً فلسفياً يتناول معطياتها المعنوية الغائرة في بطـن
تاريخنا ، الذي تكشفه لنا :

* * *

ان الدفاع عن اللغة القومية هو دفاع عن ادق ما في وجدان الامة . هو دفاع
عن التاريخ الذي ينتسب اليه المرء . عن كيانه المجتمعي ، الذي بدونه لا يدرك
الشخصية الكاملة . هو دفاع عن عفاف ذهنية الامة . اما الاعتقاد ان الشعور
بالانسانية الواحدة ، يستلزم الشعور بواجب وجود لغة واحدة ، فهو جهل
لجبلة الانسان . جبلتنا لا تتطور وفق خط افقي مستقيم . هي بنت الحركة
الجدلية ، التي تتراوح بين ضدين متلازمين . ان الذي يطلب السماء ، يطلب
الارض ، والا خسر الاثنين معاً .

* * *

لا نعتقد ان هناك شيئاً ، كاللغة ــ الام ، يعين الانسان على التحكم بسير
الزمان .ان الكلمة ــ الام هي الشهادة الاولى الوحيدة على ان كاتبها من اصناف
الالهة . قد يكتب الانسان ، بدافع من الترف الثقافي ، في لسان غير لغته ـ الام ؟
ولكن الخلود الحق لن يكتب له الا في اللغة ــ الام . وما يقال في الانسان
الفرد ، يقال في الامة ايضاً . ان الامة التي لا تعبر بقوة وابتكار ، في لغة ـ ام
واحدة ، عما تريد ان تكون ، هذه الامة لا تستطيع ان تكون ما تريد . الامة
العظيمة كالشاعر العظيم تحترم لغتها ــ الام ، التي تعبر فيها بانشاء خلاّق عن

كل ما يختلج في لاوعيها : الثقافة العالية هي ، في آخر الأمر ، قضية اسلوب: وهل الاسلوب ، او الانشاء ، الا الانسان عينه ؟ ان حقيقة الانسان تنحصر كلها في الكلمة التي يخرجها . لذا كانت الضرورة القصوى تفرض على الامة الواعية ، كما تفرض على الشاعر الخلاّق ، ان يكون لها اسلوب انشائي خاص بها ، تعبر فيه عن ادق المعاني الفلسفية. هذا الاسلوب الانشائي الخلاّق لا يمكن الحصول عليه الا في اللغة ـ الام .

* * *

لا وجود للغة ـ ام انسانية واحدة ، لكل الشعوب ، تقضي على اللغات القومية جمعاء . لقد راود هذا الحكم الكثيرين من لغويي العصور الماضية ، وفلاسفتها . حسبنا ذكر الفيلسوف الالماني ليبنتز ، واضع علم اللغة الحديث . جاهد هذا الفيلسوف ، ومن قبله ديكارت ، في سبيل ايجاد لغة واحدة لجميع الشعوب . كان همها ان يريحا البشر من تعدد اللغات ، الذي يسبب (في نظرهما) سوء التفاهم بين الامم .

هؤلاء المثاليون، او الجوهريون، يجهلون الحركة الجدلية المركوزة في صلب كياننا: ان الانسانية الواحدة، التي تغنوا بها ، هي فكرة خاوية خالية . على من يريدها، ارادةً واعيةً، ان يزاوج بينها وبين القومية . ومن هنا فشل جميع المحاولات ، في سبيل انشاء لغة دولية ، تقوم مقام الالسنة . ان استقلال الشعب يقضي بأن تكون لغته ـ الام سائدة بالتمام. لهذا كانت الشعوب الحاكمة تسارع الى القضاء على لغات الشعوب المحكومة . متى تناول الحاكمُ المحكومَ من لسانه ، تناوله من فكره ايضاً ، فكان التغلب عليه .

* * *

٥

لا بد لنا من ان نمثل ، في هذا المجال . ولا نجد مثالا على ذلك اروع من محاكمة انطون سعاده ، التي جرت بتاريخ ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٦ ، على اثر اتهامه بانشاء حزب سياسي . قبض عليه ، يومذاك ، وسيق الى المحاكمة . هنا ، نسرد الحادثة كما وردت بالحرف الواحد ، في « النظام الجديد » . المكان المحكمة المختلطة برئاسة الفرنسي روسيه . قال النظام :

:.. ورفع الرئيس رأسه عن الاوراق ، وقد امسك بيده بعضها ، ونادى : **انطوان سعاده** ... فلم يجب احد . فكرر المناداة : **انطوان سعاده** ... فلم يكن جواب ... وصار الناس يتلفتون ويتساءلون .. والذين كانوا يعرفون سعاده صاروا يوجهون اليه نظراً فاحصاً او حائراً ... والتفت المحاميان فرنجيه وأبي شهلا الى سعاده وقالا له : **الرئيس يناديك** ... فأجابهما سعاده بهدوء : **لم أسمع الرئيس يذكر اسمي** ... ولاحظ الرئيس حديث المحامين مع سعاده ، فسأل مستوضحاً ، فأجابه أبي شهلا : **انه حاضر** ، ولكنه لا يجيب لانه يقول انه **لم يناد باسمه** .. فسأل الرئيس : **ما اسمه ؟** فقال سعاده للمحامي ليبلغ الرئيس : **اسمي انطون سعاده** .. فنظر الرئيس في وجه سعاده الهادىء ، ثم امر الكاتب بتصحيح الاسم ، وصدرت المناداة من جديد : **انطون سعاده ؟**

فنهض سعاده واجاب : **حاضر !**

سأل الرئيس سعاده : **هل تفهم الفرنسية ؟** فاجاب سعاده : **نعم** . فاخذ الرئيس يشرح قضية الحزب بالاستناد الى التقارير والوثائق التي بين يديه ...

... ولما فرغ الرئيس من شرحه وتهمه ، جاء دور دفاع سعاده عن نفسه وحزبه ، فسأل الرئيس سعاده . هل تريد التكلم بالفرنسية ؟ فاجاب سعاده : سأتكلم بلغتي القومية . فطلب اليه الرئيس ان يتكلم باللغة الفرنسية لانه يحسنها، فقال سعاده ان الموضوع دقيق ، وتمكني من لغتي القومية يجعلني اقدر على التعبير عن رأيي بدقة ارتجالا . فألح الرئيس على سعاده بان يتكلم بالفرنسية ، فاجابه سعاده :

«حضرة الرئيس ، اني سوري وفي بلادي . واني اقود حركة تحريرية ترمي الى اقامة السيادة القومية وجعلها مطلقة ، فلست اقبل ان احمل على الكلام في بلادي بغير لغتي . »

... وهكذا كان !

* * *

هذه هي المحاكمة ، التي حدثت لانطون سعاده ، زعيم الحزب القومي الاجتماعي : وهي عندنا من اقوى الادلة على ان للقلب الواحد لساناً واحداً لا يقبل له بديلا للتعبير الكامل عن كنّات وجدانه . انه المنسل الاوفق الى عالم الفكر المطلق : لا نريد ان نأخذ من هذا الموقف ، لانطون سعاده ، الا ما يزيد الاضواء على خطورة اللغة – الام ... على انطولوجيتها الواجبة الوجود . لذلك لا نتساءل عما اذا كان هذا الموقف ، الذي وقفه سعاده ، يتفق تماماً مع مجمل آرائه [1] . المهم ، عندنا ، انه عاش حتمية اللغـــة القومية ... عاشها في فترة لا يمكن فيها للانسان الا ان يكون صادقاً ... عاشها لحماً ودماً ، وخلفها لنا امثولة لغوية ، قومية ، انسانية .

لقد وقف سعاده ، في محاكمته ، وقفة تجلت فيها ضخامة اللغة – الام . برزت سطوتها على الفكر . بانت كينونيتها الكامنة حتى في خطوط حروفها . اتضحت

---

١) تراءى لنا ان اراء سعاده الاجمالية تعتبر اللغة واسطة لا غاية .

امومتها ، التي تحتضن الوجدان بامانة ، في المواقف الحاسمة . هي لا سواها
تحوش مطلق الاندفاعات الذاهبة من الباطن . هي لا سواها تعانق اطراف
كياننا. تستقطب اقاصينا . تفجر الالغام المركوزة في اعماقنا. تجوهر وجودنا ،
وتوحد جوهرنا .

سنترك ما أعطاه سعاده في السياسة . نترك زعيم الحزب ، لنتجه رأساً الى مافي
المحاكمة من وشائج تربطها بفلسفة اللغة — الام ،التي ندافع عنها. غايتنا في هذا
المجال ، ان نقرر حقيقة علمية صافية . وقد رأينا ، في موقف سعاده ، مـا
يمثّل على هذه الحقيقة . فأوردنا المحاكمة ، معزولة عن باقي نشاطه السياسي ،
مدى حياته .

* * *

رفع الرئيس روسيه راسه عن الاوراق، ونادى للمرة الاولى : انطوان سعاده؛
فلم يكن جواب . كرر المنــاداة ، انطوان سعاده ، كذلك لم يكن جواب :
وبعد أخذ ورد علم الرئيس الفرنسي ان سعاده حاضر، ولكنه لا يجيب لانه لم
ينادَ بأسمه . حينئذ نادى ، انطون سعاده ، فنهض المتهم وأجاب : حاضر.
رب معترض يقول : وما الفرق بين انطوان وانطون ؟ أيكون حرف الالف
على تلك الاهمية من الخطورة ، بحيث يدفع بسعاده الى مقاطعة المحاكمة ، في
سبيله ؟ اما دل الاسمان على الشخص ذاتــه ؟ الم يعرف سعاده ان المنادى هو
بالذات ؟ لقد ادت إذن كلمة « انطوان » رسالتها من الدلالة . لقد عبرت عن
الذي تريد ان تدل اليه .

* * *

ظاهراً ، لا فرق بين الاسمين .:. لا اختلاف بين انطون وانطوان . هذا اذا
اعطينا اللغة مفهوماً سكونياً ، اي اذا فهمناها فهماً قاموسياً ، يجعلنا ننظر اليها

كمجموعة فسيفسائية من الالفاظ المخلعة . على هذا الضوء، يمكننا اقرار فارق واضح بين المعنى والمبنى . يمكننا رسم خط ظاهر بين الفكر من جهة، والعبارة من جهة اخرى . على هذا الاساس ، لا يعود من فاصل مبين ، بين انطوان وانطون ، ما دامت الكلمات مصطلحات ، اي واسطات نستخدمها في سبيل غاية . والغاية غير الواسطة. اذن ، لا مانع ، من ان تتغير الواسطة ... من ان تتحور ... من ان تُستبدل ... لانها وضع متواطأ عليه .

* * *

ولكن اللغة اكثر من واسطة ... اكثر من غلاف براني ... انها غاية ، شرط ان نفهمها فهماً دينامياً . اللغة ليست اجزاء تتركب ، فيما بينهـا ، بصورة اصطلاحية . هذا فهم مومياني لها . هذا تحديد جامد لحياتها . اللغة اصوات في حروف ، وحروف في كلمات ، وكلمات في جمل ، وجمل في نحو ، ونحو في بيان ، والبيان هو الوحدة الانسانية التي لا تتجزأ . هو الانسان ، رمـة ، في افكاره ومشاعره . والانسان كائن مجتمعي .واللغة تعكس هذا الانسان. عليها اذن ان تعكس تاريخ امته ... تلك الامة الواحدة التي ينتسب لها المرء ، ولا ينتسب لغيرها .

اللغة هي ذاتها صور حياة الامة . هي حاجات الشعب ، في مظهريه النفسي والمادي . هي وحدها المؤتمنة على تاريخه البعيد . هي ليست كمّ الفاظ قاموسية. لهذا لم تعبر كلمة « انطوان» عن احتياجات سعاده النفسية ، واشتياقاته القومية. القضية أكثر من حرف ناقص ، أو حرف زائد ... اكثر من حرف الالف. القضية في وحدة الكلمة ، التي هي « انطون » وفي ما تجره خلفها من صور شعرية ، وآمال نفسية ، ومجار فكرية .

* * *

كلمة «انطوان» عملة مزيفة . لم تصبّ في مسابك الامة . لذا لم تمس الاسلاك الكهربائية ، التي كانت تشتبك في وجدان سعاده . لهذا لم يشعر عندما سمع كلمة «انطوان» بانه في مجاله المعنوي . ومن هنا عدم اجابته رغم حضوره . قال لم ينادَ باسمي . اجل ، لم ينادَ باسمه . كأني بالاسم اكثر من تقطيع صوتي . اكثر من حروف ملزوزة بعضها الى بعض . اكثر من نبرات تسمعها الاذن : الاسم يحمل كياناً معنوياً ، لا ينفصل عن كيانه اللغوي . وعندما امر الرئيسُ الكاتبَ بتصحيح الاسم ،ثم صدرت المناداة من جديد « انطون سعاده » نهض اذ ذاك واجاب : حاضر . لقد عادت الاسلاك الى مجاريها الحقيقية ، فعاد الالتحام بين الكيانين المعنوي واللغوي .

• • •

اعادت الالفُ الوصلةَ بين سعاده ومجاله المعنوي . اعادت كهربائيةَ الحياة ، في وجدانه ، فحضرت واعيته ، وامتثلت . اذ ذاك بدأت المحاكمة . بدأت بين ذهنيتين،تصرفت كل منهما تصرفاً خاصاً حيال اللغة . الاولى ذهنية المتهِم ، الثانية ذهنية المتهَم . الاولى تنظر الى اللغة نظرة سكونية ، فلا يهمها الفارق بين انطوان وانطون . اللغة عندها واسطة . الثانية عاشت اللغة حقيقة ديناميّة، فلم تهوّن خطر الالف بين انطوان وانطون لقد عاشت اللغة غاية . القضية لدى روسيه قضية حرف ... قضية فهم قاموسي . القضية لدى سعاده قضية مجال معنوي .

• • •

اجل ، لقد سبقت اللغةُ العربيةُ باقي اللغات الى لسان سعاده ، وترسخت فيه ، حتى صار مـن حقها ان تطالب بالاسبقية والفوقية : اندمجت منذ البدء بسويقات وجدانه ، واختلطت لحمياً بحنجرته ، وتداخلت في كرياته الدموية ، فلم يعد من فاصل بينها وبين اعمق الشواعر ، التي كانت تعتلج بها نفسه .

اصبحت العربية مركوزة في شرشه الأصيل . اصبحت حشاشة قلـــبه ، ونفناف عقله .

قيل انه كان مطلعاً على عدة لغات اجنبية . وقيل انه كان يديرها ، على لسانه، بسهولة ممتازة . لا شك في ان امتلاك سعاده عدة لغات قد ساعد على ازدهار شخصيته . على تكثير كنوزه الفكرية . وربما كان لها بعض الفضل في تزويد لغته القومية ابعاداً من الفكر المجلي . ولكن هذا لا يعني أنها سلبت امومة اللغة العربية من لسانه ... أنها قضت على اسبقية تلك اللغة ، ولفوقيتها ، في المواقف الحاسمة .

ان الرابطة الرحمية (التي اقامتها الحياة) بينه وبين العربية ، سدت النافذة على كل امكانية ارتجال ، في لغة اجنبية . ارتجال تلتحم به قوى الفكر واللسان ، في بيان بليغ فصيح . ان الارتجال ، الذي كان يتوخاه سعاده ، هو اكثر من تعبـــير قاموسي . اكثر من تقديم قائمة فقط باعماله السياسيـــة . اكثر من تأدية ارقام . انه المفترق ، الذي تتلاقى فيه ، جميع طرقات كيانه الوجداني .

* * *

وجاء دور دفاع سعاده عن ذاته . لم يغير الرئيس ذهنيته . لم يبدل موقفه السكوني من اللغة . ولهذا لم يرَ فرقاً بين ان يدافع سعاده عن ذاته باللغة الفرنسية ، وان يدافع عن ذاته باللغة العربية . ومن هنا سؤاله انطون سعاده عما اذا كان يريد ان يتكلم بالفرنسية ، لانه يحسنها .

الواقع ان فهم سعاده للفرنسية كان فهماً قاموسياً ، والقضية اخطر بكثير من هذا الفهم المعجمي. اخطر من احسان شكلي. ان الموقف رهيب. قال سعاده:

ان الموضوع دقيق، وتمكني من لغتي القومية، يجعلني اقدر على التعبير عن رأيي بدقة ارتجالا.

لقد استند سعاده ، هنـا ، الى منطق نفسي في رفضه التكلم باللغة الافرنسية :

* * *

المقصود باللغة القومية ، في كلام سعاده ، اللغة ــ الام . وليس كاللغـة الام تستطيع فيها قوى النفس ان تتجند ، بغية الارتجال ... ان تتكاتف كلها في وحدة عمل ... ان تنصب رمة في اتجاه واحد ... ان تتناغم كلها خلقاً وسرعة .
الارتجـال يتطلب العفوية . والعفوية تفجر الكلمات مباشرة من القلب والعقل ، في الآن ذاته ، حالما يشعر الانسان بالحاجة الى التعبير عن المشاعر . العفوية هي الفة بين ارادة التعبير وصور الكلمات ، بحيث تدفق الالفاظ بشكل تلقائي خالص . المواقف الرهيبة لا تتسع للانتظار . فيها تدور الدوامة باسرع مـا يمكن ... دوامة الحياة في احر مداها . في اشد محرورها . ايعود بالامكان ، بعد ذلك ، ان تتباطأ اندفاعات اللطيفة الانسانية ؟ ان تتمهل ، ريثما تجد الكلمة المقابلة ؟ التباطؤ نوع من الغلاظة . ولكن الانسان الواعي ، في المواقف الرهيبة ، يشف ويلطف ، حتى يصبح النورانية ذاتها، التي تكون كهارب الحياة . في هذه المواقف الرهيبة ، تنقلب الحياة ارتجالا ، عند الانسان . تكتمل شخصية المرء ، اكتمالا نفسياً ، اذ تتعانق قوتا التفكير والتعبير ، في زواج واحد . عندئذ تصبح اللغة حركة دينامية ، تنبثق مـن صميم الفكر . تصبح الفكر عينه . هذا الكمال في الزواج ، بين المبنى والمعنى ، لا يحصل الا في اللغة ــ الام .

* * *

شعر سعاده ، في هذا الموقف الرهيب ، ان منطق النفس وقف عليه : شعر

بهوله... بمجتمعيته... بانطولوجيته ... بأن الدفاع هنا عن نفسه هو أكثر من رصف معان ... اكثر من معادلات حروف.. أكثر من ألفاظ معجمية. اكثر من قواعد نحوية ... الدفاع هنا عن نفسهيتناوله ماضياً ، وحاضراً، ومستقبلاً. ويتناول المثل القومية التي يدافع عنها .

ان فهمه للغة الفرنسية سقيم حيال خطورة الموضوع . على تلك الحافة العالية وقف سعاده. عليها راى ان القضية ليست ان يُفهم، فقط ، ولكن ان يُفهم بفصاحة ، وبلاغة ، وبيان . كل ما فيه يجب ان يتكلم : نظراته ، حركاته ، نبراته ، وقفاتـــه . اقناعه ينبغي له ان يتجاوز برودة العقل. عليه ان يُدخل الرئيس في مجاله.. ان يبرق له كهارب نفسه ... وحبات قلبه . القضيةقضية كلية ، لا قضية جزئية . قضية اريحية تريد النفاذ الى المطلق . لا قضية مراعاة القواعد الصرفية، والنحوية، في اللغة الفرنسية. اذن لا بد من الارتجالفي الدفاع، لان الارتجال صورة حية لالتحام الفكرة بالكلمة ، دماً الى دم . والارتجال لا يكون تاماً الا في لغة واحدة... في اللغة ــ الام . فيها تتحرك اضواء النفس، كلها ، وتندفع شحنـــات الفكر الى الامام.

وكأنني بالرئيس روسيه قد شعر ، من جهته ، بصحة هذا المنطق النفسي : شعر ، من صوبه ، بأن الموضوع دقيق ... بأن الترجمة لا تفي بحق الموقف... وبأنه يحتاج ايضاً الى الارتجال ... فأراد ان يصطاد سعاده . فكّر في ان يجره الى مجاله ... اي الى اللغة الفرنسية. بذلك يأمن الغلبة عليه مبنىً . ومتى صرعه مبنىً ، صرعه معنىً . ومتى كبا سعاده بألفاظه، كبا بمعانيه . في هذا الموضوع الدقيق ، لا فاصل بين التفكير والتعبير . ولهذا ألح الرئيس على سعاده ان يتكلم بالفرنسية .

* * *

وهنا نرى سعاده يكرر رفضه الدفاع باللغة الفرنسية . وقد استند ، هذه المرة، الى الواجب القومي . قال :

حضرة الرئيس . اني سوري ، وفي بلادي . واني اقود حركة تحريرية ترمي الى اقامة السيادة القومية ، وجعلها مطلقة ، فلست اقبل ان احمل على الكلام في بلادي بغير لغتي .

• • •

سيادة الامة تتطلب سيادة اللغة القومية . واللغة القومية لا تستورد من الخارج: هي امتشاق من صميم الامة . الامة العفيفة تحافظ على عفاف لسانها ، اذا ارادت ان يكون لهـا تاريخ مجيد . ولذلك لم يستطع سعاده ، على تلك الحافة الساحقة من حفافي التاريخ الاكبر ، ان يتكلم بغير لغته القومية . لو فعل لرفض له التاريخ شهادتـه . لطرحه خارج البقـاء . ان الزعيم الذي لا يتكلم بلغـة شعبه... الذي لا يخاطب امته بلغته القوميـة.. هذا الزعيم هو في حكم المهات مع التاريخ . ان تحرير الامة لا يكون في المعنى ، دون المبنى ؛ انه الاثنان معاً .

لم تعد القضية بين رجلين في المحكمة المختلطة . لقد اصبحت بين امتين في محكمة التاريخ . تحول الرئيس الى تلك الامة التي يدافع عنها . وتحول سعاده الى تلك الامة التي يريد ان يحررها . القضية ، اذن ، هي اكثر من ان يتكلم سعاده بلغة فرنسية صحيحة القواعد . ولهذا لم يقبل ان يحمل على الكلام في بلاده بغير لغته . اجل ، ماذا كان التاريخ يقول فيه ، لو سجل على ذاته مثل هذه الهفوة ؟ لقد احس بانه لم يعد ملك نفسه . شعر بان روسيه لم يعد رجلا ، يخاطبه رجل آخر ، اسمه انطون سعاده . تراءى لسعاده أنه يؤدي شهادة للتاريخ . أن دفاعه عن نفسه هو دفاع عن الامة ذاتها .

• • •

ذلك المنطق النفسي ، وهذا الواجب القومي ، هما اللذان دفعا سعاده الى ان يرفض التكلم باللغة الفرنسية . لقد وقف سعاده وقفة بيانية صحيحة . إذ لو رضي بالفرنسية ، لغة دفاع عنه ، لكان هدم بلسانه ما بناه بفكره وقلبه ، ولكنه مساو لذاته نفسياً . ولذا كان مدفوعاً ، بمنطق الحياة ، الى ان يرتجل باللغة العربية . وهكذا كان .

* * *

الباب الثاني

في الترجمة

١

لا بد لنا من ان نمثل بعد ذلك ، من ان نعطي شاهداً على ان اللغة — الام ذات ثقل اخير ، اكيد ، في لسان المرء . والترجمة اقرب تمثيل ، وابرّ دليل، واحسن شاهد . لها فائدة كبيرة ، نوه بها من بعيد برغسون ذاته ، في خطبة له القاها — سنة ١٨٩٥ — على جمع من طلاب الفلسفة ، تحت عنوان « في الذوق السليم والدراسات الكلاسية » . وكان برغسون قد تمرّس ، في زمن التحصيل، بالآداب الكلاسية (كاليونانية ، واللاتينية) . ونقل منها الكثير الوفير الى اللغة الفرنسية ، مما جعله يذوق طعم ثمارها . لقد وعى ما لها من فوائد جمة . رأى في الترجمة خير وسيلة لاطلاق الفكر من غلّ الكلمة . اذ بهـا نكسر الجليد المتصلب ، فوق الوجدان ، بعلة من الالفاظ . وهكذا نعثر، في مجاري الباطن، على سائلية الحياة . على مائية الديمومة عينها . قال ، يخاطب التلاميذ، ما يلي :

> أرى في التربية الكلاسية ، قبل كل شيء ، محاولة واعية لتحطيم جليد الالفاظ ... والعثور تحته على مجاري الفكر ، حسب ما يندفع بانطلاقه الحر . ان ترجمة الافكار من لغة الى لغة ، تعودنا سكبها في قوالب مختلفة . هذه الافكار تحررها الترجمة نهائياً ، من كل شكل لفظي ضيق ، وتدعو الى التقاطها ذاتها بمنأى عن الالفاظ ١ .

لا شائبة على كلام برغسون . وهو يتفق تماماً مع نظرته العامة في اللغـة ...

---

١) Le Bon Sens et les Etudes Classiques

تلك النظرة التي حمنا عليها ، سابقاً ، والتي تعتبر النفس جوّانية واللغة برّانية . هذه النظرة ، هي التي حدته على اعتبار الكلمة واسطة ، لا غاية . لذا أصاب قوله في ناحية ، واخطأ في اثنتين .

اصاب في الاشارة الى فائدة الترجمة ، ولزوم ترويض التلاميذ عليها . اخطأ عندما قال بأن الترجمة تعيننا على ادراك الافكار بمنأى عن الكلمات . ومن هنا خطأه الثاني ، القائم على انه لم يحدد الجهة ، التي يجب ان يتخذها المترجم . هل يستطيع المرء ان يترجم ، حقاً ، من اللغة – الام واليها ؟ والمقصود بالترجمة ، هنا ، تلك التي تحمل فيها طابع الخلق ، والابداع . الترجمة هي التي ترهف حسّ الجمال . هي التي تهيأ لتقارع الاصل ، ولكنها لا تقارع .

كأنني ببرغسون يجيزهـا في الجهتين معاً . والحقيقة ان الانسان عاجز ، كل العجز ، عن ان يترجم من اللغة – الام واليها . الترجمة الممتازة ، الثابتة على الزمان ، لا تكون إلا في جهة واحدة . هذه الترجمة المتألقة ، البارعة . . . هذه الترجمة الترجمة ... لا تحدث إلا من لغة – بنت (أي اجنبية) الى لغة – ام (اي قومية) . اما العكس فهو ازالة لمنطق الحياة . ومن هنا الاخطاء التربوية، التي نرتكبها في لبنان . فقد تعودنا ان نعبر بلفظتي « ترجمة » و « تعريب » عما يسميه الفرنسيون « Thème et Version » . هذه العادة ، لم نركب راسها إلا حباً بالتشبه، دون البحث في هل يجوز الاقتداء، ام لا يجوز. اما الفرنسيون فقد عنوا بلفظة « Thème » نقل الافكار من اللغة الفرنسية الى اللاتينية ، أو اليونانية . وعنوا بلفظة « Version » نقل الافكار من اللاتينية ، او اليونانية ، الى اللغة الفرنسية . ولهم في ذلك مبررات سنأتي على ذكرها . لكننا ، في لبنان ، لا نعرف بالضبط اية لفظة عندنا تعني « Version » واية لفظة تعني « Thème » .

• • •

لكن اللغة العربية لم تهمل هذه الناحية . لقد ابانت ، بوضوح يتفق مع فلسفة اللغة ، ان الترجمة لا تحق الا في اتجاه واحد ... هو اتجاه اللغة ـ الام . لا وجود لغير الترجمة ، التي هي نقل الافكار من لغة اجنبية الى اللغة العربية :
واما التعريب فهو نقل المفردات الاجنبية ، بلفظها الاعجمي ، مكتوبة بحروف عربية. مثلا: هاتف ترجمة ، تلفون تعريب . سيارة ترجمة ، اوتوموبيل تعريب.
وقد اثارت هذه المشكلة جدلا طويلا ، عند العرب ، لمعرفة ما اذا كان القرآن يشتمل على كلمات معربة . فقد جاء قوله « إنا جعلناه قرآناً عربياً » . ولهذا سمع احدهم ابا عبيدة يقول : من زعم ان في القرآن لساناً سوى العربية ، فقد اعظم على الله القول . ذلك لانه روي عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وغيرهم ، في احرف كثيرة : أنه من غير لسان العرب . مثل « سجّيل » و« المشكاة » و« اليمّ » و« الطور » و« أباريق » و« إستبرق » وغير ذلك .
يقول الجواليقي ، في كتابه « المعرّب » تعليقاً على هذا الكلام : ان هؤلاء اعلم بالتأويل من ابي عبيدة . ولكنهم ذهبوا الى مذهب ، وذهب ذاك الى غيره . ويضيف الجواليقي بان كليهما مصيب . اما وجه الاصابة ، عند الفريقين ، فهو عائد الى ما يلي : ان هذه الحروف بغير لسان العرب في الاصل ، فقال اولئك على الاصل ، ثم لفظت به العرب بالسنتها ، فعربته ، فصار عربياً بتعريبها اياه . اذن هي عربية في اللسان ، اعجمية في الاصل . هذا القول يصدق الفريقين جميعاً . وقد قسم الجواليقي ، الاسماء المعربة ، الى نوعين :
احدهما : لا يعتد بعجمته . وهو ما ادخل عليه لام التعريف ، نحو «الديباج» و«الديوان» . والثاني : ما يعتد بعجمته . وهو ما لم يدخلوا عليه لام التعريف نحو «موسى» و«عيسى» [1] .

---

١) راجع كتاب « المعرب » للجواليقي . ص ٤ ـ ٥ مـــن المقدمة . القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية . ١٣٦١ هـ

يتحصل ، من هذا ، ان دخول الاساليب الاعجمية قديم في اللغة العربية : يتصل بالعهد الجاهلي ، والعهد الاسلامي . وهو دليل رحابة صدر لاقتبال المفردات الدالة على نواح عديدة من الحضارات ، التي اصبح العرب فيما بعد ورثتها وبناتها . وقد اقرّ المجمع العلمي في مصر انه اذا لم يجد بعد البحث اسماء عربية للمصطلحات ، وضع اسماء جديدة بطرق الوضع المعروفة من اشتقاق ، او مجاز ، او غير ذلك ... فاذا لم يوفق في هذا التجأ الى التعويب مع المحافظة على حروف اللغة ، واوزانها بقدر الطاقة [1] .

قصدنا ، اذن بعد هذا الشاهد ، ان الترجمة لا تزاول الا في جهة اللغة – الام. اما التعريب فيجوز اعتباره فرعاً من فروع الترجمة ، لا باباً على حدة . ذلك لانه ، هو ايضاً ، في جهة اللغة القومية ، ولكن على طريقة اخرى . تدور الترجمة على نقل المعنى من اللغة الاجنبية الى اللغة – الام . ويدور التعريب على نقل اللفظ من اللغة الاجنبية الى اللغة – الام . كلاهما في الاتجاه عينه ، كاننا بالعرب قد وعوا ، بهاجس باطني ، ان النقل لا يجوز من اللغة – الام الى اللغة الاجنبية . لهذا لم يزاولوه . والتاريخ لا يعطينا مثلا واحداً ، على امة من امم الارض ، اقدمت على ممارسته . اليس في هذا ما يجب ان نقف عنده؟

* * *

رب معترض يقول : هب ان كلمة « تعريب » كانت تعني ، قديماً ، نقل المفردات الاجنبية ، بلفظها الاعجمي ، مكتوبة بحروف عربية . هب ان ذلك صحيح ، فقد اتسع نطاق هذه الكلمة ، واسبغ الاستعمال عليها ما لم يكن جائزاً ، في الماضي .

لا شك في ان الالفاظ كائنات حية . تتطور مع الزمان ، فتتبدل فحاويها ، وكثيراً ما تلبس فحوى معاكساً . لكن الخلاف لا يقوم على كلمة « تعريب »

---

١) سنة ١٩٣٤ ص ٣٣٣ .

في حد ذاتها ، بقدر ما يقوم على السؤال التالي : هل بإمكان الطاقة البشرية ان تنقل الافكار من اللغة — الام الى اللغات — البنت » اي الاجنبية » ؟ أبمقدور العربي ، مثلا ، ان ينقل الى الفرنسية ، باعتبار هذه غريبة عنه ؟

في الجواب عن هذا السؤال يبين لنا ما اذا كانت الافكار ذات وجود مستقل عن الكلمات او مرتبطة بها ارتباطاً شرشياً . لوكان باستطاعة المرء ان ينقل الافكار من اللغة ، التي تكون قد وضعت فيها اصلا ، الى اية لغة اخرى يريدها ... دون ان ينقص شيء من جمال ادائها ... لجاء ذلك دليلا على استقلالية الافكار بالنسبة الى الالفاظ . اما اذا فقدت الافكار جمالها ، بانتقالها من الديباجة — الام الى ديباجة غريبة ، فيكون ذلك دليلا قاطعاً ساطعاً الى انها من صميم اللغة المنقولة عنها .

وجوابنا عن هذا السؤال هو ان المرء لا يستطيع ان ينقل الافكار ، نقلا تاماً ، من لغته الام الى لغة او لغات اجنبية . سبب ذلك هو ان الترجمة الى اللغة الام (مهما تكن فائقة) هي دائماً انحراف عن الاصل ، وخيانة له . فكيف بها اذا كانت الى اللغة — البنت ؟

لا نرمي هنا ،طبعاً ، الى الكتب العلمية ، التي لا يفوح فيها الا رائحة الصقيع- بيت القصيد انما هو الانتاج الادبي بأوسع فحواه . ذلك لان الادب العالي يمثل مجمل النفس البشرية ، في هنيهاتها المكوكبة . هو اقرب الى نفنافها . الى صماصيم فوادها. والادب مبنىً فوق ما هو معنيّ، او — اذا شئت — مبنىً بقدر ما هو معنىً. ومن هنا نرى سطوة الكلمة تعظم، في الادب ، لتتحرش بالحس . في الادب تتجسم انطولوجية اللغة .فيه يبين لنا ان اللغة ليست عباءة للمعاني، بل هي المعاني ذاتها مكلمنة . ان اللغة عبقرية. ولكل لغة عبقرية خاصة بها، تعجز عن ان تنقلها بالحرف عبقرية لسان آخر . ولهذا كانت استحالة ترجمة الشعر ، وكل ما يحمل في شرايينه ماوية شعرية . وقد تنبه الكثيرون — قديماً وحديثاً — الى تلك الاستحالة ، إمامهم بلا نزاع وشيخهم الجليل هو الجاحظ . قال ما يلي:

الشعر لا يستطاع ان يترجم ، ولا يجوز عليه النقل . ومتى حول ، تقطع نظمه ، وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موقع التعجب منه ، وصار كالكلام المنثور . والكلام المنثور المبتدأ على ذلك ، احسن واوقع من المنثور ، الذي حول عن موزون الشعر . . . ولو حولت حكمة العرب ، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن . مع انهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم ، التي وضعت لمعاشهم ، وفطنهم ، وحكمهم ،

ثم قال :

بعض من ينصر الشعر ، ويحوطه ، ويحتج له : ان الترجمان لا يؤدي ابداً ما قال الحكيم ، على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده . ولا يقدر ان يوفيها حقوقها ، ويؤدي الامانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ، ويجب على الجري . وكيف يقدر على ادائها ، وتسليم معانيها، والاخبار منها على حقها وصدقها ، الا ان يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف الفاظها، وتأويلات مخارجها ،مثل مؤلف الكتاب وواضعه؟ فمتى كان ، رحمه الله تعالى ، ابن البطريق ، وابن ناعمة ، وابو قرة ، وابن فهر ، وابن وهيلي ، وابن المقفع ، مثل ارسطا طاليس ؟ ومتى كان خالد مثل افلاطون ؟ [1]

* * *

يقول العالم الاجتماعي غوستاف لوبون ، في كتابه « روح الجماعات »مافحواه: اذا نظرنا الى لغة من اللغات ، وجدنا ان الكلمات التي تتألف منها تتبدل ببطء في غضون الاجيال. غير ان ما تثيره من الصور ، او ما يرتبط فيها من المعنى، يتغير بلا انقطاع . ولذلك تراني قد انتهيت الى النتيجة القائلة بان الترجمة الصحيحة من احدى اللغات ، ولا سيا لغات الامم البائدة ، ضرب من المحال . وماذا نصنع بالحقيقة اذا ما استبدلنا عبارة فرنسية بعبارة لاتينية او يونانية او سنسكريتية ، او حاولنا فهم كتاب الف بلغتنا منذ بضعة قرون ؟ نكون قد استبدلنا ما اثارته الحياة العصرية ، في اذهاننا ، من الصور والافكار بما اوجبته الحياة القديمة من المبادىء والصور في روح عروق خاضعة لاحوال معيشة لا شبه بينها وبين احوالنا المعيشية . ومما حدث ان خيل لرجال الثورة الفرنسية

---

١) راجع مقدمة كتابه الحيوان .

ان يحذوا حذو الاغارقة والرومان ، فلم يصنعوا غير منحهم لطائفة من الكلمات القديمة ما لم يكن لها من المعاني قط .... وما اكثر الالفاظ التي تغير معناها تغيراً عظيماً بين جيل وجيل، على الوجه المذكور ، ونحن لا نفهمها كما كانت عليه في الماضي الا بعد جهد طويل . وقد قيل بحق انه لا بد من مطالعات كثيرةلنتمثل ما كان يذهب اليه اجدادنا من معنى كلمة الملك، والاسرة المالكة، مثلا . وماذا يكون امر التعابير التي هي اكثر تعقداً . اذن ليس للالفاظ سوى معان متحولة موقتة متغيرة ، بين جيل وجيل ، وبين امة وامة . واذا ما اردنا ان نؤثر بالالفاظ في الجماعة ، وجب ان نعرف ماذا يكون معناها لدى الجماعة ، في زمن ما ، لا المعنى الذي كان لها في الماضي ، او المعنى الذي يكون لها عند افراد ذوي مزاج نفسي مختلف . ان الالفاظ تعيش كالافكار[1] .

نظر الجاحظ الى الترجمة من الناحية الجمالية ، في فن البيان ، فانكرها . ونظر غوستاف لوبون الى الترجمة من الناحية الاجتماعية ، في فن الاداء ، فانكرها ايضاً . وهنالك شيخ آخر من شيوخ الفكر ، وحجة اخرى في علم الالفاظ ، اعني به بول فاليري . هذا الكاتب الغول ، ضرب في مقالع اللغة ، كما ضرب الجاحظ قبله . طاردها برأس قلمه المروّس . تحداها . غاص على ناطحاتها ، حتى كشف الستائر عن خفايا حروفها ، وخبايا الفاظها . فكفكف اركانها بساطوره . نفذ الى قاعها في الاقصى ، فاذا به يخرج من مقالعها ... من دهاليزها ... وعلى رأس شاقوفه الحكم عينه ، الذي جاءنا من سواه ، محمولا على اكف التاريخ .

ان الآداب جميعها ، منذ القديم ، تعطي الرأي ذاته في ترجمة الشعر . هنا يسمو الحرف ، ويتربع فوق دكة السحر العجيب . اذ ليس كالشعر دليل الى توآمية المبنى والمعنى : انه المهد ، الذي يلدان فيه ، من اب وام : هنا يصبح

---

١) راجع كتابه « روح الجماعات » ترجمة عادل زعيتر وجه ٩٧ .

الكلام ، وكأنه فوق اللغة . يصبح من طبيعة الفلك . يصبح ذا قداسة ملائكية . ذا اعصاب مجنونة ، ونور في ظلمة الجهالة . هنا يرتفع الحرف من مادة صوتية الى عقلية لغوية . ولذا لا يجوز لنا ان نمسه حين نشاء ، وكيف نشاء ، في سبيل غايات قريبة . ان الحرف لا يتركز ، في ابواب الشعر ، الا بدعوة من السماء . فمتى نزّل في موضعه ، لا تعود قوة من قوى العالم كله قادرة على ان تزعزعه . للطفل احشاء واحدة ، ومهد واحد ، ومنبت واحد، وسلالة واحدة . هكذا الشعر لا يدنس . لا تفض بكارته . لا يرجع به الى الوراء ، لينثر ، او يترجم .

* * *

لنضرب مثلا على ذلك . نقرأ هذه الخطبة لعلي بن ابي طالب :

اني احذركمُ الدنيا : فانها حلوة ، خضِرة . حفّت بالشهوات ، وتحببت بالعاجلة ، وراقت بالقليل ، وتحلّت بالآمال ، وتزينت بالغرور . لا تدوم حبرتها ، ولا تؤمن فجعتها . غرّارة ضرّارة . حائلة زائلة . نافدة بائدة : أكّالة غوّالة ... من اقلّ منها ، استكثر مما يؤمنه . ومن استكثر منها ، استكثر مما يوبقه ، وزال عما قليل عنه ... سلطانها دِوَل . وعيشها رنق . وعذبها اجاج . وحلوها صبر . وغذاؤها سمام . واسبابها رمام . حيّها بعرض موت. وصحيحها بعرض سقم . ملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب ، وجارها محروب . الستم في مساكن من كان قبلكم اطول اعماراً ، وابقى آثاراً ، وابعد آمالاً ، واعدّ عديداً ، واكثف جنوداً . تعبدوا للدنيا ايّ تعبد ، وآثروها اي ايثار ، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلغ، ولا ظهر قاطع. فهل بلغكم ان الدنيا سخت لهم نفساً بفدية ، او اعانتهم بمعونة ، او احسنت لهم صحبة . بـل ارهقتهم بالقوادح ، واوهنتهم بالقوارع ، وضعضعتهم بالنوائب ، وعفرتهم للمناخر ، ووطئتهم بالمناسم، واعانت عليهم ريب المنون.

فقد رأيتم تنكرها لمن دان لها ، وآثرها واخلدها ، حتى ظعنوا عنها لفراق الابد ... افهذه تؤثرون ؟ ام اليها تطمئنون ؟ ام عليها تحرصون ؟

• • •

هذا الكلام واحد من « نهج البلاغة » . حبلت فيه نفس عليّ بحقائق البداية والنهاية ، ثم جاشت ، فاذا بها تنصبّ دفعةً على هذا الاطار من اللغة . انظر الى وجه تركيبه العجيب ، كيف تعاقدت السماء والارض في حروفه ... وتصاهرت في الفاظه ... وتماسكت في مقاطعه... وتناغمت في نبرات صوته: لا تندّ كلمة واحدة ، ولا تتخلف عن جارتها في سياق البيان . تتنادى ، من بعيد او قريب ، فتتجاوب ، وكأن فيها من كهارب الودّ ، ما يشد بعضها الى بعض . انت ، في نهج البلاغة ، فوق طبقة اللغة ... لغـة التخاطب ، والتداول، بغية اشياء من تراب. انت هنا في لغة، تركيبها من لمعان الكواكب ، من وراء الحياة . كل حرف من حروفها بيان كامل ، ولمحة دالة .

انظر الى هذا التساوق، في التجربة الباطنية، مبنىً ومعنىً. لقد ترك عليّ لطيفته تعمل على سجيتها الاولى ... فكراً ولفظاً ... كأنهما شقيقان من اب وام . ضخمة هي امكانية البلاغة ، عنده، على نقل مجامر النفس. هو يرسل الشحنات بضراوة ، وتمزق ، وعبادة . حيث تهـدر التجربة ، تنقل بحروف هادرة . وحيث تسكن ، تنقل بحروف ساكنة . وحيث تسفح ناراً ، تنقل بحروف سافحة . لهذا لا تقبل عوضاً عن حرف ، ولا تجد مفراً منه . المعاني في تهجاع لدى عليّ ، والحروف هجّاسة . اذا هبّت الخاطرة في صدره ، اتى الحرف مسانداً لها .

لم يرَ عليّ واجباً لتوخي السجع ، في اول الامر. لقد هيأ النفس تهيئة لطيفة. لذا تركه ، وبدأ بشبه نثر. لكنه نثر متأهب . فيه بعض قوة الاغفاء. انه يموج على مسافات قصار . واذ يشعر بأن العصب قد تخدّر، تندفع التجربة صخّابة،

فيترك المصاهرة في الاعراب تقوم بين «حبرتها» و «فجعتها» . ويتدافع السجع كالمطارق الضاربة . انظر الى تلك الطلقات ، القصيرة المدى ، كيف تخرج كسيخ محمية ، لتنغر في خاصرة القارىء ... غرّارة ضرّارة ... ارايت الغين ، والضاد ،والراءات ، في غرّارة ضرّارة ، يتوجها الشدّ المحبوك ؟ وهي حروف ذلقية ، شجرية ، حلقية . تخرج ملء الفم ، كأنها امتشقت من صماصيم الفؤاد الصاخب ؟

وتهدأ التجربة نوعاً . فيلين الحرف ، وترق النبرة . لا تعود من قاع الحلق . من غـــار الحنجرة الغاضبة . انظر كيف ارسلت نحيفة . كيف تعاقبت « النافدة والبائدة » وهي حروف مستملحة . لا تشغل الفم رمةّ ، كأنك تحرك شيئاً باطراف الاصابع . هي حروف مهموسة . لهذا لا تنقل الا افعالا ضعيفة .

وتعود التجربة الى الاندلاع ، فينتفض الحرف « اكّالة غوّالة » . انظر الى الكاف ، والغين ، والشدة . كأنك ماسك بالشاقوف ، بكلتي يديك ، تريد القضاء على خصم . لقد جعل الصوت اقوى ، لأن الفعل اقوى . لوضربت في اللغة العربية كلها ، طولا وعرضاً ، ما استطعت ان تجد اليق من هـــذه الكلمات... غرّارة ضرّارة ، اكّالة غوّالة... لتصف ضراوة الحياة . لؤمها: غشها . بطشها . تنكيلها بالانسان . ما لهذه الكلمات نظير في لغات العشر ، حتى نتمكن من ترجمتها . وهو نوع من التأكيد للمعنى ، الذي سيقت له . خرجت وكأنها معنى حسي . ان ائتلاف الحروف ، في تلك الالفاظ ، امتداد لائتلاف الاصوات في النفس . لقد جاءت محبوكة ، مفتولة الساعد ، مؤتلفة في نظمها الموسيقي .

الموقف لا يقتضي التحليل ، والتخريج ، لتندفع الجمل طويلة بدون سجع : الموقف بين يدي الله . والله لا يخاطب الا بكلام متموسق . ان الحديث عن هذا الوجود . لذا جاءت الالفاظ حادة . مبرية . شبيعة . جاءت افصح في

الدلالة من غيرها ، وادق ، واندى ، واجمل ، وابدع ، واصفى . جاءت كالقنطرة المرصوصة . لا يفلت منها حجر ، الا ويسقط البناء دفعة . لا تسامح في كلمة . لا مراجعة . لا عودة . لقد هبط الحرف كأنه جملة . والجملة كأنها بيان . والبيان كأنه وقف ممتنع .

هذه هي البلاغة البلاغة . ان تجمع بسط العلاء في قبض الحروف . أن تجمع الكثير من المعاني في القليل من الالفاظ . أن تكون الكلمة فيها عزيزة على الحس : وهكذا تجيء الموازنة طبيعية بين دلالات الخواطر وبيانات الحروف : فاذا كانت التجربة صائحة صائحة ، اتت الالفاظ صائحة صائحة . واذا اقتضت التجربة سجعاً ، بحث الكاتب عن قرائن تكون ردائف ، تصل جناحاً بجناح . اذا تحمست النفس ، لجأت الى هذه الحروف ، لا تلك . واذا اضطربت ، لجأت الى حروف اخرى . وهكذا قل اذا افتخرت ، او حنّت . ذلك لأن النفس — حين تعبر — لا بد لها من تأليف . والتأليف اصوات في حروف ، وحروف في كلمات ، وكلمات في جمل ، وجمل في بيان . التأليف هو كل هذا رمة . دفعة . هو قطعة واحدة . اذا كانت الجملة ذات معنى ، فلأن كلماتها ذات معنى . واذا كانت الكلمات ذات معنى ، فلأن حروفها ذات معنى . واذا كانت الحروف ذات معنى ، فلأن اصواتها ذات معنى . واذا كانت الاصوات ذات معنى ، فلأنها اتت على نسب ترجع الى مادة النفس . مثل ذلك مثل العقد ، الذي يتألف من خرزات مختلفة القد ، والشكل ، والجوهر ، واللون ، والخرط . اين يبتدىء العقد ؟ امن الخيط وحده ؟ ام من شكل الخرزات فقط ؟ ام من لونها ؟ وهكذا قل عن التأليف . من اين يبدأ ؟ امن الصوت ؟ ام من الحرف ؟ ام من الكلمة ؟ ام من الجملة ؟ الحق ان التأليف هو كل هذا دفعة . فالذي يستخف بواحد من اجزائه ، يستخف به كله :

أيجوز ، بعد ذلك ، ان نترجم « نهج البلاغة » ؟ ايبقى على حاله من الروعة ، والجمال ؟ من الهيبة ، والجلال ؟ ايبقى ذا سطوة على القلوب ؟ ماذا يصير

بالضاد في « ضرّارة » ؟ وبالكاف في « اكّالة » ؟ وبالغين على كتف الواو تحت الشد في « غوّالة » ؟ هذه الاحرف ، التي قامت عليها ضخامة المعاني ، تتهافت . تنهار . تنعدم عدماً . تزول من الوجود . اين تصبح بلاغة عليّ ، حينذاك ؟ ذلك الجيشان في الخاطر يهدأ . ينحل . لا سجع في غير العربية . لا ضاد في غير العربية . فــاذا حوّل كلام عليّ ، ما وجد في معانيه شيء غريب . شيء يغفي . شيء يسفح ناراً ، ويذيب لطافة . معنى هذا ان روعة البلاغة ، في نهجه ، هي من جلال الابلاغ . من شوكة الكلمة . هنا السحر في القالب . وما القالب الا القلب ذاته مسدداً الى الخارج . والقلب لا يسخر. لا يترجم .

صدق الجاحظ . إن الترجمة لا توفي حقوق الاصل . لا تؤدي الامانة . من منا قرأ شكسبير مترجماً ، وبقيت عضة الجمال في اعصابه ؟ من منا قرأ هيجو مترجماً ، وظلت غفوة السحر في اهداب جفونه ؟ ذاك الود بين الحروف يهتك. ذاك التركيب الممتنع يدنس . ذاك العفاف في البدء يخدّش . من صومعة الهية يهبط القارىء الى حانوت فقير . من استطارة في الالحاظ ، والتماع في العينين ، ينتقل الى بصيص ضوء باهت . من سخاء الى شح . من بحبوحة الى تقتير وتقنين . من روضة الى خربة . هذا ما تفعله الترجمة بالاصل . وليس من قلميّ يستطيع ان يتلافى هذه الكارثة الجمالية . كأني بها صورة حية عن تركيب الانسان ذاته . ذلك التركيب القائم على طهارة منبت واحد . فــاذا بحث المرء عن منبتين له ، خرج على ناموس الحياة عينها .

* * *

اجل ! كل ما يكتب وفيه شيء من المجاز الادبي . وفي عبارته انسجام : وفي مخارجه براعة . وفي حروفه ود ، وتساند ، وافضاء بعضه الى بعض . يكون ادباً لا يمكن ترجمته بدون خيانــة . ان كتب الدين ، والشعر ، والاخبار عن

قدرتـه تعالى ، وعن شطحات اهل الصوف ، اعسر بكثير من ان تترجم .
واضيق . واشد . هنا يقوم الجمال في جسدانية الحروف . في لحمية الالفاظ .
في دم الكلمات : في رصها اخوات خصراً الى خصر . كتفاً الى كتف . في
تطريزها ، وتخريمها ، مقطعاً مقطعاً ، ونبرة نبرة . في عذوبتها ، وفي رقتها .
في توقدها ، وفي مغازيها . في جرسها الذي يهمس في الاسماع ، وفي حلاوتها
التي تسيل اللعاب على اللسان . في لهجتها . في اطرافها . في جسأة اعطافها .
في رنتها ، فوزنها ، فشكلها . في ما دق من روائحها ، وفاح من معانيها . كل
هذا هو الجمال في الادب . أليس من الضلال ، والتضليل ، اذن ، ان نحصره
في المعنى وحده ؟
الجمال هنا لا يخاطب العقل فقط . انه من بنات الحس ايضاً . والحس يتاثر بكل
هذه الجسمانيات معاً . يتأثر بصوتية الحرف ، وجرسه . بالصورة التي تعطي
الفكرة شكلا مرئياً . بالنبرة التي تخرج بها الفكرة ، طويلة المدى او قصيرة :
هذه المؤثرات ، التي تساعد على ابراز الباطن جميلا ، هي من بنات العصب
الرهيف . فمتى انتقلت الفكرة الحلوة ، من ديباجة الى ديباجة ، خسرت هذا
العصب . فقدت جمالها . لم تعد فكرة ادبية . صارت فكرة لا غير . اذ ليس
المهم ان يُفهَم الادب . المهم ان تنام على سماعه اعصابنا المتربصة . الفهم
وحده عنصر جامد . اعور . والحياة الكاملة هي في وحدة العقل والقلب . هذا
هو الاديب الكبير .

* * *

الفكر والحس شرطان للخلود ، في كل رائعة انسانية . ولا نعني بالفكر جفاف
المنطق ، بل مداً — في العقل — الى مراتع الجمال . ولا نعني بالحس رخاوة
المتميع ، بـل حناناً — في القلب — الى مضارب الحق . الفكر والحس ، في
ناطحات الوجدان ، اقنوم واحد . هناك ، فوق تلك الحفافي اللاهبة ، يتعانقان .

هناك تنقلب الانسانية بهما من شحيح الواقع الى سخاء المجاز .

نقول هذا لان الحس لا يبدع ، في النفس ، كألفاظ مجردة فقط . وانما يدور دورته الخلاقة بالدلالات ، التي يشير بها الى الحق الاكبر . وهل تبطل اللفظة عن ان تكون حساً ، اذا عنت حقائق انسانية عالية ؟ ونقول هذا ايضاً لأن الفكر لا يبدع ، في النفس ، كفكر مجردة فقط . وانما يدور دورته الخلاقة بالقلم المعسول ، اي بالكلمة الجميلة . وهل تبطل الفكرة عن ان تكون فكرة، اذا تكلمنت في بيان مجلو ؟ متى ابتعد الحس عن ترهات الوجود ، محلقاً في دهاليز النفس ... في سراديبها ... تناول هذا الوجود كأ كثر من ديباجة قاموسية . تناوله من جهة الحق الذي ينير . ومتى اغار الفكر على الاصول .. على المعطيات البادئة ... على القباء الكائنات ... نظر الى الوجود من وراء عينيه ، ليراه بأجفان الحالم ، اي بعصبية العاشق . لهذا ينتهي في البيان .الحس الكبير لا يرضى بما يحد اطاره ، فلا يبدأ . والفكرة الكبيرة لا تقنع بما ينتهي، فلا يعاد . ان معناها الاسمى هو في البادىء المعيد ... نعني في مجاز الحقيقة ، لا في الحقيقة ذاتها . الحس لا يفتأ يتلمح غيباً في كل حاضر . والفكر لا يبرح يضرب في مجاهل كل معلوم ، حتى يلتقيا امام الباب المرصود ، الذي لئن اتيته من جهة القلب ، او من جهة العقل ، فانـه هو هو من حيث جئته . وتمتد اليدان الى المفتاح العجيب ، حتى اذا لمستاه ، احترقت الاصابع ، وترمدت فوق العتبة الغريبة . هناك يصبح كل شيء رؤية ، والرؤية بلاغة .

* * *

٣

من الخطأ الاعتقاد اذن أن الابجدية بنت العبث... أن حروفها قيلت باعتباط. هذه الحروف لم تصطنع بصورة باردة . لم تكن لأن داعية ارادها كائنة ، فكانت ... وقد كان بمقدوره الا يريدها كائنة ، فلا تكون . مثل هـذا الاعتقاد انحراف عن جادة الحق . انه فهم للغة بطريقة مومياثية ، محنطة - والدليل الى ذلك هو ان تاريخ الابجدية ما زال في غياهب المجهول . ان جميع المحاولات ، في سبيل اماطة اللثام عن مصدرها ، ظلت بعيدة عن مخبأ سرها - لا المكان عرفناه ، ولا الزمان وعيناه . اجل ، لقد عثرنا على القديم منها . لكن هنالك الاقدم ، الذي ما فتىء مقنعاً . والاقدم علة القديم ، وفحواه . الابجدية قديمة قدم الانسانية . هي والانسانية شيء واحد ، بل هي الانسانية في نضوج . هي الحياة ذاتها واعية ، والحياة لا تفعل شيئاً ، دون ان يأتي هذا الشيء في نصابه من ابوابها . كل مـا توجده الحياة له فحوى لدى النهاية الكبرى ... له غاية ... له ايعاز . هي لا تعرف الزائد ، الذي لا معنى له . لا تعرف الترف . اذن ليست الحروفُ امراً عبثاً ، ولا الارقامُ امراً عبثاً . اذا كانت الاحرف ، فلجذور لها في قاع الوجود الانساني . واذا رتبت ، وفق سمت معين ، فلأن هذا الترتيب ذو مغزى . ومن هنا اعتقادنا الراسخ ان للحروف مدلولات في النفس . لها طبع ومزاج . ان الذي يتلمسها ، يرى الكثير من غوامضها ... ودقائقها ... واسرارها . يرى انها من ريق الله .

نقول ، والحالة هذه ، ليس عبثاً سميت العربية بلغة الضاد . هـذه الضاد لم يكن بمقدورها ان لا تكون في لساننا . وليس عبثاً كان عدد حروف ابجديتنا

تسع وعشرين حرفاً . وليس عبثاً كان ترتيبها على طريقة خاصة . القضية ليست بهذا المقدار من العبث . ان قوى العالم كلها لا تستطيع ان تجعلها ثلاثين حرفاً ... او ان تحل الباء قبل الالف ... او الجيم بعد الحاء ... او ان تجعل الضاد في غير اللسان العربي . اذا كانت حروف الابجدية — في اية لغة من لغات البشر— تتلاحق وفق نهج معين ، فلغاية في واعية لطيفتنا . لو ان القضية من بنات الارادة، التي تتواطأ على هواها ،لتيسرت جميع مآزق الفكر ؛ لكن القضية ابعد من ذراعنا بكثير . الارض والسماء تزولان ، وحرف واحد لا يزول . والمقصود بالحرف ، هنا ، ليس فقط ذلك الصوت الذي نقوع به شفاهنا ، وانما هو ناموس حياتي يقوم عليه فهمنا للوجود . ويجعل من الانسان كائناً يعي ، بل يعي انه يعي . لولا هذا الحرف ، ما كان الانسان الا بهيمة مهملة . الا اطاراً بدون صورة .

نقول ، اذن ، ما كان تتابع الحروف الا باعتبار من منطق في النفس . هذه الحروف تتناسب ، مع الباطن، مناسبة طبيعية في الشدة واللين ... في المهموس والمهجور . معناه ان لكل حرف خاصة وجدانية يمتاز بها . ذلك لأن طبعه في التصويت هو ذاته انفعال من الانسان ... انفعال يسبب كل هذه التنويعات في الحروف من حلقية ، وشفاوية ، ولثوية ، ولهوية ، وشجرية ، وذلقية . ولهذا كان للحرف سماكته الانطولوجية. من يمسه يهتك حرمة اللطيفة البشرية. انه اعجاز الابجدية ... اعجاز هو نفسه عجز المرء ان يجعل التاء قبل الباء ، والدال بعد الياء . لا عبث اطلاقاً في تسلسل الاحرف الابجديه . ليحاول الانسان ان يعطل ترقيم هذه الحروف ... او ان يلغي حرفاً واحداً من ابجدية ما ... او ان يزيد حرفاً عليها . ان اصابعه تحترق ، وتترمد ، قبل ان تمتد الى مثل هذا العبث . مثَله مثَل من يطفيء نور عينيه ... من يقطع وريده... من يشيّء ذاته .

* * *

هذا المنطق النفسي ، في الابجدية ، هو منطق كل لغة بشرية . لكننا ، هنا ، في حضرة العربية . لنكتف بالحديث عنها . وقد اكثر اللغويون من التوغل في مجاهلها ، حتى بان لهم ما يزيد الانسان هياماً بها . لقد كان انصبابهم عليها قوياً . استقرأوا كل الفاظها ، واستنطقوا كل حروفها ، حتى ألفوا الكتب الضخمة عن كنهها . ولا نبالغ اذا نحن قلنا، انها من ارحب لغات الارض .- من اسلسها ... وامتعها . والذي يدهش حقاً في اولئك اللغويين الجهابذة انهم عرفوا — بعد عركهم للغة العربية — ان لحروفها مغامز نفسية بعيدة حين تدخل في تركيب الالفاظ . قيل ان الكلمات المختومة بالحاء تدل على الاتساع ، والانتشار ، والامتداد ، والتفريق . مثلا : باح السر ، فاح المسك ، لاح القمر ، ساح الماء وقيل ان الالفاظ المبدوءة بالغين تدل على معنى الخفاء ، والظلمة ، والانحراف ، والسرعة . مثلا : غبش الليل ، غابت النجوم ، غار في الارض ، غرق في البحر . وهكذا لكل حرف مصير .

والفصاحة عينها لا تقوم الا على اساس الحرف . قاعدتها ان تسلم الكلمة من الحروف المتنافرة ، كلفظة (عخعخ) وهو نوع نبات . سئل اعرابي عن ناقته ، اين هي ، فقال : لقد تركتها ترعى العخعخَ . هذه الكلمة غير فصيحة لكون حروفها من مخرج واحد ، هو الحلق . قال ابو الطيب المتنبي :

جفخت وهم لا يجفخونَ بهابهمْ   شيم على الحسبِ الاغرِّ دلائل

ان لفظة جفخت (ومعناها فخرت) كريهة على الذوق ، فظة ، غليظة ، مرة الطعم . لا تمر على السمع ، دون ان يقشعر منها ، لثقل نطقها في اللسان . وقال بعضهم :

كنتُ كنتُ كتمتُ السرَّ كنت كما   كنّا وكنتُ ولكن ذاكَ لم يكن

هنا جاءت الحروف قلقة ، مكدودة. جاءت مكررة على غير لطف ، وسماحة. ولهذا فقد البيت جماله . من الخطأ ، اذن ، اهمال موسقة الحروف بداعي ان الفكرة مستقلة عن قميصها . متى توافر شرطها ، لا مانع ان تلبس قميصاً آخر .

كلا . الالفاظ ليست – كما يقول الامام الجرجاني في « اسرار البلاغة » – خدم للمعاني تصرف وفق حكمها. يعتقد هذا اللغوي ان المعاني هي المالكة سياسة الحروف، وانها تستحق الطاعة . لا شك في نصف ما يقول . ذلك لان الفاصل، بين المعنى والمبنى ، غير واضح كما يظن . سهل ان نقطع، بالذهن، مملكة الفكر عن مملكة الحرف. ولكن الواقع غير هذا. نحن عاجزون عن ان نتلاعب، وفق هوانا العابث، بمنطق الابجدية . وهو الدليل الساطع، في حسباننا ، الى ان الحرف عالم ضخم .

* * *

لكل حرف مخرج ، في جسم الانسان ، يختلف عن مخرج سواه . هذه المخارج تتراوح بين الرئة والفم . فهو (اي الحرف) اما ان يخرج من الحلق ، او من الرئة، او من الفم، او من الشفة : هناك الحروف القريبة الى الرئة ، البعيدة من الشفاه . وهناك الحروف البعيدة من الرئـــة ، القريبة الى الشفاه . والحرف لا يحدث إلا باقتراع في الهواء . هذا هو الصوت . واقتراع الحروف يختلف باختلاف المخرج، اي باختلاف الموجة الهوائية التي تطرق اما الحلق – في اقصاه او ادناه – واما قاع الفم ، واما طرف الشفة . مجموع تلك الطرقات الهوائية تسع وعشرون طرقة ، هو ما سمي بالاحرف الابجدية في اللسان العربي .
لهذا سمي بعضها بالحلقية ، لانها تخرج من الحلق : كالهمزة ، والحاء ، والخاء، والعين ، والغين ، والهاء . وسمي بعضها باللهوية ، لأن مخرجها من اللهاة ، كالقاف ، والكاف . وسمي بعضها بالشجرية ، لانها تخرج من مقدم الفم : كالجيم ، والشين ، والضاد ... الى ما هنالك من انواع الحروف الباقية . هذا هو سبب عدم تشابه الاقتراعات . الذي يحدث في الحلق غير الذي يحدث في الشفاه . مثل ذلك مثل المزمار المثقوب . ان الثقب الاول لا يصوت كالثقب الاخير . لذا تختلف الاصوات في السمع بحسب قرب الثقب ، او بعده : وهكذا اقتراعات الحروف . بعضها حاد . وبعضها حلو . وبعضها جهير :

وبعضها لين : ولا شك في ان كل جرف يحدث صوتاً له اثر خاص في النفس:
منها ما هو مستملح ، ومنها ما هو مستكره. ومنها ما يكون اعذب في السمع،
حين يركب ، واقرب الى ذوق الفؤاد . ومنها ما يكون ابعد .
يتحصل من كل هذا، ان اللغات لا تطابق بعضها بعضاً ، من جميع نواحيها .
هناك اختلاف مبين بين الاسماء ، والافعال ، والحروف . بين التركيب ،
والتقديم ، والتأخير . بين الاستعارة ، والتشديد ، والتخفيف . كل هذه
الصفات في الوزن ، والنثر، والسجع ، والنظم، هي التي تؤلف جوهر اللغة.. .
وهي التي تتساند فيما بينها لتلهب الحس بالجمال . ذلك هو الاستهواء الصوتي
في اللغات البشرية . ومن هنا اخفاق جميع المترجمين في نقل الروائع الادبية من
لغة الى لغة . ان افعى الجمال لا تلسع في الترجمة ... ولا تحرق جمرة البهاء .
ذلك السحر . ذلك العجب . ذلك السيال . ذلك الدفء . كل هذا الغيب
يزول . كأن حنيناً قد خنق . كأن خفقاناً في الرحم قد اوقف . يد المترجم
هي الاثيمة .

* * *

٣

وصلنا الآن الى ما ينبغي ان نجيب عنه . ابمقدور الانسان ان ينقل عن لغته
الام ؟ ان الجواب واضح. فقد ابنا كيف ان النقل عامةً لا يمكن حصوله.
اذ لا يكفي ان نفهم ذهنياً . ان الجمال ، في التعبير الادبي ، يزاوج بين التجريد
الشامل والاحساس الفردي . فاذا كان للحرف سماكة انطولوجية ... وكان
لا مفر منه لابلاغ المعاني بسطوة ... كيف نستطيع القول بان النقل جائز

الى اللغات الاجنبية ؟ الالفاظ البليغة ليست عملة سائرة . هي نادرة ، والنادر لا يستعاض عنه .

في النقل عن اللغة ـ الام اتجاه معاكس لوضع شريعة الحياة . لناموسها الصارم . مثل هذا النقل مثل من يسبح في صعود : لا بد لاعصابه من ان تتفتت ، اخيراً ، وتتحطم . ان منطق الحياة لا يقبل المواربة . وكم يبين لنا عظم الخطأ ، الذي نرتكبه في لبنان ، عندما نفرض على الطالب ان ينقل الجاحظ (مثلا) الى الفرنسية. الا نهتك بذلك حرمة وجدان الطالب؟ الا نساعد، نحن ، على طمس امكاناته ؟ على كبتها ؟ كأننا ، والحالة هذه ، نسهم في جعل التربية تعجيزاً . من الخطأ ان ندفع الطالب اللبناني الى ما لا يمكن فعله. التربية ليست تكعيب دوائر ، ولا تدوير مكعبات . التربية الحقة ، الصالحة ، هي ان يتبع الانسان مجرى الحياة . ان يسايره ، لانه فوق زخمنا الآدمي .

يعتقد اكثرنا ان الترجمة تساعد المترجم على التحكم باللغة ، التي ينقل اليها .وقد وضعت في المناهج التربوية ، عندنا ، استناداً الى هذهالعقيدة . وهي لا تزاول، من طلابنا ، الا على ضوء ذلك الايمان القائل بانها تمكنهم من اللغة المنقول اليها . هذا الايمان خاطىء . وقد ابنا كيف ان الطريقة المثلى ، لتعلم لغة اجنبية ما ، هي ان ينتقل الانسان الى المجتمع الذي يتكلمها . في هذا المجتمع يحدث الترابط المباشربين الخبرة واللغة . فيه يزاول الانسان اللغة الاجنبية ،على غرار مزاولته اللغة ـ الام ... اي انه يعيش الاسم والمسمى ، في آن واحد . هذه الطريقة هي التي انفتحت لها عقول المربين ، اخيراً ، وقد اخذت بهـا المعاهد الغربية الكبيرة . وهي تعني ان الترجمة لم تعد سبيلا من سبل تعلم اللغات الاجنبية .

يبقى ان للترجمة فائدة ... رغم ذلك ... وفائدة عظيمة ، شرط ان تكون اللغة المنقول اليها لغة ـ ام للمترجم . اذ ذاك تفيده الترجمة افادة ايجابية . وتنحصر الافادة في ان هذا النقل يكشف له عن كنوز لغته ـ الام ، التي

كثيراً ما يجهل خفاياها . الترجمة من لغة اجنبية الى اللغة القومية تضع المترجم حيال افكار ممتازة ، ومعان كاملة ، يجب عليه ان يرتفع الى ذروتها العالية ، كي ينقلها – مبنىً ومعنى – الى لغته الام . هـــذا الارتفاع الى شاهق فكر الآخرين ... هذا الكد في اختراق لغتهم ... يستلزم العناء الذي هو حث على التفكير ، تتفتق به اقمطة الجهل ، فيذوب الصدأ عن القلم والدماغ معاً .

قيل : كل لسان بانسان . وهو حق . فحواه ان ابعاد الوجدان تزيد، بمقدار ما يتعلم المرء السنة جديدة . والمقصود باللسان هنا اللسان الغريب عن اللغة الام . هذا التعلم يزيدفي عدد الشرفات التي يطل منها الانسان على لغته – الام ؛ على قوميته . الانسانية ليست خارج الانسان . هي فيه . من العبث ان نفتش عنها في البرانيات . ان زيادة الالسنة تزيد انسانية الانسان . تلك الانسانية التي يقوم ادراكنا لها على التغلغل في الباطن . على التناغم مع الشعور القومي ، الذي يضع الانسان في صميم المطلق . الشبابيك تفتح على الداخـــل . على اللغة – الام . يخطىء من يعتقد ان الترجمة تمكن من كنوز اللغات الاجنبية . لا طاقة لنا على ادراك عبقرية لغة لا تكون لغتنا الام . ونقصد بالعبقرية ملكة الخلق فيها ، بعفوية ندية ، وابتكار ممتاز . هذا الخلق لا يمكن ان يحصل ، بالاساس ، الا في لغة واحدة ... هي اللغة القومية .

تجدر الاشارة هنا الى المبررات التيجعلت الغربيين (كالافرنسيين مثلا) يزاولون ما سمّي - Thème - وهو النقل الى اللاتينية واليونانية ... سيما الاولى . ذلك لان اللغات الاوربية تنتسب الى العائلة ذاتها ، التي تنحدر مناللاتينية واليوناتية. فاذا اطلع الافرنسي على اللاتينية ، وحاول ان ينقل اليها بشيء من الحذر ، كشف له هذا الاطلاع عن حقيقة اللغـــة الافرنسية ، المنبثقة من اللسان اللاتيني . انه يدور في فلك واحد . في عبقرية واحدة . في مجال يعينه على فهم تاريخ اللسان الافرنسي ... كيف بدأ ، وتطور، واستقر . ان الغربي لا يزاول النقل الى اللاتينية ... رغبة منه في التحكم بها كلغة – ام له ... ولكن رغبة

منه في الاطلاع على مخبآت اللغة الافرنسية . ان القرابة اللغوية ، بين هذين اللسانين ، تجيز تربوياً مزاولة ذلك النوع من النقل .
ولكن ما هي الفضيلة التهذيبية ، التي يجنيها اللبناني مثلا ، اذا مارس النقل الى اللاتينية ، باعتبار ان العربية هي لغته ــ الام ؟ هل يكتسب من جراء ذلك رشاقة في انشائه العربي ؟ او متانة في تركيب جمله؟ او براعة في اختيار ألفاظه؟ ان الترجمة ، تفقد كل قيمة ، اذا خرجت عن كونهـــا سبيلا الى اغناء لغة الانسان القومية . انها ترويض لقلم الكاتب في لسانه . هي عجن ، ودعك ، وتليين للالفاظ التي لا تطيعه في لسانه . هذه هي غايـــة الترجمة ، والا زالت مبرراتها . وقد اعطت نتائج حسنة في الادب الغربي . فمعظم الكتاب الفرنسيين مدينون،في تمكنهم من لغتهم ــ الام، لاطلاعهم على اللاتينية .فإذا طبقت شريعة هذا المنطق ، على الطالب اللبناني ، وجدنا ان اطلاعه يجب ان يسدد نحو اللغات السامية . هذه اللغات ، اذا مارس النقل اليها ، بلطافة وحذر ، قد تصل به الى فائدة لغوية في لسانه العربي :

* * *

الترجمة تحدث في مرحلتين : الاولى نلتقط بها المعاني في اللغة الاجنبية . الثانية نكلمن بها تلك المعاني ، من جديد ، في اللغة ــ الام . الترجمة مزدوجة الجهد، اذن . علينا ان نمعن النظر في الاصل ، كي نتحسس الخاطرة البكر . بهذا الامعان نفصل اللحمة عن السداة. نصل الى الغور.نضع يدنا على عفاف المعاني، في الاصل.على ادق نبضاته،وابعد غاياته . هذا هو التلقيح.ثم يأتي دور الوضع لحماً ودماً في اللغة ــ الام . لا شك في ان الاحتكاك باللغة الاجنبية يسمح للمترجم ان يدخل الىمطاوي هذه اللغة. الىخباياها وخفاياها.الى نفسية الشعب الذي يتكلمها . هذا الامر يقوي الصداقة بين المترجِم والمترَجم. يكون همزة وصل بين شعب وشعب . وهو عينه الذي يساعد على نشر الحضارات : لكن

الغابـة الاولى ، والاخيرة ، من الترجمة هي ان ترفع اللغة ــ الأم الى مصاف اللغة المنقول عنها . ان تقيسها بها في اسمى هنيهاتها . الترجمة اصلا هي في خدمة اللغة ــ الام . بهـا نتفهم روح لغتنا ... نتلمس عبقريتها .. ننبش كنوزها المدفونة ... نكشف عن كل مواطن القوة والضعف . بهذه المقابلـة نستشرف حياة قومية اوعى . اذن الترجمة وسيلة لنتمثل اللغة ــ الام ، لا لنتعلم اللغة الاجنبية .

على ضوء هذا نقول بان المترجم ينبغي له الانصاف بحسنتين : عليه اولا ان يدرك بطريقة تامة اللغة التي ينقل منها . وعليه ثانياً ان يدرك ، ولكن بطريقة اتم ، اللغة التي ينقل اليها . ومن هنا كلام اندره جيد :

على المترجم الممتاز ان يعرف ... تمام المعرفة ... لغة المؤلف الذي ينقل عنه . وان يعرف اكثر ايضاً لغته الخاصة به . اعني بذلك ، ليس فقط ان يكون قادراً على الكتابة في لغته ، بطريقة صحيحة ، ولكن ان يدرك دقائقها ، وطواعياتها ، وكنوزها المحجوبة . ولن يقوم بهذا العمل غير كاتب مطبوع . المترجم لن يرتجل [1] .

معنى هذا ان الترجمة الحلوة هي التي تحصل بتصرف . فعلها الاساسي لا يقف عند حد نقل كلمة بكلمة . انها نقل جو بجو ... او مناخ بمناخ ... او روح بروح . نقل عبقرية بعبقرية . ومن هنا كونها عملا قلمياً يتطلب الخلق . الترجمة لا تكون قيداً . هي فعل حر . هي اشتباك قوتين ، صدراً الى صدر ، وكتفاً الى كتف . مثلها مثل خصمين يتسايفان. يتجابهان. الاول (اي المترجَم) كاتب عملاق . وهو البادىء بالتحدي . فعلى الثاني (اي المترجِم) ان يكون عملاقاً . ان يواجه التحدي بتحد مماثل . لقد سيق الى العملاقية . وهو لا يستطيع ان يتعملق اذا كانت الترجمة قيداً . لهذا هي خلق ثان . وقد وصف مصطفى صادق الرافعي ترجمة البؤساء ، التي قام بها حافظ ، قال :

ومن الخواص التي انفرد بها حافظ ، انه ظاهر في صنعة الفاظه ظهور هيجو في صنعة

---

[1] Divers ص ١٨٩

معانيه ، اذ لا تجد غيره من المترجين يتسع لهذا الاسلوب ، او يطيقه . واكثر الكتب المترجمة الى العربية انما تطمس على اسم المترجم ، قبل ان تكشف عن اسم المؤلف ، فلا يحيا الميت الا بموت الحي . وهم في اكثر ما يصنعون ، لا يعدون ان يصححوا العامية ، او يفصحوا بها قليلا ، فيستوي في صنعة البيان ان يكون ناقل الكتاب هذا ، او ذاك ، او ذلك ، لانهم سواسية . ولا تؤتيهم كتبهم اكثر مما يوليك الاسم الملق على مسماه .
غير انك في البؤساء ترى مع الترجمة صنعة غير الترجمة ، وكانما الف هيجو هذا الكتاب مرة ، والفه حافظ مرتين . اذ ينقل عن الفرنسية ، ثم يفتن في التعبير عما ينقل ، ثم يحكم الصنعة فيما يفتن ، ثم يبالغ فيما يحكم . فانت من كتابه في لغة الترجمة ، ثم في بيان الائمة ، ثم في قوة البيان . وبهذا خرج الكتاب وان مترجمه لا حق به في العربية من مؤلفه ، وجاء وما يستطيع احد ان ينسى انه لحافظ دون سواه [1]

• • •

قلنا ، فيما سبق ، ان الترجمة من اللغـــة الاجنبية الى اللغة القومية تضع المترجم حيال افكار ممتازة ، ومعان كاملة ، يجب عليه ان يرتفع الى ذروتها العالية ، كي ينقلها — مبنىً ومعنىً — الى لغته الام . وقلنـــا ايضاً بأن غايه الترجمة ، والحالة هذه ، هي ان ترفع اللغة القومية الى مصاف اللغة المنقول عنها . ان نقيسها بها في اسمى هنيهاتها . ولذا كانت (اي الترجمة الحقة) خلقاً ثانياً . فإذا تمّ ذلك (ونادراً ما يتم) لا تعود الترجمه ترجمة ، بل تصبح من صميم الادب الام — او الادب القومي — اذ تخلد كما لو كان قد بدىء منها تواً .
امـــا الشاهد فلا ينقصنا . نذكر اولا « كليلة ودمنة » تحفة ابن المقفع ، وهي ترجمة .الا انه ابدع ابن المقفع ، وحلق ، في النقل، حتى ساوى الاصل. لذلك لم يبق عمله بمثابة ترجمة. لقد كان خلقاً ثانياً .ومن هنا ولوج «كليلة ودمنة »هيكل الخلود في الادب العربي ، كساعة من ساعاته المكوكبة .

ولنا شاهد آخر ، حديث العهد ، يرسخ ما نذهب اليه ... ويقويه ...

---

١) وحي القلم . الجزء الثالث . ص ٤٢٢

ويدعمه اكثر فاكثر . نعني به قصيدة « البحيرة » للدكتور نقولا فياض ، التي هي ترجمة لقصيدة الشاعر الافرنسي لامرتين . هنا يبين لنا واضحاً عمل الترجمة الخلاقة . امامنا اديبان صحيحان . الاول (اي المنقول) يتحدى الثاني (اي الناقل) . وقد اتت ردة الفعل عظيمة كفعل التحدي ذاته . الناقل من طراز المنقول. ولهذا لم يعمد الى نثر ما نظمه لامرتين شعراً . لقد ضرب الشعر بشعره ضرب الوزن بوزن ، والقافية بقافية . ضرب الجو الكبير بجو كبير ، فجاء النَفَس خالداً في الناقل خلوده في المنقول . لذا صارت هـذه القصيدة من عندياتنا ... من روائع الادب العربي الحديث ... اصبحت من ادبنا السائر .

ماذا نستنتج من هذا ؟ نستنتج ان الادب مبنى قدر ما هو معنى . المبنى هنا صاحب الكلمة الفصل. المعاني وحدها لا تُبقي . ولو كان ذلك ، لنُثر الشعر ، وهان الامر ، وكتب الخلود لصعاليك القلم . ولكن القضية لا تقف عند هذا الحد ، اذ لا وجود للمعنى بدون المبنى . المعنى الجميل جميل بمبناه . والمبنى الجميل جميل بمعناه . هـذا الحد ، اذن ، من خلق الواهمة . لا حد يقف عنده المعنى . ولهذا كان الادب الرفيع يجمع بينهما ، فلا يقبـل المعنى جميلا ، اذا كان مبناه غير جميل . لا ممر ، هنا ، بين المعنى والمبنى .

ظاهر ان المعنى، الذي نقصده، معنى عريق النسب . اذ المعاني على ضربين: ضرب يرف مع الارض ، فلا يسمو . هـذا الضرب في متناول كل واحد . هو لا يستلزم كداً وعرقاً ، في البحث عنه ، لكونه على حبل ذراعنا. لا مجال، اذن ، لكي نبتدع له الاساليب الادائية المبتكرة . نقوله ولا غاية لنا ، الا ان نُفهِم الآخرين ، في سبيل الوصول الى تحقيق حاجة قريبة . اما الضرب الثاني من المعاني فهو الذي يندر وجوده ، فلا يحـدث إلا على ايدي الذين يطاردونه ، بكد وعرق . مثله مثَل اصطياد اللؤلؤ ، في قاع البحار . ولهذا يجب على صياديه، وهم من فئة العباقرة ، ان يبتدعوا له الصناعة النادرة . ذلك

الضرب من المعاني لا يُتنبه له إلا عنـد الامور الجليلة . لذا كان امراً جليلا للغاية ، لا يُتكل فيتأديته على العبارة المفهومة ، فقط ، بل يُتوخى له البيان الجميل ، والا ذهب حسنه ، وطمس نوره .

• • •

٤

لا بد لنا ، في هذا المجال ، من ان نمر لماماً بمسألة اللغتين اليونانية واللاتينية... تلك المسألة التي اثارت ، في الغرب ، من المناقشات ما لا نهاية له . وقد كانت سبباً لانجرافنا في تيـار التقليد ، دون ان نحكم العقل بعض الشيء . انخنا طلابنا لهاتين اللغتين ، ولم نتساءل عما اذا كان هذا العمل جائزاً . ان الطالب الغربي يزاولها ... سيما اللاتينية ... لعلة واضحة ، وهي ان اللغات الاوروبية تنتسب الى العائلة التي تنتسبان اليها . فاذا اطلع الغربي على اللاتينية ،وتبحّر فيها ، كشفت له حقيقة لغته ـــ الام ، واتسعت افاقه ، وانجلت . رغم ذلك ، فقد قامت القيامة عندهم ، في سبيل الحد منها ، وعندنا لم تقم القيامة بعد .

قيل بصدد هاتين اللغتين انهما تحتويان على فضيلة تهذيبية . هذه الفضيلة تنحصر في تدريب العقل البشري على الوضوح ، والمنطق ، والتنظيم ،والاصابة في الرأي ... في تمكينه من التفكير بدقة ، واحكام ، وجلاء . وقد سرت هذه العقيدة ، مدة طويلة ـــ في رقعة الغرب ـــ فكانت الاساس الاول للتربية المدرسية . واذا رجعنا الى حياة برغسون ، رأينامحاولات شديدة قام بها في

سبيل اظهار قيمة اللغة اللاتينية خاصة [١] . فقد كان من الداعين الى تدريب الطالب بقوة على هاتين اللغتين ، لكي يكتسب الوضوح في التفكير ، والجلاء في التعبير .

ولكن علماء الغرب لم يتركوا هذه العقيدة بدون تمحيص . لقد سيطرت زمناً طويلا ، على العقول المحافظة ، ثم راح العلماء يبينون ان تلك الفضيلة التهذيبية في اللاتينية واليونانية شيء مزعوم هذه الفضيلة موجودة ،هي ايضاً ، في اللغات الحديثة . لا افضلية للغة على لغة . ان لغات البشر كلها تحمل فيها الفضائل التهذيبية ، التي تحملها اللاتينية واليونانية . جميعها تحمل الامكانات الادائية ، ضمن عبقريتها ، شرط ان يريد الشعب الذي يتكلمها ، ان تحقق هذه الامكانات . لا زعامة في عالم اللغات ، ولا عبودية ايضاً . لكل لغة عبقرية خاصة ، ينفذ منها الشعب الى المطلق العام، شرط ان يتمنى ذلك ، وان يعمل في سبيله .

* * *

ان الذي يعود الى تاريخ المناقشات ، التي دارت حول تينك اللغتين خاصة — واللغات الميتة عامة — يرى بوضوح ان نفوذهما قد انكمش كثيراً عما كان عليه . لم يبق لهما من مدافعين الا الذين استحوذ عليهم طيف التقاليد . اذ ما النفع من فرضهما على الطالب ؟ اما الفضائل التهذيبية ، التي يتذرع بها المحامون، فهي من نسج الخيال . نحن لا نعلم لماذا يجب ان يكون ، عند تلك اللغات ، ما لا تستطيعه غيرها . ما الحكمة في الطبيعة من ان تحصل اللاتينية على ما لا يجوز لسواها ؟ ما الغاية من تصنيم اللغات القديمة ؟ ان القول بكون اليونانية ، واللاتينية ، رياضة ذهنية ممتازة ... بانهما تساعدان الطالب على اقتناص المعاني

---

١) راجع كتابه Bergson Educateur تاليف Rose - Marie Mossé - Bastide الفصل التاسع . Presses Universitaires ١٩٥٥

من الكلمات – كما يريد برغسون – وانتزاع الافكار من الرموز اللفظية ...
هذا القول لا يبرر فرضهما على الطالب .

ان التربية الحديثة تتجنب حشو الذاكرة ... تتحاشى الترف الذهني ...،
وتنصب دفعةً على الذي ينفع الطالب . ما هي المنفعة من تعلم هاتين اللغتين ؟
لا منفعة بدليل كونهما ميتتين . الاجدر ان يُحتفظ بهما لرجال الجامعة، وحدهم ،
الذين يريدون التنقيب في الآثار القديمة . لا شك ان الرجوع اليهما ذو فائدة
تاريخية ، للذي يبتغي الاطلاع على دقائق الماضي . اما الفضائل التهذيبية، فهي
موجودة في اللغات الحية ، التي نحن بامس الحاجة اليها . الا نرى في الالمانية،
والانجليزية ، والعربية ، والفرنسية ، ما هو قادر على تربية الفكر ، وانماء
العواطف ، وتقوية الثقافة الذهنية ؟ يقول جون لوك :

عندما يتمكن الولد من التكلم بلغته – الام ، يحين الوقت لأن يتدرب على لغة اخرى .
ولا احد يشك ، عندنا ، في ان الفرنسية هي اللغة ، التي يجب على الولد ان يختارها . ذلك
لأن الفرنسية هي لغة حية ، تستعمل في الاحاديث ، اكثر من غيرها . على الولد ، اذن ،
ان يبدأ بهـــا ... ومتى اصبح يتكلم جيداً ، باللغة الفرنسية ، ينتقل بعد ذلك الى اللغة
اللاتينية ... تلك اللغة التي اعتبرها لزوم ما يلزم ، في تربية (الخواجات) ... [١]

نلاحظ كيف يضع لوك اللغة ـ الام في الدرجة الاولى . ذلك لما تفرضه
الحياة على الانسان من قوانين حاتمة . اللغة القومية هي المطل الوحيد ، الذي
يشرف منه الوجدان على اوابد المطلق . وهو ما اجلينا غوامضه في الباب
السابق . ومن ثم ينتقل لوك الى القول بضرورة تعلم الولد لغة اجنبية ، حين
تأتي المناسبة . وللمناسبة وقت معين ، لا يجوز لنـــا ان نتلاعب به ... ان
نتصرف به اعتباطاً . هذه المناسبة تأتي بعد ان يتمكن الولد من لغته القومية .
وهو ما اجلينا غوامضه ، ايضاً، في الباب السابق . ولم يذكر لوك اللغة اللاتينية
الا في الدرجة الثالثة ، اي اخيراً ، باعتبار انها واجبة فقـــط لذوي الترف

---

١) راجع كتابه Pensées sur l'Education ص ٢٠٤ . طبعة ١٨٨٩ ترجمة Gabriel Compayré

وكأني به يقول : لا منفعة عملية ترجى من الانغماس في اللغات القديمة.

الذهني . والواقع انها بدون منفعة ، لان مجتمعها قد زال من الوجود . واللغة ، التي لا مجتمع لها تزاول فيه ، هي حقاً لغة ميتة ... هي غزل دخاني في جو من الضباب . تلك هي المثالية الخرقاء . لقد وضع لوك المنفعة قبل الترف ، اي العمل المجدي قبل حشو الذاكرة . رأى ان اللغات الحية هي افضل من اللغات الميتة ، لانها حية ... يعني لانها تتجسم على الارض في بيئة معينة . لو كان للغات الميتة فضيلة تهذيبية ، ليست لدى غيرها ، لما اندثرت ، واصبحت ميتة . الحياة تنازع بقاء. الافضل يظل ، وسواه يرحل. تلك هي قاعدة النشوء والارتقاء ، في نطاق القوى البشرية .

لقد كانت اللغات القديمة لزمن غير زماننا . عاشت في جو غير جـــونا . وخضعت لنواميس اجتماعية غير نواميسنا الاجتماعية . وعكست حيوية بيئات غير حيوية بيئتنا . ثم دالت دولها ، وانقرضت شعوبها ، فكان من الطبيعي ان تناخ لقانون التطور . وها هي غائبة عن مسرح الحياة ... غائبة لان مجتمعاتها قد غابت . واللغة ، التي لا تتمظهر في السنة بشر ، يكوّنون مجتمعاً حياً ، ليست بلغة . ان اعطاءنا للغات القديمة تلك الفضيلة التهذيبية ، التي يدعون ، تنبثق من المبدأ الخاطىء القائل بفصل اللغة عن الانسان . يزعمون ان اللغة موجودة بمعزل عن المرء ، كما يزعمون ان المعاني موجودة بمعزل عـــن الكلمات . هذه المثالية الجوفاء هي التي ابعدتنا عن واقع الحياة ... عن صريحها .. عن بسيطها ... لننسج لها اطاراً من الخيال المريض ، الذي لا يتفق مع حضيضها .

قال جول لومتر Jules Lemaitre :

ما هو ذلك الكنز المشهور من المبـــادىء العامة ، التهذيبية ، التي احتكرتها اليونانية واللاتينية ؟

لا اتكلم عن اليونانية ، التي لم يعرفها جيداً – حتى في مرحلة التعليم العالي – الا بعض الاختصاصيين . اما اللاتينية فاين كنزها ؟ انا لا ارى فيها ذلك الكنز المزعوم انه الوحيد، الذي لا يقوم شيء مقامه . ذلك الكنز اراه فقط في بضع صفحات من لوكريس تتجلى

فاشهدتها انها داروينية النزعة بابهام . ولي بضع قطع من كتاب فرجيل المعروف بجورجيك . قطع لا توازي هذا او ذاك مما كتبه لامرتين ، او ميشليه ... كلا ! اشعر جيداً انني لست مديناً ، في تهذيب قلبي وعقلي ، للاغارقة ولا للرومان . اذا كان ، والحالة هذه ، قد تفلت مني ما استطعت ان انتفع به من اللغة اللاتينية (انا الذي اجدت معرفتها منذ خمس وعشرين سنة) فماذا ينتفع تسعة اعشار طلابنا ، الذي يلوح انهم يتعلمونها ، ولكنهم لا يعرفونها ، ولا يستطيعون ان يعرفوها [١]

هذا كلام احد بطاركة القلم ، عند الفرنسيين . لاحظ ان ادب هاتين اللغتين لا يختلف بشيء عن باقي الآداب الحديثة ، مما يجعله ذا فضائل تهذيبية احسن. اضف الى ذلك ان معرفته لهما لم تدرك الحد الوسط . السبب ؟ لا مجتمع يزاولها فيه . اذن ما الفائدة من ان يرهق الانسان ذاته في دراسة لغات ، لا تأتي عليه بنفع ، الا في حقل من التخصص الضيق ؟ الا تشتمل اللغات الحديثة على تلك الفضائل التهذيبية ؟ اتكون هاتان اللغتان (اليونانية واللاتينية) من عمل السماء، وتكون باقي اللغات الحية من عمل الارض، حتى تحرم الفضائل التهذيبية ؟نقول ما من لغة بشرية الا وتحمل فيها تلك الفضائل التهذيبية ، ضمن عبقريتها . لا زعامة في عالم اللغات ، من حيث الجوهر ، ولا احتكار . لا اقطاعية ، ولا عبودية . لا امة ، ولا ست بيت . لكل لغة مزاج ، وطباع ، ينفذ منها شعبها الى المطلق العام .

ان الانسان العشريني لم يعد كانسان القرون الغابرة ، ضيق الفكر ، يشرف على الوجود من منظار ، زجاجتاه اللاتينية واليونانيـــة . الحقيقة ليست فقط في حضارتي اليونان واللاتين . هي اوسع من ان تحصرها صابورية عصر واحد . اوسع من ان تنحصر في هاتين اللغتين، اللتين تتمتعان باسبقية مزعومة، وفضائل تهذيبية موهومة . لقد انهارت ، من زمن بعيد ، الاسطورة القائلة بان الذهن اليوناني ، او اللاتيني ، هو احسن الاذهان ... هو انبلها ... هو ارفعها ، واقدسها . اصبحت نظرة الانسان في الوجود ارحب بكثير من ان تسعها لغتان.

---

١) راجع كتاب Gustave le Bon. Psychologie de L'Education ، ص ١٦٤ Flammarion ١٩٣٦

واذا كان التبحر في اللاتينية، مثلا ، يفيد الذين يتكلمون اللغات الهندواوربية لانه يكشف لهم عن جوهرلسانهم ، فاحرِ بنا ان نتبحر فيالسريانية،والعبرانية، والفارسية ، لنضع بين ايدينا مفاتيح اللغة العربية .

• • •

لا شك في ان هاتين اللغتين قد ساعدتا ، يوم كانتا حيتين ، على ايجاد عقول نبيهة وقلوب فاضلة . لقد اخرجتا اذهاناً نيرة ، استضاءالتاريخ بحكمة رشدها . وهو الدليل الى انهما قامتا بواجب التربية القومية ، في سبيل انشاء جيل طالع . لكن هذا شيء، وابقاءهما على القاعدة ذاتها شيء آخر . لقد تحول العالم عما كان عليه . تطور وفق ناموس النشوء والارتقاء . ترك قميصاً ، بل قمصاناً ، ولبس قميصاً ،بل قمصاناً أخرى . فهل يعقل ان يسير ورائياً ؟ ان يتقدم خلفياً ؟ متى زال المجتمع من الوجود ، اصبحت جميع مظاهره الحضارية وثائق تاريخية.هذه الوثائق لا ُتعاش ،وانما ُيرجع اليها كاداة صالحة، يتلهى بهـــا الاختصاصيون من العلماء .

نعود الى القول بان تصنيم اليونانية ، واللاتينية ، عائد الى عدم الاعتراف بوجوديةاللغة...اي بلزوم تجسيمهافيوجود انساني،ووجود اجتماعي...الى عدم التسليم بان اللسان كيان حنجري ، لا مجموعة الفاظ مثالية . لقد زال الانسان اليوناني ، وزال المجتمع اليوناني . زال الانسان اللاتيني ، وزال المجتمــع اللاتيني . زال الاطار الارضي لتلك السماء العامرة بالنور . ولذا زالت سماؤها ايضاً . قيمة اللغة في انها اختبار يتحسسه المرء ، لحماً ودماً . قيمتها في انها تخفف من آلامه . وتفجر من ينابيعه . وتفتح المنافذ لكبته ، حتى ينفس . قيمتها انها توصل وجداناً بوجدان . انها تقيم التفاهم بين قلبين . اما اذا لم تكن شيئاً ، من كل هذا ، فاين محصولها ؟ اين قيمتها الوجودية ؟ تبقى وثائق للتاريخ ، يعاد اليها في سبيل الاطلاع على الماضي .

الغريب في الامر ان العصور القديمة لم تشعر بهذه الفضائل التهذيبية . مجتمع القرن السادس عشر ، والسابع عشر ، لم يذكر ان للغة اللاتينية من الصفات المتفوقة ، ما نحاول اليوم ان نعطيها اياه . لقد كانت هذه اللغات ، في حينها ، كما هي اية لغـة من اللغات الحديثة : اداة تفاهم بين الناس ، وسبيل للتخفيف عن النفس . اذا كان الشعب اللاتيني سعيداً ، في زمانه ، فلانه لم يدرس غير اللسان اليوناني . وكان يأخذ ذلك اللسان من افواه اليونانيين ذواتهم ، كما نأخذ نحن اليوم اللغات الحديثة ، من مجتمعها فوراً . واذا كان الشعب اليوناني اسعد ايضاً ، من اللاتين ، فلانه لم يدرس لغة ماضية لها فضائل تهذيبية ، ليست في لغته اليونانية . فلماذا يريدون الا تكون في لغاتنا الحديثة فضائل تهذيبية ، كتلك التي كانت تتمتع بها ؟ لماذا يريدون ان نصنم نحن تينك اللغتين ، على حين ان شعبيهما لم يفكرا يوماً باعطائها تلك الفضائل؟ تتجه التربية اليوم نحو التوفيق بين دروس اللغة ودروس الاشياء . فمن الخطأ اناخة الطالب ، اللين العود ، لآداب لا يستطيع ان يتحسس في مجتمعه مـا تتحدث عنه . وكيف يمكن ان يحصل ذلك في تعليم اللغات القديمة ؟ اللغة مرآة تعكس روح المجتمع . هي والمجتمع شيء واحد ، كما هي والانسان شيء واحد . وما دام المجتمع اليوناني ــ اللاتيني قد زال من الوجود ، لم يعد من مبرر لفرض لغتهما على غير الاختصاصيين . قيمتهما محصورة في انهما وثائق تاريخية ... في انهما سبيل رجوع الى الماضي . ما عدا ذلك لا خطورة لهما ؛ لا وزن . ولا ضخامة .

* * *

الفصل الثالث

في اللغة العربية

الباب الأول

في العامية والفصحى

يبقى ان نعالج من معضلة اللغة ناحية هامة ، كثيراً ما طرحت على بساط البحث. نعني بهذه الناحية « ازدواجية العامية والفصحى » ... ومن الافضل ان نسميها «مشادة بين العامية والفصحى» . هذه المشادة ذات سجل بعيد في تاريخ لغتنا القومية . وهي تتراوح ، في ماضي العربية وحاضرها ، بين فئتين متنازعتين : الاولى تدافع عن الفصحى ، وتعتبر العامية انحطاطاً . الثانية تدافع عن العامية ، وتعتبر الفصحى انحطاطاً .

١

بعد ان خرجت اللغة العربية من الجزيرة على اثر الفتوحات ، انتشرت في بلاد اعجمية كالفرس ، والروم ، وغيرها . فادّى ذلك الى وقوع اللحن في قراءة القرآن . لهذا اسرع العرب الى وضع النحو ، ليحفظوا به اللغة من الفساد . وقد افاض ابن خلدون في ذكر هذه الاسباب ، التي حدتهم على انشاء علم النحو. قال في مقدمته ما فحواه :

لما جاء الاسلام ، وفارق العرب الحجاز لطلب الملك الذي كان في ايدي

الامم والدول ، وخالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة ، بما القى اليها السمع من المخالفات ، التي للمستعربين . والسمع ابو الملكات اللسانية . ففسدت بما القي اليها مما يغايرها لجنوحها اليه باعتياد السمع . وخشي اهل العلوم منهم ان تفسد تلك الملكة راساً ، ولطول العهد بها ، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم. فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة ، شبه الكليات والقواعد ، يقيسون عليها انواع الكلام . ويلحقون الاشباه بالاشباه ، مثل ان الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، والمبتدأ مرفوع . ثم راوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته اعراباً ، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا ، وامثال ذلك . وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم . فقيدوها بالكتاب ، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة . واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو[1] .

وقد روي انه جاء مرة قوم الى زياد ، فقالوا : اصلح الله الامير ! توفى ابانا وترك بنون . فانصعق زياد لهذه الاخطاء الفاضحة ، وطلب ابا الاسود الدؤلي فقال : ضع للناس العربية . هم يلحنون في القرآن ، فلو رسمت لهم رسماً . ان المراضع من الموالي قد افسدوا السنة الذين ارضعنهم من العرب .

ويحكى ايضاً ان ابا الاسود الدؤلي دخل يوماً الى منزله . فقالت له بعض بناته : ما احسنُ السماء ! قال : ايّ بنية ، نجومُها . فقالت : اني لم ارد اي شيء منها احسن ، وانما تعجبت من حسنها . فقال : اذاً فقولي : ما احسنَ السماءَ . وحينئذ وضع باب التعجب في علم النحو[2] .

هذا بعض ما حدا العرب على وضع النحو . وقد تمّ لهم ذلك كما ارادوه . لكن هذا التقيد لم يصنها من اللحن ، ولم يضبطها على السنة الناطقين بها . ولقد حاولت مراراً ان تفلت من قيود الاعراب في جميع العصور ، التي تعاقبت

---

١) ص ٥٤٦ الباب السادس . الفصل السادس والثلاثون .

٢) راجع إنباه الرواة على أنباه النحاة . تاليف القفطي ص ١٦ الجزء الاول القاهرة ١٩٥٠

عليها ، بعد ان سنّت شريعة النحو . ولم يستفحل الهجوم على النحو الا في الآونة الاخيرة . قال احد الدعاة الى العامية ما يلي :

للغة حياة ، وهذه الحياة هو العنصر الانساني . ان الفصحى ليست لغة الكلام ، فلا يرجى منها ان تعبر عن الحياة بحلاوتها ، ومرارتها ، وقسوتها ، ولينها ، كما تستطيعه العامية . والدليل ظاهر ، فانك لا تستطيع ان تقول بالفصحى ما تقوله في العامية ، واذا نقلته الى الفصحى اتى جافاً قاسياً خلواً من العنصر الانساني العميق باللغة . تصور على المسرح فلا حاً يتكلم الفصحى ، او سكيرا يتكلم الفصحى ، او خادمة تخاطب سيدتها بالفصحى ، او نجيب حنكش يقص اقاصيصه الزحلاوية ، البرازيلية ، بلغة الزمخشري . وسعيد فريحه في نكات يقصها بالفصحى ، او المجلات المصرية تنقل كلام « ابن البلد » الى الفصحى ١

* * *

هاتان الفئتان ما زالتا تتنازعان المشكلة . الاولى تبالغ في تصوير خطر العامية ، والثانية تهون كثيراً قيمة الفصحى . يقيناً منا ان هذه المشكلة تتعدى نطاق اللغة ... وتتجاوز حنكة الصرفيين ، والنحويين ، والبيانيين ، لتدخل في نطاق الفلسفة . تخبطهم حولها ناجم عن انهم لا ينظرون ، فلسفياً ، الى الامور الكبيرة في اللغة . ان كل بحث في اللغة (سيما اذا كان يرمي الى انقلاب جذري) هو بحث فلسفي بالجوهر . نحن عاجزون عن ان نعدل منطق الحياة بغير منطق الحياة . يعني ان اموراً كهذه لا تبت حول طاولة مستديرة ، وبطريقة تعسفية . علينا اذن ان نكيف اهواءنا ، وفق ما يقتضيه منطق الحياة القويم ، وذوقها السليم . أجل ، ان البحث في العامية والفصحى اقرب الى الفلسفة منه الى اللغة . فهو يتجاوز ، كما قلنا ، الصرف والنحو ... يتجاوز البيان ... ليدخل تحت قبة الانطولوجيا في النهاية . هو يعكس موقفنا من الانسان كله . من الوجود عامة .

---

١) « نحو عربية ميسرة » تاليف انيس فريحه . ص ١٣٣ .

من اخطر معضلات هذه الحياة التي نعيش فيها . نعني بذلك ان علم اللغة وحده لا يستطيع ان يميط اللثام عن حقيقة العامية والفصحى ... أن يميل بنا ايجابياً الى الفصحى، او الى العامية . هل بمقدورنا ان نحدد – على اساس اللغة فقط – ما هي الفصحى ، وما هي العامية ؟ اين تبتدىء الاولى ، واين تنتهي الثانية ؟ ولماذا وجد هذا التنازع بين العامية والفصحى ؟

نحن لا نرى فرقاً ، على الاطلاق ، بين الحركة والسكون ... بين الجيم والراء منفصلين ... بين مطلق حرف وحرف ... او كلمة وكلمة ... لو لم تكن هذه اللغويات مواجيد فكرية – نعني وجدانيات – اي مواضعات نفسية هي من صميم الكيان الانساني ذاته . اما اثبتنا ان الجملة كلام مفيد، اي كلام يرمي الى دلالات ذات مقصد ؟ وهل المقصود الا رأي في النفس البشرية ؟ وقد ظهرت هذه الناحية الفلسفية في قواعد النحو . ان الفتح ، والضم ، والكسر ، اشارات . واما النصب ، والرفع، والجر ، فعان . الاولى مواضعات صوتية.: هذا صرف . الثانية عوامل وجدانية ... هذا نحو.وسنوضح ، فيما بعد ، ماذا نقصد بقولنا ان النحو فلسفة الصرف . الجواب الذي نسارع الى اعطائه ، منذ الان ، هو التالي : لا نستطيع ان نقضي على الفصحى في سبيل العامية ، ولا على العامية في سبيل الفصحى . كلتاهما ، الفصحى والعامية ، من معطيات الوجدان البديهيـة . ويقوم خطأ الفئتين المتنازعتين على انهما تميزان – في الطبيعة لا في الدرجة – بين الوجدان واللغة ... على انهما تعتبران اللغة واسطة لا غاية ..: اي شكلا خارجياً فقط ، يمكن استبداله بشكل آخر ، دون ان يمس جوهره : تعتقد هاتان الفئتان ان اللغة غلاف للمعاني ، لا يربطه بمضمون الرسالة شيء من الباطن ... تعتقدان ان اللفظة كبسول تتضمن الفكرة ، دون ان تكون الفكرة .هناك ،على زعمهما ، فكر مجردة عن اللغة . ظاهر ان مثل هذه الاقوال تعني ان اللغة وسيلة . وما دامت هي هكذا ، اي كبسولا او قشرة ، لا شيء يمنعنا من ان نتصرف بالكبسول او القشرة ، كما تشاء ميولنا .

اما نحن فقد قلنا كلمتنا صريحة ، خلال الفصلين الاولين : قلنا بان اللفظة والفكرة شيء واحد . الفكرة لغة لم تتقرطس ، واللغة فكر مقرطسة . لا لغة بدون فكر ، ولا فكر - مهما نأى في التجريد - الا وهو لغة . وقد عنينا باللغة شيئاً اكثر من قرع الشفتين ... شيئاً هو من ريق الوجدان عينه . في رأينا ان اللفظة ليست كبسولا ، متى فرقعت ، تسيأت . الكبسول هو ايضاً فكرة . وهذا يعني ان الازدواجية في اللغة ، هي ذاتها امتداد لازدواجية في الوجدان . اذن اللغة العامية دليل وجود فكر عامي . واللغة الفصحى دليل وجود فكر فصيح .

* * *

٢

لا شك ان للغة حياة ، وان الحياة هي العنصر الانساني . ولكن ما هي الحياة ، وما هو الانسان ؟ في الجواب ، عن هذا السؤال الضخم ، حل نهائي للمشادة بين العامية والفصحى . لقد كان من واجب اللغويين (ما داموا يعرّفون اللغة بالحياة والعنصر الانساني) ان يتفلسفوا حول هذين المفهومين . اذ كيف نستطيع ... حسب قولهم بالذات ... ان ندرك حقيقة اللغة ، اذا كنا نجهل الحياة ، ونجهل العنصر الانساني ؟ وهل البحث في الحياة ، والانسان، الا بحث فلسفي خالص ؟ ماذا تقول لنا الفلسفة ، اذن ، عن الحياة ؟

تقول بان الحياة ليست بسيطة كما نعتقد . بانها ليست خطاً واحداً . الحياة جدلية الحركة . اي مزدوجة الاتجاه . هناك السلب والايجاب ، في تدافع مستمر ، وتصاهر دائم . فيها العقل ، وفيها القلب . للاول اسلوبه ، وللثاني

اسلوبه . هناك لغة العواطف القريبة المنال . وهناك الافكار البعيدة الاحراك ؛ هناك النادر ، وهناك المبتذل . هناك العريق (هذا فصيحها) . وهناك المشاع (هذا عاميها) . ولقد صوب (هيجل) كل نشاطه الفكري نحو اظهار التناقض في قوانين الحياة . قال بانه يجب علينا التسليم بوجود مبدأين ، يتنافى دفعة" كل منهما مع الآخر . وكان قد سبقه (ارسطو) و (كانت) الى الاعتراف بتراكيب ثنائية ... والى القول بالتالي ان التنافي — او التناقض — هو الدليل على وجوب نقد العقل البشري ، وتحديد نطاق عمله في سبيل ادراك المعرفة . ولا ضرورة الى عرض النتيجة السلبية التي قدمها لنا (كانت) . قال بان العقل لا يقوى ، بسبب هذه التراكيب الثنائية ، على ان يتجاوز حد الظواهر . اما (هيجل) فقد رأى ، على العكس ، ان تقدم الانسانية مرتبط بالتناقض الموجود بين القوانين الوجدانية . كل نوع من التناقض يعود الى هنيهة من هنيهات الوجدان . اذ لا يمكن ان نحصر هذا في خط واحد جامد ؛ الوجدان حركة تطورية خلاقة ، يتحول بها من وجود الى لا وجود ... ومن لا وجود الى وجود . كذلك الضد يظهر حسنه الضد . يعني ان الضد يخلف الضد . ولا يتم ذلك مطلقاً ، بحذف احد الطرفين ، في سبيل الآخر . فمن الطبيعي ، والحالة هذه ، ان تتقرطس الوجدانيات البعيدة لغة فصيحة ، وان تتقرطس الوجدانيات القريبة لغة عامية . كما في الحياة كذلك في اللغة : كلما ضرب الفكر ، في الندرة ، استلزم لغة فصيحة . وهل البيان الا ندرة؟ وهل فن الكتابة الا صياغة ؟ الا فن جميل ، غايته الدقة في التعبير ، والسلامة في التفكير ، والابداع في الصورة ، والجمال في الالوان ؟ ومن هنا كون السمو في الكتابة نادراً جداً . فهل يعقل ان يسكب هذا الادب الرفيع ، في لغة كل يوم ، وفي الفاظ كل ساعة ؟

لنعد الى الانسان ، الذي هو اصدق تعبير عن حقيقة اللغة : ولنعد الى الطفل، من الانسان ، الذي يلخص لنا المراحل الماضية في تاريخ البشرية . الطفل

صورة مصغرة عن ذلك التاريخ . اطاراته هي ذاتها اطارات الاجيال الغابرة .
يبدأ كما بدأ الاولون ، ويترعرع كما ترعرعوا . مراقبتنا للطفل تعيننا ، اذن كثيراً ، على ان نتلمس بدء الكلام ... وتطوره ... واستقراره . لنتساءل ، والحالة هذه ، كيف يبدأ الطفل بالكلام .

الجواب هو هذا . تبدأ اللغة ، عند الطفل ، اصواتاً ... ثم الفاظاً متقطعةً ، لا روابط فيما بينها ... واخيراً جملا مفيدة بمعنى النحو . تبدأ لغة حس ، لغة ذات فردية . وتنتهي لغة عقل ، لغة ذات مجتمعية . تبـدأ لغة حاجات بيولوجية ، وتنتهي لغة منطق مجرد . تبدأ رص كلمات ، وتنتهي رصف جمل . ما معنى كل هذا ؟

يبدأ الطفل بقوله - بابا - وهو يقصد بذلك ان اباه قد حضر من الخارج ، او انه يحضر . وقد اسمى هنري فالون هذا النوع الوجداني ، عند الطفـل ، بالاضمار اللغوي او « الاضمار في اللغة » .وهو يرجع الى كون الاشياء والحقائق غير واضحة لدى الطفل ... والى كون عقله يجهل بعد كيف يستخدم الاشياء، بحيث يعيدها في النهاية الى بضعة عناصر وشروط . وقد اعطى فالون عـدة امثلة على هذا الاضمار في اللغة . نذكر منها الآتية :

الراشد – اشر الى شعرك ؟

الطفل – (يشير الى شعره) .

الراشد – ما هو الشعر ؟

الطفل – لا ادري .

الراشد – ماذا افعل ؟ (يجذب خصلة من شعر الطفل)

الطفل – شدّ .

الراشد – اباستطاعتك ان تقتلع الشعر ؟

الطفل – كلا .

الراشد – هل ينبت الشعر من جديد اذا اقتلع .

الطفل ــ كلا .

الراشد ــ الا ينبت مطلقاً ؟

الطفل ــ كلا .

ويقول فالون : لعل الطفل قد اقتصر على التعبير بكلمة واحدة عن الحدث ، الذي وقع عليه ، دون ان يزيد فاعلا الى الفعل . وذلك بسبب موقف سلبي متصل بتأثير سيء . ويعطي فالون مثلا آخر ، هو الآتي :

الراشد ــ هل يمكننا السير على الشاطىء ، الى الامام في خط مستقيم ؟

الطفل ــ كلا .

الراشد ــ لماذا ؟

الطفل ــ انه ماء .

وقد لاحظ فالون ان الطفل لا يبين هنا ، الا سبب عدم القدرة ـ بصورة مقتضبة جداً ـ تاركاً للسامع ان يخمن الباقي ... كيف ولماذا لا نستطيع[1] .

يفتتح الطفل حياته اللغوية بكلمات مفردة ، يقصد بها ما نقصد نحن بالجمل . يقول : طاولة ، ويقصد بذلك ان يضعه ابوه عليها . يقول : باب ، ويقصد بذلك ان تفتح الخادمة الباب . يقول : امبو ، ويقصد بذلك انه يريد كوباً من الماء ليشرب . وهو كثيراً ما يستعين بالاشارات ، ليدعم الكلمة المفردة . ثم ترتقي لغة الطفل ، لتصبح ثنـــائية الكلمات ، فثلاثية الكلمات ، ولا يدرك الجملة وفق المنطق . فهو يرتبها بشكل يتفق مع الاهمية ، التي تكون لكل كلمة . يقول مثلا : خبز بدي آكل . لقد قـــدم « الخبز » باعتباره اكثر عناصر الجملة اهمية في نظره .

واول ما نلاحظه ، في تطور اللغة عند الطفل ، ظهور اسماء الذوات ، بادىء بدء . ثم الافعال . ثم الصفات . ثم الضمائر . واخيراً الحروف وما يشبهها من

---

١ راجع كتاب Les Origines de la Pensée chez l'Enfant. Henri Wallon ص ٢٣ الجزء الاول . باريس ١٩٤٧

ظروف ، واسماء الشرط . لذا تبدو جمل الولد ، في اول الامر ، عارية من الروابط والحروف . اما السبب في ذلك فهو راجع الى كون اللغة ترتقي وفقاً لارتقاء الفكر . اذ هي الفكر ذاته ، والفكر لغة صامتة . ودرجة الارتقاء تبدأ من الحس. والحس متقطع ، كالكلمات المفردة . لذلك يقتصر متن لغته ، في البداية ، على اسماء الذوات التي هي الفاظ مفكفكة . ثم ينمو صعداً من الحس الى العقل ، فيدرك ان للكلمات مدلولات ، هي امور معنوية . هنا تبدو الافعال (التي تعبر عن الزمان) وتظهر الصفات (التي تعبر عن اشكال عارضة تتلبس بها الذوات) . ولما كانت الحروف ادق الذهنيات ، في النشاط العقلي ، فقد جاءت آخر الامر كروابط فيما بين الكلمات . هـــذا النمو المتدرج من الحس المتقطع الى العقل المترابط ــ اي من الكلمة المفردة الى الحروف ــ هذا النمو قلنا هو الذي دفع بالكثيرين من علماء [1] اللغة الى قسمه ثلاث مراحل :

اولا ــ مرحلة الاسماء ، التي تعبر عن الاشياء او الاشخاص.

ثانياً ــ مرحلة الافعال ، التي تعبر عما يحدث في الاشياء، او عما يفعله الاشخاص.

ثالثاً ــ مرحلة الحروف ، التي تعبر عن الروابط الكائنة بين الاشياء ، او عن العلاقات الموجودة بين الاشخاص .

تجدر الاشارة، ههنا، الى ان تطور اللغة عند الطفل يعكس ايضاً تطور الفكر ذاته . الفكر او الوجدان (اي اللطيفة البشرية كلها) تنطلق من الشعور بالمادة عن طريق الحواس ، ولا تدرك الذهنيات المجردة الا في المرحلة الثانية . تبدأ بالجامد ، بالمتحرك ، ثم تنتهي بالروابط . نقول اذن بان الطفل ينمو متدرجاً من ادراك حسي تلقائي الى ان يأتيه التروي مع تلك الموهبة ، التي يحلل بها المعقولات ، والمفاهيم، بشكل منطقي . حينئذ يعبر تعبيراً كاملا ، اي بجمل مفيدة. حينئذ يقول : « وصل والدي الى البيت » او « حضر والدي » . لقد نشأت العبارة

---

١) راجع Henri Delacroix في كتابه Le Langage et la Pensée ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥ باريس Alcan ١٩٢٤ .

ـ بابا ـ خلال تدرج الطفل ، باقصائه للعنصر الذاتي الحسي الفردي . لم استطاعت هذه العبارة ان تصير بدورها جديرة بالجملة النحوية ، حين ضمّ فعل اليها . التطور ، اذن ، يبدأ من لغة ، هي رص كلمات لا روابط فيما بينها ... الى لغة ، هي رصف جمل تتماس كلماتها فيما بينها . نقــول هذا ، مع الاشارة الى ان القطيعة المبرمة لا تحصل ابداً ، خلال الحياة ، بين هاتين الطريقتين في التعبير . ان اللغة الذاتية التلقائية لا تستقل عن اللغة النحوية المنطقية . هما ، في حياة الانسان ، متلازمتان .

• • •

هذا التطور من لغة الحس المفككة المفاصل ، الى لغة العقل المرتبطة المفاصل ... هذا التطور ما هو خط واحد ، عند الطفل ، ولكنه متشعب مزدوج . نعني ان الانسان لا يترك لغة الذات الفردية ، بعــد ان يدرك لغة المنطق الاجتماعية . هاتان اللغتان (اللغة الحسية واللغة العقلية) يمثلان ، في حياة الانسان ، شكلين مختلفين من التفكير . والمقصود بالتفكير ، هنــا ، مجموعة العادات التي يفتعلها الفكر في اشرافه العام على عملياته ... او ، كما يقول بوانكاره ، في الاشراف على لعبة الشطرنج جملةً .

مثلا على ذلك . لنأخذ الماء. الماء ، في نظر الوجدان الحسي، مظهر من مظاهر المادة يرضي حاجة عضوية . هو سائل يشرب عند العطش . المــاء ، هنا ، معزول عن باقي الطبيعة الخارجية. لكنه، في نظر الوجدان العقلي ، مادة طبيعية يمكن ملاحظتها ، واختبارها . هذه المادة لها خواصها ، وحركتها ، التي تهيمن عليها قوانين معينة يمكن دراستها . ولذا لا نستطيع ان نفهم الماء فهماً عقلانياً ، ما لم نرجع ذلك السيال الى شبكة المنظومات الطبيعية ، التي ترتبط به وفق علاقات محدودة . الوجدان الاول لا يرى ، في الماء ، غير صورة حسية . قانونه الارضاء العضوي المباشر. الوجدان الثاني لا يرى ، في الماء ،

الا جزءاً من العالم الخارجي . قانونه الارضاء الذهني غير المباشر . هذان التفكيران يختلفان في طريقة تأدية الوظيفة . اليك اوجه الاختلاف :

ـ الوجدان الحسي اقرب الى الحدس ، واشد تأثراً بالاجمالية من الاستنتاج ، اي ان الحدود الوسطى فيه غير واضحة . ان الوجدان يثب هنا من المقدمات الى النتائج بقفزة واحدة ، دون ان يقف عبر الطريق .

ـ الوجدان الحسي لا يحفل بالبرهان ، او بالتحقق من صحة القضايا . لهذا لا يبحث عن الروابط . نظرته الاجمالية سرعان ما يصاحبها شعور بالطمأنينة . هـذا الشعور الهادىء ، لا يظهر لو كانت كل خطوة في البرهان واجبة .

ـ الوجدان الحسي يستخدم في التفكير صيغاً شخصية ، توجه مجرى التفكير العام .

ـ الوجدان الحسي يلتجىء الى الاشارات التجاء كبيراً ، حتى ان هذه الاشارات تذهب بديلا عن البرهان في تعزيز الاستنتاج المنطقي .

تلك اهم خصائص الوجدان الحسي . اما خصائص الوجدان المنطقي ، فهي :

ـ انه اقرب الى الاستنتاج . هو يحاول ان يجعـل الروابط بين القضايا ، والالفاظ، صريحة كل الصراحة . (لذا ، اذن ، بالتالي ، حيث، بناء على ، من اجل ذلك ...)

ـ انه يهتم بالحجج والادلة اكثر من اهتمام الوجدان الحسي بها .

ـ انه ينزع الى التحرر من الصيغ الاجمالية ، ليستعيض عنهـا بالاستنتاج استعاضة صحيحة .

ـ انه يستغني عن الاشارات ، لانها غير قابلة للمنطق ، ولانها لا تجدي في البرهان [1] .

* * *

---

[1]) انظر كتاب Le Langage et la Pensée chez L'Enfant تأليف Jean Piaget ص ٤٣ عام ١٩٤٨ .

٣

نحصل من هذا ان وجود الانسان يقوم على محركين اصيلين فيه : الحس والعقل . هذان المحركان متلازمان . لا فاصل بينهما . ولا قطيعة . وقد اخطأ بعض الفلاسفة عندما ارادوا القضاء على احدهما في سبيل الآخر . الحسيون لا يعترفون الا باولوية الحس . والعقلانيون لا يعترفون الا باولوية العقل . في حين ان حقيقة الانسان لا تقوم الا بالمحافظة على المصاهرة بينهما .. على التناغم بينهما ... على تبادل الماوية بينهما في سبيل البقاء. وقد رأينا كيف ان علم النفس يقر هذه الثنائية المحالفة ، القائمة على ان الانسان ملتقى خطين عريضين: الخاص والعام . تلك هي قاعدته الجدلية ... ناموسه الجدلي ... الا يكون خاصاً بحتاً ولا عاماً بحتاً . الا يكون حساً فقط ، ولا عقلا فقط .

الحس ينصبّ على موضوعه ، بمعزل عن الموضوعات الأخرى . ويحيطه بكل عنايته ، ويستنفده حتى النهاية . قصير المدى . قصير النفس . لا يقوى على التشعب ، ولا يستطيع ان يشمل في نظرته . حيثما يقع يفعل . واذا كنا نريد ان نتمثل حساً خالصاً ، فما لنا الا ان نتصور الحيوان . هذا المخلوق حس خالص . ولذا يعيش فقط في الحاضر . ينصبّ اطلاقاً على الموضوع الذي يرضي حسه . اما الهوامش ... اما ربط هذا الموضوع بغيره ... فانه لا يقوى عليه البتة . الواقــع ان التجربة الحسية مشوشة ، غامضة ، محدودة في الزمان والمكان. كل تجربة لوحدها .لها زمانها ومكانها . لها نطاقها الخاص، وكيانها الخاص . هي عالم في حد ذاتها . لا علاقة لها بسواها ، كأنها معلبة

في صندوق . هي لا تقـــوم على ناموس منظم . هذا هو الحس .
ولكن الانسان لا يستطيع ان يعيش فقط تلك الحالة البيولوجية . لقد زود
عقلا ، من اهم خصائصه ان لا يقف على الموضوعات ، ولكن على الروابط
القائمة بين هذه الموضوعات . همه ان ينظم ، ويبوب ، ويصنف ، ويربط
السابقات باللاحقات . هو كالبنّاء . يأخذ الحجارة المبعثرة ، هنا وهناك ،
التي يقدمها له الحس . ويرفعها بالتتالي ، وفق تخطيط منظم ، حتى ينتهي الى
الوحدة البنائية . العقل لا يهمه الحجر . تهمه علاقة الحجر بسواه . العقل
يذهب الى ما وراء التجربة الحسية . ديدنه ان يقارن بينها وبين سواها ء
ليكشف عن نظامها الخفي . هو يريد ان يربط التجارب المعزولة ، بعضها
ببعض، ليستخرج من جزئياتها منظومات كلية واضحة الحدود. هذا هو العقل.
ولقد جاءت كلمة عقل — في اللغة العربية — حاملة هذا المعنى بالتمام . العقل
يفيد الربط ، والضبط ، والاحاطة بـ . عقل الشيء ، ادركه ، اي ربطه
بنفسه . ضبطه ، واحاط به من جميع نواحيه . يقال عقل الناقة ، اي ربطها :
والعقل لا يقوم بوظيفة الربط ، الا اذا كان هناك اشياء تربط . فحواه ان
العقل ملكة في النفس ، تنشط حول ربط معطيات اولية ، يقدمها له الحس .
هو لا يدل على اشياء ، ولكنه يربط الاشياء وفق مبادىء ضرورية ، حصرها
الفلاسفة في بابين نذكرهما باقتضاب :

اولا — مبدأ الهوية . وهو القائل بان مبدأ الاستنتاج (او الاستدلال) يفرض
بقاء الحدود ثابتة من اول البرهان الى آخره . وقد عبر الفلاسفة عن هذا
المبدأ ، بقولهم : « ما هوهو » او « الشيء هو ذاته » او « الشيء هو عين
عينه » . تشعب عن هذا المبدأ مبدآن آخران هما : مبدأ عدم التناقض ، ومبدأ
التضاد . الاول يقول بان القضيتين لا تكونان صادقتين معاً ، ولا كاذبتين .
الثاني يقول بان المتضادتين لا تكونان صادقتين معاً .

ثانياً — مبدأ السبب الكافي . وهو القائل بان لكل حادث قانوناً يوضح

حدوثه . ولكن لهذا القانون وجهان . ومن هنا تشعبه الى مبدأين آخرين : السببية ، والغائية . الاول يقول لكل معلول علة من جنسه . الثاني يقول ان الكائنات تسير كلها نحو غايات معينة .

* * *

هذه الثنائية بين العقل والحس (نقصد بين الوجدان المنطقي والوجدان العاطفي) هي عينها التي نجدها ، في اللغة ، بين العامية والفصحى . وهذا يعني اولا ان ازدواجية اللغة امتداد لازدواجية اللطيفة البشرية . ويعني ثانياً ان الازدواجية ، في اللغة ، ليست وقفاً على العربية وحدها . في كل لغة لسان عامي ، ولسان فصيح . الازدواجية دليل من دلائل تحضر الانسان . الهمج وحدهم لا يزاولون الازدواجية ، في لغتهم ، لانهم محرومون اطلالات غيبية على الوجود . ان الشعب الذي يتحضر في تطوره ، فيكون له نظرات ماورائية ودواوين علمية ، يفرض على لغته المكتوبة (المنطقية) ان تختلف عن لغته المحكية (الذاتية) . الشعوب المتوحشة ، وحدها ، يمكن ان لا يكون في لغتها ازدواجية صريحة . اما الشعوب الضاربة في المدنية ، فانها تسمو بالتجريد . وهذا يتطلب سعة شق ، دون عداء ، بين الطرازين من الوجدان . بين العقل والحس . هذه الشعوب لا تحكي كما تكتب ، ولا تكتب كما تحكي .

* * *

٤

لنتساءل الآن اين الفارق بين العامية والفصحى ؟ اين ينحصر الخلاف ؟ وقبل ان نجيب ، فلسفياً ، عن هذا السؤال ، نريد ان نبدد وهماً عالقاً في اذهان الناس ، بصدد اللغة الفصحى . يعتقد القسم الاكبر أن الفصحى مرادفة للتعقد ... وأن القضاء عليها ييسر اللغة العربية . ان الخلط بين التيسير والتغيير (اي بين قضية تربوية ترمي الى تسهيل اللغة العربية ، وقضية فلسفية ترمي الى استبدال واحدة باخرى) هذا الخلط هو الذي جعل بعض اهل القلم ، في لبنان ، يبتعدون عن جادة الحق . وقد ظهر هذا الخلط في قول احدهم :

> الصرف ، والنحو بصورة خاصة ، نوع من التجريد. نوع من الفلسفة . نوع من المنطق. ولا التجريد ، ولا الفلسفة ، ولا المنطق ، من الامور التي تعلم للاولاد . اولادنا الصغار لا يفهمون ، ولا يستطيعون ادراك المصطلحات النحوية ١

نقر صاحب هذا القول في المطالبة بتيسير اللغة الفصحى ، وفق مستلزمات عصرنا العشريني . الفصحى اليوم يجب ان تختلف عن لغة الزمخشري ، والحريري . عندما نرى المشاحنات اللغوية ، التي كانت تحدث في الماضي ، حول « فاظت نفس الميت » او « فاضت نفسه » بالظاء او بالضاد ... حول «قوعز الديك» او «قنعز الديك» ... وحول «شتان ما بين» او «شتان بين » او «شتان بين هذا وغيره» ... اجل عندما نرى كيف كان الاقدمون يذبحون وقتهم ، في سبيل مماحكات كهذه ، ونرى ان معظم النحو قائم على مثل ذلك التطريز، لا يسعنا الا ان ننادي مع المنادين بضرورة تيسير اللغة العربية، وتطويرها.

---

١) راجع في «الابحاث» مقـــال انيس فريحه . السنة ٩ . الجزء الاول . اذار ١٩٥٦ . ص ٤٢ . بيروت .

ولكن ما هي العلاقة بين نهج تربوي ، نقره كلنا ، ومثل هذا القول :

تؤمن بإخلاص ان حل المشكلة اللغوية الجذري يبدأ من هذه النقطة : القضاء على الازدواجية ، والاعتراف بلغة واحدة للكلام ، والكتابة ، والخطابة ١.

* * *

هذا الخلط ، اذن ، بين التيسير والتغيير هو الذي اضل العاميين . لم يدركوا ان تيسير الفصحى لا يمكن ان يأتي عن طريق القضاء عليها . ولذا نعود الى السؤال ، المطروح فوق هذا الكلام ، ما هو الفرق بين العامية والفصحى ؟ اين ينحصر الخلاف ؟

نعلم ان اللغة تقوم على عناصر ثلاثة : الاصوات ، الالفاظ ، الجمل . وهي المراحل ذاتهـا ، التي يعبُر فيها الطفل صعداً نحو الانسان الراشد . المرحلة الصوتية ، المرحلة اللفظية ، واخيراً المرحلة المنطقية ، التي يستعمل فيها جملا مفيدة . ونعلم ان الذي يحدد الجملة كون الفاظها يمسك بعضها برقاب بعض . هذا المسك هو النحو . هنا (اي في النحو) يقوم الفارق بين العامية والفصحى: في كيفية ترتيب الالفاظ بعضها مع بعض . هذا الترتيب ، في اللغة الفصحى ، يتجه نحو الاستقرار : اما بان يفرض النحو نمطاً لا يتغير ، واما بان تكون العادة قد جرت باتخاذ ترتيب معين ، في كل الجمل التي تتشابه .

* * *

الفارق ، اذن ، ليس في الاصوات ... ولا في الالفـاظ . الاصوات ، والالفاظ ، ليست في حد ذاتها عامية ولا فصحى . من الخطأ حصر الفارق بينهما في الحروف ، والالفاظ . الحرف لا يكوّن ضماناً كافياً . ولا اللفظ

---

١) راجع في « الابحاث » مقال انيس فريحه . السنة ٩ . الجزء الاول . اذار ١٩٥٦ . ص ٤٢ . بيروت .

ايضاً . ان الاستعمال هو الذي يجعل الحرف ، او اللفظ ، مقبولا في اللغة .
لهذا كان يُرجع دائماً الى فطاحل الشعر ، والنثر ، لاعتبار كلمة ما فصيحة او غير فصيحة . ومن هنا تزمت الاصمعي ، الذي لم يأخذ الا ما اجمع عليه علماء اللغة ، او فصحاء العرب . كان يضيق دائرة الاخذ ، كثيراً ، ولا يجيز الا افصح اللغات . وافصح اللغات ، في نظره ، ما اجمع عليه علماء العرب =
لهذا كان ، في مقارناته اللغوية ، يفضل شعراء الجاهلية وخطباءهم على من جاء بعدهم .

يقول ابو حاتم السجستاني : سألت الاصمعي : اتقول في التهديد « ابرق وارعد » ؟ قال . لا ، لست اقول ذلك الا ان ارى البرق ، واسمع الرعد .
قلت لقد قال الشاعر الكميت :

ابرق وارعد يا يزيد فما وعيدك لي بضائر

قال : الكميت جرمقاني من اهل الموصل ، ليس بحجة ؛ ولكن الحجة هو الذي يقول :

اذا جاوزت من ذات عرق ثنية فقل لابي قابوس ما شئت فارعد

وهو شاعر جاهلي ، وشاعرك هذا متأخر ، لا يؤخذ بقوله . قال ابو حاتم : فاتيت ابا زيد الانصاري ، وقلت له : كيف تقول من البرق والرعد : فعلت السماء ؟ قلت : « رعدت وبرقت » . قلت : فمن التهديد ؟ قال « رعد وبرق ، وارعد وابرق » فاجاز اللغتين . ثم سألت اعرابياً فصيحاً عن ذلك فاجاز اللغتين ايضاً ... ولم يجز الاصمعي الا لغة واحدة [1] .

* * *

١) الامالي تأليف ابو علي القالي ، ج١ص ٩٦ . القاهرة . ١٣٥٣ هـ .

٥

نقول من الخطأ جداً تحديد الكلمة الفصحى بما يجمع الناس عليه . الاجماع ليس بالحجة الكافية . وهو يضيق الخناق على اللغة ، ولا يفسح امامها افاق التجدد . ان اللغة الفصحى ذات مفهوم ابعد ، واعمق ، من الاجماع بين علماء ... ذات سلطة تستمدها من العقل ذاته ، الذي لا يمكن ان يتغير قانون من قوانينه ، لأن الاجماع يريد ذلك . ان الرجوع الى العقل البشري ، وفق ما رسمناه ، اقوى ضمان في سبيل تحديد اللغة الفصحى . هذا العقل يقول بوجود نظام للجملة لا يمكن تغييره . هو لا يبحث في الحروف ، والالفاظ ، ولكنه يبحث في العامل . والعامل هو الاعراب .

على ضوء هذا التعريف للفصحى، المبنيّ على النحو ... اي الاعراب... تصبح كل كلمة قابلة لان تصير فصيحة ،شرط ان تدخل في جملة مفيدة. هي عامية ، اذا استعملت في ترتيب ، يقوم على الكلمة . وهي فصيحة ، اذا استعملت في ترتيب ، يقوم على الجملة . وارتبطت بسابقات لهـا ولاحقات ، بحيث تنشأ الوحدة الاعرابية ، او النحوية . ان كلمة « صاج » — في خاص مبناهـا — ليست عامية ولا فصحى . هي عامية في «الصاجْ عالنّارْ» . وهي فصحى في « الصاجُ على النّارِ » . لا اعراب في العامية، لانها بنت الحواس،والاحساسات تخرج فيها كالقذائف ، مستقلة بعضها عن بعض. هي لا تقبل العوامل . ولكن العقل يميل ، اصلا ، الى الثبات والاستقرار . راينا انه يرتكز ، جوهراً ،على مبدأي الهوية والسبب الكافي . قوانين العقل راسخة . حجتهـا انها من صميم اللطيفة البشرية لا من الاجماع الذي يتفق عليه بين العلماء .

العامية لغة الحس ، والعجلة . لغة فجائية ، تلقائية ، انفعاليـــة . والانفعال بيولوجي الطابع ، لا يتيسرله وقت، ولا فراغ ، كي يعمل الروية ولهذا تطفو العامية على سطح الوجدان ، وتسيطر على روابط الجملة.هي لا تبالي بالعوامل النحوية ، بل تكتفي بابراز ترويسات نفسياتنا . ترويسات تبين وحدها في الامامية . العامية خفيفة الخطى ، تستمد زخمهـــا الاكبر من الايماءات ، والاشارات المختصرة البسيطة ، التي ترافقها .

الفصحى لغة العقل . لغة النحت ، والروية ، والامعـــان . العقل يتبع نظام الالصاق ، او التبعية،اي انه يلجأ ــ فياللغة المكتوبة ــ الى الروابط، والعوامل النحوية ، لانه مطبوع على التفسير والتحليل . مطبوع على الدقة ، والعلاقات ، والنسب . ولديه من الوقت ما ينفقه في الامعان ، والتحضير . هو يبحث عن صلة اخر الكلمات بعضها ببعض ، لانه قائم بالاساس على الجملة .

نظامه نظام المط ، والتوسع. « ويشْ بدّك » في العامية ، تصبح « ايُّ شيء بودّكَ » في الفصحى. « جابو » في العامية ، تصبح « جاء به » في الفصحى . « كرمالك » في العامية ، تصبح « افعل ذلك كرامة لك » في الفصحى . « يله لينا » في العامية ، تصبح « يا الله عجل الينا » في الفصحى . وهي كلمة عامية مركبة من (يا) للنداء ، ولفظة الجلالة واصلها الله ، ولينا مختزلة من الينا . نقول في اللغة الفصحى :

ان الرجل الذي تراه هناك – جالساً على الرمل – هو ذلك الذي قابلته بالامس عند المحطة .

هذه العبارة الفصيحة تنقلب في العامية كما يلي :

الرجال يلي شايفو هونيك – جالس عالرمل – هو يلي قابلتو امبارح عالمحطة.

واضح ان الفارق لا ينحصرفي الكلمات ، ذاتها ، بل في آخر الكلمات ... اي في الاعراب . العامية لا تقبل الحركات ، ولهذا لا تتركب من جمل ، بمعنى النحو . في العامية الفاظ ذات معنى . في الفصحى جمل ذات معنى .

بالعامية ترص الوجدانيات كالقذائف، والمتفجرات . في الفصحى ترصف، جنباً الى جنب، استدلالات منطقية. في العامية لا نعثر على الجملة، بالمعنى النحوي، بل تتلاشى الروابط والعوامل ، فتبرز الصورة الكلامية كتلة واحدة . تتفجر كالمفرقعات. بالفصحى تحتمل الوجدانيات المط، والتوسع، في الحركات. تتتابع، وتتناسب ، وتتناسق . نظام العامية نظام الانضغاط ؛ هذا ديوان الحس . نظام الفصحى نظام الانفلاش ، هذا ديوان العقل . العامية تترك لذهن السامع ان يدرك بالحدس نوع الصلة بين الكلمات. الفصحى تطبع الفكرة بطابع القضية المنطقية ، لان الفكر يطلب صياغة تحليلية ، كلما يرتفع في سماء التجريد، ويبعد، ثم يندر . يقول فندريس :

تتميز لغة الكلام بانها تقتصر على الاهتمام بابراز رؤوس الفكر . هي وحدها التي تطفو على الجملة ، وتتحكم بها . اما العلاقات المنطقية ، التي تربط الكلمات بعضها ببعض ، وتربط اجزاء الجملة بعضها ببعض ، فاما ان يدل عليها دلالة جزئية عن طريق التنغيم والاشارة ، اذا اقتضى الحال ، واما ان لا يدل عليها مطلقاً ، ويترك للذهن عناء استنتاجها . هذه اللغة المتكلمة تقترب من اللغة التلقائية . ويطلق هذا الاسم على اللغة ، التي تنفجر بصورة عفوية من النفس ، تحت تأثير انفعال شديد . في هذه الحالة ، يضع المتكلم الالفاظ الهامة في القمة ، اذ لا يتيسر وقت ولا فراغ ، يجعلانه يطابق فكرته على تلك القواعد الصارمة ، قواعد اللغة المتروية المنتظمة . على هذا النحو تتعارض لغة الحس مع لغة العقل [1]

ومن هنا تنبهُ الكثيرين من علماء اللغة ، المتبصرين في امور الفلسفة ايضاً ، الى هذه الازدواجية في نفس الانسان . الامر الذي يحتم ، على كل لغة بشرية ، ثنائية العامية والفصحى . لا شك في ان هذه الثنائية على درجات . ولكنها كائنة في لغات البشر كلهم . لذا يقول مندريس ، في موضع آخر من الكتاب عينه ، ما يلي :

ينحصر الفرق الاساسي بين اللغة العاطفية ، واللغة المنطقية ، في تكوين الجملة . هذا الفرق يبين تماماً ، عندما تقارن اللغة المكتوبة باللغة المحكية . هاتان اللغتان ، المكتوبة

---

١) Le Langage تأليف Vendryès ص ١٩٤ .

والمحكية ، لتبتعدان في الفرنسية احداهما عن الاخرى ، الى حد ان الافرنسيين لا يتكلمون اطلاقاً كما يكتبون، ولا يكتبون كما يتكلمون، الا نادراً. لكن حالة اختلاف في ترتيب الكلمات، الى جانب اختلاف المفردات. ان الترتيب المنطقي، الذي تسلك فيه كلمات الجملة المكتوبة، يتعطل دائماً في الجملة المحكية، قليلاً او كثيراً ، فمن اللغة المكتوبة مثل هذه الجمل:

Il faut venir vite. Quant à moi, je n'est pas le temps de penser à cette affaire. Cette mère déteste son enfant.

هذه الجمل تتخذ – معظم الاحايين – في اللغة المحكية ، صيغة مختلفة كل الاختلاف . فيقال :

Venez vite. Du temps, voyons, est-ce que j'en ai, moi, pour penser à cette affaire-là. Son enfant ! mais elle le déteste, cette mère. (1)

وقد جاء في كلام بركهارد ما يلي :

ونجد اختلافاً كبيراً ، لا ريب ، في لهجات اللغة العربية العامية اكثر مما في اية لغة اخرى على ما يحتمل . ولكنه لا يصعب عليك ان تفهمها جميعها اذا ما تعلمت احداها ، وذلك على الرغم من اتساع البلدان التي يتكلم اهلوها بها ، وهي الواقعة بين مدينة مغادر (الصويرة) ومدينة مسقط . وقد يكون لاختلاف طبيعة البلدان تاثير في اختلاف تلك اللهجات التي هي عذبة في اوديه مصر والعراق الدنيا ، وجافة في جبال بلاد البربر وسورية . واعظم فرق ،كما اعلم ، هو ما بين لهجة المغاربة في مراكش ولهجة الاعراب في مكة في الحجاز . ولكن هذا الفرق بين تينك اللهجتين لا يزيد على اختلاف لهجة فلاحي سوآب (جنوب المانيا) عن لهجة فلاحي سكسونية (شمالي المانيا) ٢

* * *

قلنا بان العقل ملكة فطرية في الانسان . وقلنا بان وظيفته تنحصر في ربط الاشياء ، لا في الاشياء ذاتها ، بطريقة ترتيبية تتماسك حلقاتها بعضها برقاب بعض . وقلنا ايضاً بان هذا الميل الى التنظيم يبرز في مبدأين كبيرين : مبدأ الهوية (الهوهو) ومبدأ السبب الكافي (السببية والغائية) . وقد ظهرت تلك العقلانية في الاعراب من اللغة ، اي في العامل .

---

١) Le Langage تأليف Vendryès ص ١٧١ .

(٢) ذكورت في كتاب غوستان لوبون « حضارة العرب » ص ٣٢ ترجمة عادل زعيتر .

العامل هو الذي يحدث اثراً في غيره . هو الذي يؤثر في ما يليه . يرفع ما بعده او ينصبه ، او يجزمه ، او يجره . مثلا الفعل : فانه يرفع الفاعل ، وينصب المفعول به. المبتدأ، فانه يرفع الخبر. ادوات الجزم ، فانها تجزم الفعل المضارع. وحروف الجر ، فانها تخفض ما يليها من الاسماء. هذا هو العامل . مثَله مثَل العلة في الظواهر الطبيعية .

المعمول هو المتاثر ، اي المنفعل الذي يقبل اثر غيره فيه . الذي يؤثر فيه ما قبله فيرفعه ، او ينصبه ، او يجره ، او يجزمه ، كالفاعل ، والمفعول ، والمضاف اليه ، وغير ذلك . هذا هو المعمول . مثَله مثَل المعلول في الظواهر الطبيعية ؛ فما يحدث تغيراً في غيره ، يسمى العامل . وما يتغير آخره بالعامل ، يسمى المعمول . هذه القياسات هي ذاتها التي يستحر بها العقل ، عقلانياً ، في غير ميادين اللغة . وهي نشاطات من صماصيم كياننا الوجداني . بدونها لا نتفهم ما يدور حولنا ، ولا نكشف عن اسرار الوجود .

ما من قوة في العالم تستطيع ان تلغي الفاعل من النحو. القضية ليست قضية اجماع بين العلماء. هناك قوام انطولوجي، في العقل، يفرض ذاته بضراوة. اذ ليس عبثاً وجدت مقاييس اللغة في الاوضاع النحوية . ليس عبثاً كان اعراب التثنية على خلاف اعراب الواحد. ليس عبثاً كان اعراب المفعول على خلاف اعراب الجر. ليس عبثاً كانت الجملة على اربعة اضرب. ليس عبثاً كان لا بد لكل جملة وقعت خبر المبتدا من ان تشتمل فيها على ذكر يعود الى المبتدا. اجل، ليست عبثاً تلك العوامل ، التي اقتضت ان تجري على ما اجريت عليه . ان الذي يحيط بحقائق الاعراب ، ويوفي كل باب منها حقه ، ويحكمه احكاماً شديداً ، يرى ان وراء تلك المقاييس وضعاً لا يمكن ان يزول . ليس اجماع العلماء هو الذي جعل ان يكون ثمة فاعل . ومفعول به . وحال . ومجرور . وغيره من الاوضاع النحوية . قد نقبل – على اساس الاجماع – هذه الكلمة او تلك ، باعتبار اللطافة في اللفظ ، فنقول « فاضت نفسه » لا « فاظت نفسه » . ولكننا

لا نستطيع ان نقبل الفاعل ، او ان نُرفضه ، على اساس الاجماع او عدم الاجماع . هل بامكاننا ان نرفض ترتيب الابجدية ، وفق الطريقة التي اجري عليها ؟ هكذا في النحو . نحن عاجزون عن ان نغير وضعاً واحداً . سبب ذلك ان المرء موجود ليفهم ، ولا سبيل الى الفهم الا عن طريق العقل . قد لا يؤدي به عقله الى المطلق ، الذي يريده. المهم انه مدفوع سليقياً الى الفهم. ربما كانت هذه مأساته . أن يندفع الى الفهم ، وان لا يستطيع الفهم، بموجب ذلك الاندفاع ذاته . يبقى انه حيوان عاقل .

لنفرض ان هذه المقاييس النحوية قد الغيت من لغة العرب . انستطيع ان نتصور ممكناً ، بعد ذلك، حدوث فهم للكلمات؟ اللغة ليست حروفاً بمعزل عن الالفاظ . ولا الفاظاً بمعزل عن الجمل . ولا جملا بمعزل عن البيان . اللغة هي كل هذا دفعة . فاذا قضينا على الروابط ... على العوامل ... اي على المقاييس النحوية ... ماذا يبقى من اللغة ؟ لا شيء . ندور ، اذ ذاك ، في ظلام بهيم . يقول الامام عبد القادر الجرجاني ، بصدد النحو ، ما يلي :

ان الالفاظ مغلقة على معانيها ، حتى يكون الاعراب هو الذي يفتحها . وان الاغراض كامنة فيها ، حتى يكون هو المستخرج لها . وانه المعيار ، الذي لا يتبين نقصان كلام ، ورجحانه ، حتى يعرض . والمقياس، الذي لا يعرف صحيح من سقيم، حتى يرجع اليه . ولا ينكر ذلك الا من ينكر حسه . والا من غالط في الحقائق نفسه . واذا كان الامر كذلك ، فليت شعري ، ما عذر من تهاون به . وزهد فيه . ولم ير ان يستقيه من مصبه ، ويأخذه من معدنه ؟ [١]

* * *

لا شك ان في النحو فضول قول . فيه ما هو متكلف . ما يجشم الفكر . فيه من المسائل العويصة ، ما لا يعود بطائل على ذهن السامع . نحن نعلم ان في النحو مثل هذا التعجيز . ولا نلوم الذين لا ينظرون فيه ، ولا يعنون به .

---

١) دلائل الاعجاز . ص ٢٤ . القاهرة ١٣٣١ هـ .

وليس يهمنا امره ، فليقولوا فيه ما يشاؤون ، وليهملوه اذا ارادوا . ولكننا نرفض ان يضرب النحو كله بعرض الحائط . اذ لا فهم بدون النظم ، ولا نظم الا ان تضع الكلمة في المحل، الذي يقتضيه علم النحو . مقاييس الاعراب ليست كلها من ضرب التعجيز . ما كان من هذا القبيل ، مجه الذوق السليم ، وترك في سبيل الرياضة المترفة . ونحن نوافق، لتيسير العربية ، على شطب هذه الاوضاع النحوية المهلكة . اما ان نتجاوز التيسير ، الى القضاء على ثنائية العامية والفصحى ، فانه امر خطير للغاية . ذلك لانه يتناول قوام العقل البشري ذاته . وهذا منتهى المغامرة في الاعتباطية ... منتهى العبث بقاعدة الحياة... بمعطيات الوجدان البديهية .

تلك الثنائية ، بين العامية والفصحى ، هي امتداد اذن لثنائية متأصلة في النفس البشرية . هي تعكس المحركين ، اللذين يقوم عليهما الكيان الانساني ، نعني الحس والعقل . والتطور الذي تناخ له هذه الثنائية ، في شعبتيها ، يسير من الرص الى الرصف ... من الانضغاط الى الانبساط ... من الارضاء المباشر للحس ، الى التحليل المنطقي ، الذي يرتأيه العقل . فحواه ان الثنائية تتطور من الصوت ، الى اللفظ ، الى الجملة الاعرابية ، دون ان تلغى من الوجود . هذا هو ناموس الحياة الصاعد .

* * *

٦

اذا استعرضنا تاريخ اللغات ، رأينا هـذا التطور ذاته في شعبتيه ، يتجه من التلقائية المتغيرة ... من الطفرة المترجرجة ... الى الاستقرار المقعّد . رأيناه يتجه من العامية الفردية الى الفصحى المشتركة المنومسة . اجل الحياة ذاتها تفرض المجتمعية . الانسان كائن مجتمعي فطرةً . هذا الطابع المجتمعي يحد من الفردية ، ويركز وجود الانسان على قاعدة التفاهم المتبادل ... اي على اساس الروابط ، والعلاقات . قيمة الانسان ، في المجتمع ، هي بالنسبة الى غيره من الناس . وقد دلت جميع الابحاث الفلسفية الى ان المرحلة الاجتماعية هي آخر المراحل (واسماها) الـتي يتطور نحوها الانسان . ولا يمكن ان تقوم حياة اجتماعية بدون لغة مقعّدة ، لأن القاعدة تعكس الجوهر الكائن في كل واحد ، فيحصل عن طريقها التفاهم المتبادل بين افراد المجتمع . الحس لا يجمعن . العقل يجمعن . ولهذا زود الانسان عقلا . العقل يبحث في المبادىء العامة . والقانون هو دائماً مبدأ عام. فحوى ذلك ان ازدهار الحياة الاجتماعية لا يستطيع ان يقوم على اللهجات . انه يفرض لغة مشتركة ، لها قواعدها ، ودواوينها . وهذا لا يمكن ان يحصل بدون النحو . وهل الفصحى غير اللغة المشتركة ، المرتكزة على معطيات عقلانية.

يقول ستيوارت ضود .

نعرف جيداً ان الشعب الذي ينطق بلغة واحدة ، اذا مـــا فصلته حواجز كالبحار ، والصحاري ، وسلاسل الجبـــال ، او غيرها ، واستمر هذا الفصل قروناً ، تنقسم لغته الى لهجات مختلفة . قد تكون كتابتهم واحدة ، ولكن التلفظ يكون مختلفاً ، كما هي الحال

في اللغة الصينية واللغة العربية . بيد ان هذه اللهجات قد تمتزج ، وتكون لغة واحدة مرة ثانية ، اذا ما تم الاتصال بين الاقطار التي تسود فيها . وبالفعل فاننا نجد اليوم ان لهجات انكلترا آخذة في الزوال ، كما ان الراديو يعد قوة جديدة فعالة في توحيد اللهجات . والخلاصة انه كلما ازداد الاتصال بين اجزاء العالم بواسطة وسائل المواصلات الحديثة ، كالسفر ، والراديو ، والسينما ، والتلفون ، توقعنا ان تزول اللهجات ، وتتوحد اللغات تدريجياً [١] .

لقد ادرك ستيوارت ضود واجب نومسة اللغة كلما تحضر الانسان ، اي كلما ازدهرت الحياة الاجتماعية . وهذا ما يشعر به عالمنا العشريني ... سيما العالم العربي . ولا بد لنا ، في هذا المجال ، من ان نستعرض تاريخ بعض اللغات ، شاهداً على صحة المقال .

ــ اللغة الهلينستية (اي لغة بلاد الاغريق القديمة) . هي بالاساس اللهجة الاتيكية ، التي ظلت حتى القرن الخامس لغة محلية لاقليم منعزل . ان ظروفاً سياسية ، اي قيام الامبراطورية المقدونية ، مكنت هذه اللهجة من ان تطغي على باقي اللهجات ... وان تصبح اداة للتفكير عند جميع الاغريقيين . اللغة الاغريقية هي اللهجة الاتيكية بعد ان اصبحت هذه الاخيرة اللغة المشتركة ، التي سادت على اللهجات المحلية .

ــ اللغة اللاتينية . كانت لغة روما ، قبل كل شيء . ثم اصبحت بعد ذلك لغة ايطاليا المشتركة ، ومن ثم لغة العالم الغربي كله. اما السبب في هذا الانتشار، فقد كانت اهمية روما السياسية .

ــ اللغة الافرنسية . هي تطوير للهجة الايل دي فرانس (L'Ile de France) ويعود سبب هذا التطور الى اهمية باريس السياسية ، والاقتصادية، والاجتماعية.

ــ اللغة الاسبانية . خرجت من لهجة في الشمال (نعني من لهجة قسطلت القديمة) . وقد صارت القسطلانية اللغة الادبية ، في القرن الثالث عشر ، بفضل الفونس العاشر الذي كان يحتل بالنسبة الى اسبانيا مركز داتي بالنسبة

---

١) العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي . وجه ٢٩٥ . ترجمة فريد لجار . دار الكتاب بيروت . ١٩٤٧ .

الى ايطاليا . اللغة الاسبانية المشتركة هي نتيجة لتفوق قسطلت في ميداني السياسة والادب .

ـ اللغة الانجليزية المشتركة ظهرت في نقطة ، هي ملتقى لمختلف اللهجات . هذه النقطة هي لندن . هنا ايضاً يعود تطوير تلك اللهجة ، بصورة نسبية ، الى اهمية العاصمة . لقد اخذت لندن تتلقى المهاجرين ،على اختلافهم ، من كل الاقاليم . هذه الهجرة الاقليمية انعشت تبادل السكان بين لندن ،والارياف ، فادى ذلك الى انتشار لغة مشتركة .

ـ اللغة الالمانية تدين بانتشارها القوي الى مارتن لوثر، باعث حركة الاصلاح- لقد تبين لمارتن لوثر ، في القرن الرابع عشر، ان هناك ميلا لدى المستشاريات الالمانية لاتخاذ لغة مشتركة ، تختلف عن اللهجات الاقليمية . فسنت المستشارية الامبراطورية هذا الميل مستعملة لغة واحدة ، في جميع الاقاليم ، التي كانت تحت سلطانها .

ـ اللغة الروسية هي اللغة السلافونية ، التي تقوم على اساس اللهجات السلافية الجنوبية . لم تتحرر الروسية من الاثر السلوفـاني ، الا بعد ان جاء بطرس الاكبر ، فحذا حذو لغات اوربا الغربية ، سيما الافرنسية والالمانية .

* * *

ماذا نستنتج من هذا الاستعراض الوجيز لبعض اللغات العالمية ؟ نستنتج ان اللغة المشتركة (نقصد اللغة المقعّدة) هي لهجة في البدء سلطتها الظروف السياسية او الاقتصادية ، او ظهور عبقرية فذة ، على اللهجات المجاورة ، فابتلعتها ، واصبحت اللغة المشتركة التي تكتب بصورة منتظمة في كل مكان . نستنتج ان اللغة تتطور من نطاق الحس الضيق الى نطاق العقل الواسع ... من الخاص الى العام ... بفضل الازدهار الحضاري . تتطور من رطانة محلية الى لغة معقلنة . هذا التطور نحو التجريد هو بمثابة انعكاس للضمير الآدمي . الانسان البدائي

اقل قابلية للتجريد من الانسان المتحضر، لان ظروف الحضارة تنقل الفكر من الاعتبارات الخاصة الى الاعتبارات المجردة .

• • •

اذا رجعنا الى ما يقوله « علم اللغة » رأينا ان القسم الاكبر من الالفاظ – لا سيما الافعال – يعبر عن مواجيد حسية ، ومواجيد معنوية . مثلا « عَقَلَ » . ربما قصدنا بهذا الفعل الدلالة الحسية ، نحو « عقلتُ الناقةَ » اي ربطتها ... او الدلالة المعنوية ، نحو « عقلتُ الافكارَ » اي فهمتها . ويثبت « علم اللغة » – مستنداً الى ناموس التطور الصاعد من الخاص الى العام – ان احدى هاتين الدلالتين هي الاصلية الحقيقية ، والاخرى هي الفرعية المجازية . ولا بد من ان تكون الحسية هي البادئة ، كما يؤكد ذلك « علم نفس الطفل »: هذا العلم يرينا ان المحسوسات هي التي تستلفت انتباه الطفل ، اولا ، وهي سابقة في وجدانه للمجازيات . الطفل لا يستطيع ان يجرد . عالم الحواس عالمه . وقد بان لنا ان الاضمار في اللغة هو اسلوبه التعبيري ، بادىء بدء ؛ اضف الى هذا انه لا يحتاج ، في دائرته ، الا الى المواجيد الحسية .

هكذا قل عن الانسانية ، التي هي صورة مكبرة عن الطفل . هذه الانسانية لم تكن بحاجة ، في اول عهدها ، الا الى المواجيد الحسية . فاذا استعمل الشعب فعل « قطع » لم يقصد به الا الفعل الحسي ، اي قطع خشبة مثلا . ولكن الحياة ليست شيئاً جامداً . هي حركة . هي تطور . وتطورها لا يكون افقياً ، على وتيرة واحدة ، بل صاعداً تقدمياً من الاقل الى الاكثر ... من الحس الى العقل ... من الخاص الى العام ... من الفرد الى المجموع . وعلى هذا الاساس ، نرى البشرية ترتقي ، فترتقي معها تصوراتها . ومن هنا حدوث المعاني الجديدة ... المعاني المجازية ... التي لا تكون على خلاف مع الاولى ، بل في ابتداء منها ، امتداداً لها . فمن

« قطع الخشبة » ننتقل الى « قطع في الامر » اي جزم . ومن «عقلت الناقة» الى « عقلت الكليات » . ومن «فصح اللبن» اي زالت رغوته الى « افصح عن نواياه » اي ابانها .

نقول بعد هذا ، استنتاجاً لما تقدم ، ان اللغة المنحطة هي التي تظل في دلالاتها على صعيد المواجيد الحسية . ان اللغات الدنيا تقل فيها الدلالات المعنوية . هذه الدلالات المجازية لا تحدث على اساس اللهجة .لا تحصل في لغات عامية ، لا قواعد لها ، ولا نواميس. هذه الدلالات المعنوية دليل صقل في الذهن ، وتنعم في التفكير ، ورخاء في العقل . دليل تحضر ناتج عن الامعان في الحياة الاجتماعية . وهي امور لا يمكن ان تتركز الا بايجاد النواميس العامة . ومن هنا كان التحضر يسير ، جنباً الى جنب ، مع تطور اللغة من الحسيات الى المجازيات ... من اللاقاعدة الى الاعراب القائم على العامل والمعمول . هذا التطور من الخاص الى العام هو الثنائية عينها، التي نجدها بين العامية والفصحى. هو ذلك الفارق، في النحو، الذي يجعل العامية عامية والفصحى فصحى. القضية اذن ابعد بكثير من اجماع بين العلماء . ابعد بكثير من مسائل عويصة ، في بعض القواعد . التيسير واجب شرط ان يحترم المعطيات الاولية في كيان وجداننا البشري .

• • •

هل شذت اللغة العربية عن القاعدة، التي جرت عليها باقي اللغات، الانفة الذكر؟ كلا. ما كان بوسعها ان تسير الا في خطى الناموس عينه. لقد اخرجها الاسلام من قريش ، حتى صارت لغة حضارة على الاطلاق ... لغة علم ... لغة فكر مكتسح. صارت لغة جميع اقطار المدنية الاسلامية . صارت لسان سدة الملك، ولغة الثقافة العالية ، والادب المجلو ، والدين ، والفلسفة . صارت نموذجاً

مفروضاً ، ومثلا اعلى يحتذيه كل كاتب عربي. كان من الطبيعي ، والحالةهذه، ان تتعقلن . ان تتنحون .

اما تاريخ بداية النحو ، فانه صريح في سجله . وهو يعكس لنا اكثر من اهتمام لغوي ، بالمعنى القاموسي الضيق . يعكس لنا فكراً عربياً يتسع، ويجرد.

قال ابو الاسود الدؤلي :

دخلت على امير المؤمنين علي - عليه السلام - فرأيته مطرقاً مفكراً . فقلت : فيم تفكر يا امير المؤمنين ؟ فقال : سمعت ببلدكم لحناً ، فاردت ان اصنع كتاباً في اصول العربية. فقلت له : ان فعلت هذا ابقيت فينا هذه اللغة العربية . ثم اتيته بعد ايام ، فالقى الي صحيفة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم . الكلام كله اسم ، وفعل ، وحرف . فالاسم ما انبأ عن المسمى . والفعل ما انبأ عن حركة المسمى . والحرف ما انبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل .

ثم قال : تتبعه ، وزد فيه ما وقع لك واعلم ان الاشياء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ، وانما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر . فجمعت اشياء ، وعرضتها عليه ، فكان من ذلك حروف النصب ، فذكرت منها : إن ، وأن ، وليت ، ولعل ، وكأن ، ولم اذكر لكن . فقال : لم تركتها ؟ فقلت : لم احسبها منها .فقال بلى هي منها .

هذا هو الاشهر من ابتداء النحو [١]

* * *

يتبين لنا ان وضع النحو ، لم يكن وليد المصادفة... لم يكن بإجماع من العلماء . ان الحالة الاجتماعية ، يومذاك (نعني درجة الحضارة) هي التي فرضت صنع كتاب في اصول العربية ، وكأني بامير المؤمنين عليّ يقول : في اصول اللغة عامة .

كان التطور قد دفع المجتمع العربي الى مستوى من التفكير العالي (نقصدالتفكير الديني) بحيث لم يعد جائزاً فيه اللحن ، الذي يعتبر تجديفاً على ديوان العقل .. على قدسيته . اللحن في اللغة تخريب لقوانين الفكر المجرد . كلما سما الفكر ، في

١) انباه الرواة على انباه النحاة . تاليف القفطي . الجزء الاول. ص ٤ القاهرة ١٩٥٠

عالم التذهين ... في عالم الدين ، والفلسفة ، والعلم ، والادب ... استلزم ما يضبطه ، كي يتحكم بسير الزمان الهروب .
قال عليّ لابي الاسود الدؤلي : سمعت لحناً ببلدكم.وهو دليل ان المجتمع العربي قد دخل في مرحلة التحضير ... في مرحلة التجريـــد الاكمل ... في شوط الاستقرار... اي في مرحلة اللغة المنحونة . ذلك لان العامية لا تبالي باللحن ، ولا يهمها مثل هذا التخريب . اللحن هو انحراف عن الاعراب . ولا اعراب في العامية . اما الابتهال الى الله ، على صعيد الاسلام ... اما تلاوة القرآن . . اما معالجة كبرى القضايا الوجدانية ... فهي امور فكرية لا تسمح مطلقاً ان تنعكس في لغة غير منحونة . ولهذا انتفض عليّ ، حين سمع لحنا ببلد ابي الاسود .
وكأني بهذا الاخير قد شعر ان اللغة لا تبقى عبر الزمان ، اذا كانت خالية من نحو ... نعني من تقعيد ، على اساس الفروض العقلانية . العقل وحده لا يخضع لتقلبات الزمان . انه الثابت . نواميسه فوق الحيلولة . شاملة ، مطلقة : ولذا اجاب ابو الاسود ، على الفور ، قائلا : ان فعلت هذا ابقيت فينا هذه اللغة . ثم بدأ علي في وضع النحو ، وهي لعمري بداية فلسفية صرف .
بدأ عليّ بتقسيم الاشياء الى ظاهر ، ومضمر ، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر: ذاك الظاهر هو الحسيّ ، الذي يقع تحت اوامر الجسم . وهذا المضمر هو العقلاني ، الذي يدخل في حساب التجريد . اما الشيء البين البين (الذي ليس بظاهر ، ولا بمضمر) فهو ضابط الارتباط بـــين هاتين الحافتين المتطرفتين .
يقابل هذا التقسيم الثلاثي للمواجيد تقسيم ثلاثي للكلام ، الذي يعبر عن هذه المواجيد . قال عليّ : الكلام اسم ، وفعل ، وحرف . الاسم ما انبأ عـــن المسمّى ، والفعل ما انبأ عن حركة المسمّى ، والحرف ما انبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل . كأني بعليّ ، وهو يقسم المواجيد ، قد جمع بين كل المدارس

اللفسفية : المادية ، والروحية ، والمدرحية بينهما .

اجل ، لم يستطع امير المؤمنين ، عليّ ، ان يضع كتاباً في النحو ... اي في اصول العربية ... ما لم يبنه على قواعد انطولوجية . النحو يدرس العوامل : لكل محل من الاعراب عامل اساسي ، يعني سبب . هذا هو قانون السببية ، الذي يقوم عليه نشاط العقل رمة . كما في العقل كذلك في الاعراب . الاثنان متكافئان .

روي ايضاً عن ابي الاسود ، قال : دخلت على امير المؤمنين ، علي بن ابي طالب – عليه السلام – فاخرج لي رقعة فيها الكلام كله اسم ، وفعل ، وحرف جاء لمعنى . فقلت ما دعاك الى هذا ؟ قال : رأيت فساداً في كلام بعض اهلي ، فاحببت ان ارسم رسماً يعرف به الصواب من الخطأ . فاخذ ابو الاسود النحو عن علي – عليه السلام – ولم يظهره لأحد [1]

* * *

٧

واضح ، بعد ذلك ، اين يكمن خطأ الذين ينادون بالعامية . هم يرفضون التسليم بثنائية الحياة البشرية ... بازدواجيتها على حد تعبيرهم ... ويكون اللغة امتداداً لهذه الثنائية . هم يكتفون بوجه واحد من الثنائية . وبذلك يرجعون اعتباطاً العقل الى الحس ، اي الادراك المنطقي الى الشعور العفوي ، الذي يتفجر تلقائياً تحت تاثير شديد .

اما الواقع الصراح فهو ان العامية والفصحى من قلب الحياة . وما كان من

١) القفطي في انباه الرواة ، ص ٥ .

قلبها، لا بد منه اطلاقاً . ومن هنا قولنا بان للعامية فلكها ، وللفصحى فلكلها.
للعامية ادبها ، وللفصحى ادبها . نحن لانميل الى القضاء على احداهما ، في سبيل
الاخرى . لا نلغي العامية في سبيل الفصحى ، ولا الفصحى في سبيل العامية .
ان ذلك يكون بمثابة خنق للحياة عينها . بمثابة جهل مدقع لانطولوجيتها .
لا بد للعقل من مواد اولية يزاولها ، كي يصل الى المقاييس العامة . هذه المواد
تأتيه من الحواس .

لا شك ان الكاتب يُجيد في وصف القرية اللبنانية ، كما كانت ايام جدودنا ،
بالشعر الزجلي الذي يعكس – بصدق اكثر – المحادثات البيتية ، والمعاشرات
اليومية ، والمناغيات القريبة . وقد ابدع الشاعران اميل مبارك وميشال طراد ،
في زجلهما ، الذي سيبقى سجلا خالداً عن حياة القرية ... حياة كان يحياها
اجدادنا ، ملؤها العاطفة الطرية . وهل اجمل من ان نقرأ :

مشتاق ارجع للضيعا   مشتــاق كتــير
اتعمشق لي بشي تيني   وصيــد عصافير !
عنت عا بالي الضيعا   ويا ما مشتــاق
عبي السلي بيكوعي   وحوّش جرجير !

او ان نقرأ لميشال طراد .

ع طريق العين محلا التكتكي
والقمر ع كتف صنين متكي ،
بيكشح الغيمات تياخد هوا
وبيطل بيوجو،وبيوجو حكي.

* * *

أن نعبر عن هذه المناغيات القروية ، بلغة فصيحة ، فانه خيانة لعفوية الحياة
العاطفية . ولكن الحياة ذات عفويتين: عفوية القلب الذي يرضى بالعامية، وعفوية
العقل الذي لا يرضى بالعامية. هنا (اي في المباحث العقلية) نشعر تمام الشعور

بان اللغة العامية لا تقدر على تلبية الحاجة .

وقد شاء سعيد عقل ان يبحث فلسفياً في موضوع الجمال ، بلغة عامية ، فاخفقت محاولته كل الاخفاق . ولا بد لنا من ان نذكر ، على سبيل المثال ، نحواً من هذه المحاولة . قال يتحدث عن الجمال :

نتوء كل ممرفي فيك بترافقو لزي . بس اللزي البترافق الممرفي البيمملها الجمال بتفرق عن غيرها بالو فيها شي من التخدير ، من الحلم ، من الهز ، كانو الكون الانت فيـــه مرجوحا .

ون تمقنا اكتر منشوف روح الجمال حركي صوب التوحد ، اجزاء عمتتلم بكل ، طيشرا عمتصير نظام . وهالنظام متل كانو بساطا مع انو مركب من الف تنويما وتداخل . شمور غريب ، شعور بانو التعقيد زاتو صار عميرحرح .

الجمال بينمل مش لشي إلا لحالو . لا بارغام ولا لغايي . تمام متل الامب . البيلعب ما حدا جابروا ، ولنو عميضارب ع منفما . وبيكد وهو ملتز . متل كأنو مأمور مـن قوي ناعمي غامضا خفي من برات ه الكون[1]

لقد اراد الكاتب ان يعالج مشكلة الجمال ، على الصعيد الفلسفي ، دون ان يتبنى اللغة التي تلائم هذا النوع من التفكير ... هذا النوع من الحياة ... نعني الفصحى . والمقصود بالفصحى ليست اللغـــة المعقّدة ، بل اللغة المقعّدة ، المنحونة . تبنى العامية لفكر فصيحة ، ظناً منه ان العامية تضع الفِكر الفصيحة في متناول الناس . ولكن الفكرة الفصيحة تظل فصيحة ، وان في لغة عامية . لذا بان الانحراف ، وكان فشل محاولته صارخاً .

اللغة الفصحى هي الصادقة ، في هذا المجال . هي المعبرة وحدها عن عفوية العقل ، كما هو حال العامية في التعبير عن عفوية القلب . اجل ان قصص حنكش الزحلاوية ، تفقد كل جمالها ، اذا قيلت بلغة فصحى ولكن « المنقذ من الضلال » يفقد ايضاً كل جماله ، اذا قيـــل بلغة عامية . تصور القرآن ، والانجيل ، مكتوبين باللغة العامية ... او نهـــج البلاغة مكتوباً بالعامية ...

---

١) راجع مقدمته لديوان «جلنار» الزجل . تأليف ميشال طراد

او فيلسوفاً يحاضر في وجود الله ، او عدم وجوده ، باللغة العامية . ابمقدور العامية ان تعبر عن هذه الناطحات الوجدانية ؟ ان كل ما يتسم بطابع قدسي ، عقلاني ، مجرد ، يدعو الى استعمال لغة خاصة . الا يشعر القارىء ان عفاف العقل قد تدنس ، في مقدمة « جلنار » ، كما تتدنس القصيدة الزجلية (ع طريق العين محلا التكتكي) لو صيغت بلغة فصحى ؟ ان مجرد تبني العامية ، لمعالجة الفلسفيات ، لا يضع هذه الاخيرة في متناول العامة . انالعامة لن تفهم الابعاد الفلسفية ، وان بلغة عاميــة ، لأن الافكار المعالجة بعيدة - ومن هنا عدم الانسجام ، في مقدمة « جلنار » ، بين المبنى والمعنى . مبنى قريب لمعنى بعيد . هذه المقدمة هي ، منذ اليوم ، في حكم النسيان .

يقول الجاحظ ، في البيان والتبيين ، ما يلي [1]

متى سمعت – حفظك الله – بنادرة من كلام العرب ، فاياك وان تحكيها الا مع اعرابهـــا ومخارج الفاظها . فانك ان غيرتها بان تلحن في اعرابها ، واخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين،خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير[2] وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فاياك وان تستعمل فيها الاعراب ، او ان تتخير لها لفظاً حسناً ، او تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً [3] فان ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ، ومن الذي اريدت له . ويذهب استطابتهم اياها ، واستملاحهم لها .

لا بد لنا من ان نذكر ، ههنا ، امير الزجل – في لبنان – رشيد نخله ، الذي لم ينقطع يوماً عن الكتابة بالفصحى . وقد امتاز بهـــا امتيازاً جعله في طليعة اربابها (نظماً ونثراً) كما امتاز بفن الزجل، محلقاً في اجوائه العالية على القديم والجديد . خليق بنا ان نستفيد من خبراته ، لانه زاول الفنين معاً . شعور يما يقوم في الاذهان من ان الزجل بمثابــة حرب على الفصحى . فاستغفر الله ، الف مرة ، اذ لم يكن الزجـــل يوماً (لا في الاندلس امس ، ولا في مصر ،

---

١) البيان والتبيين . الجزء الاول . ص ١٥٩ القاهرة ١٩٤٧ . المكتبة التجارية الكبرى .
٢) يعني انك تخرج من هذه الحكاية خائباً ، غير بالغ قصدك منها . واستخف بها السامعون لها.
٣) سرياً : فخماً شريفاً .

ولبنان حاضراً) ليزج بنفسه هذه الزجة . وعندما سئل عن السبب ، الذي حداه على ترك الفصحى ، واخذ العامية اداة تعبير ، قال :

ما اخترت العامية ، بدلا من الفصحى ، بل اراني اقبل على العامية ، حين اترك الفصحى ، واقبل على الفصحى ، حين اترك العامية، ميلا مع الخاطر العارض ، او المناسبة الحاتمة[1]

يهمنا من هذين التصريحين الخطيرين، الجاحظ ورشيد نخله، اتفاقهما مع ما نجري عليه بصدد العامية والفصحى . ان الحياة ذاتها هي التي تحققها . والحياة ثنائية الاتجاه. هي كالارض ، فيها الواطي وفيها العالي . فيها المرتفع وفيها المنسطح، فيها القريب المشاع ، وفيها البعيد الفريد . فهل نعجب ، والحالة هذه ، ان يكون ثمة لغة فصحى ولغة عامية ؟ أن يتكلم سكير لغة فصحى ، او أن تخاطب الخادمة سيدتهـا بلغة فصحى ، فهذا انحراف عن وضع الحياة الاساسي . ان مناخ السكير ، والخادمة ، لا يتطلب لغـة منطقية تحليلية ... لا يستلزم التجريد . النحو لا يلائم هذا الضرب من الحياة . وقد انتبه الجاحظ الى تلك الثنائية . وعرف نخله ان الخاطر يميل يميناً ويساراً ، علواً ودنواً. فعلى اللغة ان تميل معه، وفق المناسبة الحاتمة.لقد شعر الاثنان ان اللفظة والخاطرة متلازمتان. لا فاصل بين اللغة والفكر . لا حائط بين المبنى والمعنى . خطأ العاميين انهم لا يعترفون بانطولوجية الكلمة . لا يرون لها شروشاً في اعمق اعماق لطيفتنا ... تلك اللطيفة ، التي تأخـذ الف لون . وألف ضلع . وألف بعد . ان قوام طبيعتنا الآدمية عينها تفرض هذه الثنائية . اكثر من ذلك : نقول بان اللغة التي لا تشتمل على ثنائية فيها ، ليست بلغة انسانية . نقول ايضاً ، نتيجة لهذا ، ان ثنائية العامية والفصحى ليست وقفاً على اللغة العربية فقط . كل لغة بشرية تحمل فيهـا ثنائية صريحة . في كل لغة لسان فصيح ، ولسان عامي . هذه الثنائية على درجات ، اذ تختلف شدة ، من لغة الى لغة . المهم انها كائنة ، في كل لغة ، لا محالة .

* * *

---

[1] معنى رشيد نخله ص ٨٢ جمعه امين نخله . طبعة ١٩٤٥ بيروت

٨

لنعد قليلا الى الوراء . قلنا بان كل كلمة تصبح فصحى ، اذا دخلت في وحدة اعرابية ... في بناء نحوي . الكلمة ، في حد ذاتها ، ليست عامية ولا فصيحة . هي عامية ، اذا استعملت في ترتيب خال من الاعراب . وهي فصحى ، اذا استعملت في ترتيب ، ترتبط سابقاته بلاحقاته . وقد اعطينا في حينه، مثلا على ذلك لفظة « الصاج » . قلنا هي عامية في«الصاجْ عالنارْ» . وهي فصحى في « الصاجُ على النارِ » . اما هي ذاتها ، في خاص مبناها ، فلا عامية ولا فصحى .

لنمعن الرّوية في هذه النظرية . يقيناً منا انها تحلّ مشكلة كبيرة ، من المشاكل التي تواجهها اليوم لغتنا العربية . نعني بذلك مشكلة المصطلحات العلمية . نحن نعلم ان العربية تجابه ازمة حادة . لقد نهضت الشعوب العربية من كبوتها، وعزمت على ان تسير في ركب الحضارة الحديثة ، مقتبسة ما يجب اقتباسه من شتى انواع العلوم الايجابية . ومن هنا تدفق المصطلحات الفنية ، مما جعل اللغة العربية في افتقار الى ترجمتها. لكن فئة من المتزمتين تقف لها بالمرصاد.هذه الفئة لا تريدنا مبدعين . علينا ان نتبع السلف . هذه الفئة تزهد كل الزهد في اقتبال الالفاظ الدخيلة ، التي تشوه – حسب قولها – عفاف اللغة الفصحى .

ان تزمت هذه الفئة عائد الى خطأ منها في تحديد اللغة الفصحى . لقد حصرت الفصحى في اللفظة عينها ، وبذلك تكون قد صنمت الكلمات ، دون اي مبرر ... تكون قد اغلقت النوافذ على اللغة ، لتخنقها في عقر دارها . هذه الفئة ترفض ان تعتبر « رَاحَ » فعلا محترماً فصيحاً ، بجانب « ذَهَبَ » الذي

هو ايضاً فعل محترم فصيح . الى اي شيء تستند لترمي الحرم على الفعل الاول « رَاحَ » ؟ ما هو الفرمان السماوي ، الذي أعطي لذَهَبَ ، ولم يعط لرَاحَ ؟ اتكون الحاء ، المسبوقة بالالف بعد الراء ، غير مرغوب فيها ؟ وما هو السحر العجيب ، الذي جعل من حروف الذال ، والهاء ، والباء – مجتمعة معاً – من عنديات اللغة الفصحى ؟

ايكون اجماع العلماء ؟ ان هذا لا يكفي . ايكون ورود « ذَهَبَ » في المعاجم ، وعدم ورود « رَاحَ » فيها ؟ ان هذا ايضاً لا يكفي . اذن لماذا يجوز لنا ان نقول « ذهب الولد » ؟ ولا يجوز ان نقول « راح الولد » ؟ لا جواب عن ذلك . او الجواب هو التالي : هكذا قال العرب . او هكذا قال الشاعر الجاهلي الفلاني . او هكذا وردت عند الاقدمين . ان حصر اللغة الفصحى في اللفظة ، عينها ، يشل حركة الاقتباس . على حين ان كل لغة هي مفتقرة الى اخذ بعض الكلمات عن غيرها . ولا عار عليها في ذلك . هي سنة التبادل بين الكائنات الحية ، في الوجود ، واللغات من تلك الكائنات . ما من لغة تستطيع وحدها ان تقوم بحاجة المدنية . والاقتباس لا يكون الا اقتباس الفاظ ، لا اقتباس جمل . فاذا اغلقنا الباب – من هذا السبيل – على اللغة العربية ، سددنا خطواتها نحو الانقراض .

اما اللغات الاوروبية فقد وعت هذه الحقيقة . لذا لم تتنكب عن ان تتقبل الدخيل ، الذي كان ينقصها . والدخيل صار اصيلا ، مع الزمن ، وتم الزواج الى الابد . لقد اخذ الافرنج ، عن العربية ، والفارسية ، كلمات عديدة ... امثال : الانبيق (Alambic) والكحول (Alcool) والسكر (Sugar) والرصيف (Récif) والياسمين (Yasmine) والزرنيخ (Arsenic) والجبر (Algèbre) والشراب (Sirop) والزرافة (Giraffe) والقرن (Corn) ... الى ما هنالك من كلمات علمية ، وغير علمية كثيرة . وقد صارت هذه المفردات ، مع الزمن ، من صلب اللغات الاوروبية ، دون

إن يفسد قوام فصاحتها اطلاقاً . الفرنسية فرنست ، والالمانية المنت ، والانجليزية انجلت ، والطليانية طلينت ، فلا بأس من ان تعرب العربية ، اذا لم نجد معادلات في خزائنها . واذا قيل بان حروف العلة في الابجدية العربية اقل مما هي في الابجدية اللاتينية (تبريراً لاستعمال الحرف اللاتيني) نقول ليس ما يحول دون تدارك هذا النقص ، فنشكل الحروف ، او نحرفن الحركات ، كأن نكتب الفتح الفاً ، والكسر ياء ، والضم واواً . ان احرف العلة موجودة ـ عندنا ـ في الحركات ، فلا مانع من ان نحرفن هذه الحركات .

* * *

ان الذين ينادون بالعامية ، يستندون غالباً الى فقر اللغة الفصحى ، لاستيعاب الالفاظ المستحدثة في العلم . ان الكلمات العامية لا تتقيد باوزان . وقد نشأ فروع من العلم ، لم يكن لها اثر عندنا ، بعد انقطاع عهد العلم في ديارنا . ثم احتكاكنا بالغرب ، واطلاعنا على احدث اكتشافاته العلمية ، واضطررنا الى ادخالها في حياتنا الاجتماعية ، ومدارسنا ، فكانت مشكلة المصطلحات . هذه المشكلة تعود ، بالاساس ، الى امرين : اولا عدم وجود الفاظ في لساننا لتلك المصطلحات . ثانياً اصطدامنا بالمتزمتين الذين لا يريدون زحزحة شيء من اللغة الفصحى. وذلك لانهم يعتبرون الفصحى في الفاظها لا في روابطها : من هنا حصلت المشكلة .

لقد اصطدم الغرب ، مثلنا ، بالمشكلة عينها يوم كان الشرق معلمه . هذا الاصطدام لم يكوّن له عقدة عويصة . السبب في ذلك ان الغربي لا يتزمت : لا يعتبر الفصحى في الالفاظ ، بل في الجمل . ولهذا اباح بناء الالفاظ على مُثُل جديدة ، دون ان يوجب الاقتباس بكلام قداماه . عندما وجد نفسه امام صناعة الجبر ، الذي هو علم عربي ، لم يتنكب عن فرنستها ، والمنتها ، وانجلتها،وطلينتها ، علىاعتبار انها من صناعة الشرق. وقد تركزت هذه اللفظة،

الدخيلة على الغربيين انذاك ، حتى اصبحت من اهل البيت . وهكذا لم تقف اللغة ــ بمعنى اللفظة ــ سداً منيعاً في سبيل تقدمهم الفكري. فما الذي يمنع اللغة العربية من ان تقتاس بالطريقة ذاتها ؟ ما الذي يمنعها من ان تحصر الفصحى في الروابط ، وبذلك تفتح باب التجدد على مصراعيه ؟ لا بأس من ان نتابع الغرب في اقتبال المفردات العلمية . هــذه المفردات لا تكوّن خطراً على اللغة العربية الفصحى،القائمة اصلا على الروابط الاعرابية . متى اقمنا الفصحى على الجملة ، لا على اللفظة ، سهل علينا التعبير عن المعاني . ذلك لاتساع العربية في ايجاد الاوضاع ، التي تؤدي جميع المعاني الممكنة . ان استعمال العلوم ، وتدريسها ، لا يقوم فقط على المصطلحات الفنية . هناك المادة الفكرية ، في العلوم ، التي لا يجوز ــ بحال من الاحوال ــ ان نعبر عنها بغير العربية ، لانها مادة انسانية بحت. انضحي بالمادة الفكرية،في سبيل بضع مئات من المصطلحات، نستطيع دائماً ان نعربها ، اذا لم نتمكن من ترجمتها ؟ ليس ضرورياً ان نترجم كل المصطلحات العلمية ، الى اللسان العربي ، لكي تصلح لغتنا . ان مثل هذا العمل لا يمكن ان يحصل في لغة من لغات البشر. مهما تكن اللغة زاخرة، زاهية ، فهي بحاجة دائماً الى انتكتب بحرفها القومي الفاظاً اعجمية . وهو من حسنات وضع الحياة الاساسي ، لانه يشعر كل مواطن بعدم الاستغناء عن سواه ، فيقوى فيه الوعي الانساني ، بالاضافة الى وعيه القومي .

* * *

٩

اللغة ليست حروفاً فقط ، ولا ألفاظاً فقط . اللغة ، كما قلناه ، وحدة لا تتجزأ . هي ابنية كاملة . ولذا كانت مقوماتها ، او معطياتها الاصلية الجوهرية ، شيئاً يتجاوز الالفاظ المفردة . هذه الالفاظ المفردة ــ كالفاظ مفردة ــ نستعملها اليوم ، لنهملها غداً . وما لنــا ، في سبيل ذلك ، الا ان نفتح قاموساً من قواميس العربية (أو من لغة اخرى) لنرى كم هناك من الاسماء ، والافعال ، التي هجرت ، او استكرهت ، فاهملت . الا تشتمل لغتنا (كما تشتمل كل لغة بشرية) على الفاظ غريبة ... منها ما هو فارسي ، او رومي ، او هندي ... استعيرت ، فاستعملت الى حين ، ثم اهملت في اقبية النسيان ؟ أليس هذا دليلا على ان قوام اللغة لا يكون في الالفاظ المفردة ، بل في ابنيتها الاعرابية النحوية ؟ الالفاظ المفردة تتغير ، فتزول ، ولكن اللغة لا تزول . الفصحى ليست في هذا الاسم ، او ذاك ، او ذلك . الفصحى هي في الاسم رمةً . والفرق جد كبير بين الالفاظ المفردة وروابطها النحوية ... جد كبير بين ان نقول « فعْل » وان نقول « هذا الفعْل » . هذ الفعل قد يتغير ، وقد لا يتغير ، ومن المستحسن غالباً ان يتغير . اما الفعل فعمود من اعمدة اللغة .

لا شك في ان تعمد العويص ، من النحو ، شيء غير مستحب ... شيء يعيق سير اللغة الى الامام . هذا غلو في الزينة ، والترف . هنا يصح التيسير ، بل يجب . ولا نعتقد ان احداً ، مارس بعض الشيء فن التعليم ، يجرؤ على نكران ضرورة هذا التيسير . ولكن ينبغي الا نبالغ في المناداة به ، كي لا نحوّل القضية

الى مأساة ، او فاجعة . التيسير واقع بطبيعة الحال ، أردنا ذلك او لم ترد ، لان اللغة كائن غير جامد، لا يسعها الا ان تتطور ، وتساير النشوء والارتقاء . بقاء اللغة في معزل عن كل تاثير خارجي امر مثالي ، لا وجود له في عالم الواقع. ونحن نخدع انفسنا حقاً ، اذا اعتقدنا أن اللغة تستطيع التوقف ... أن العربية في حالة جمود .

ولكن التيسير شيء ، والتغيير شيء آخر . تيسير الفصحى قضية تربوية ، والاستعاضة عنها بالعامية قضية فلسفية . الامر الاول لا يعني الامر الثاني . ان التيسير يتناول فروع اللغة ، اما التغيير فانه يتناول اصول اللغة ، التي هي اصول الفكر البشري ذاته . طلب التيسير شيء لازم ، وهو حاصل بطريقة عفوية . لكن هذا لا يبرر مناصرة العامية على الفصحى . مثل تلك المناصرة لا يعد تيسيراً ، في نظرنا ، بل تخريباً لمعطيات الوجدان البديهية ... لانطولوجية العقل الانساني . ان الخلط بين التيسير والتغيير (نعني بين قضية تربوية ، وقضية فلسفية) هو الذي جعل بعض اهل القلم يبتعدون عن جادة الحق . لو تحقق زعمهم، لعادت العامية ذاتها الى الثنائية، فانقسمت الى عامية فصحى وعامية غير فصحى . ذلك لانه وقف على اللغة ان تعكس الحياة (بل هي الحياة) والحياة ثنائية الاتجاه .

جميل ان نطالب بتيسير الفصحى وفق مستلزمات عصرنا العشريني. لغتنا الفصحى اليوم يجب ان تختلف عن لغة الزمخشري . لا نعتقد ان احداً منا يجرؤ على التمسك بالزمخشرية. ولكن التطور ذو حد لا يمكنه تجاوزه ، وإلا بطل ان يكون تطويراً . هذا التطوير يجب ان يحصل من لغة فصحى معقدة (اي لغة تعكس مجتمعاً ماضياً) الى لغة ميسرة (اي لغة تعكس مجتمعاً حاضراً) . هذا ما ينبغي ان يحصل ، وهو حاصل بطبيعة الحال . اما القول بالتطوير من الفصحى الى العامية، على اعتبار ان لغة الحياة هي العامية، فهو جهل لمعنى الحياة ، وتقويض لواقــع الفكر الانساني في عموده الفقري . ان التيسير ، الذي يفرض وجوده،

يجب ان يحصل من داخل الفصحى ، ليبقى في فلكها الخاص .

• • •

اجل ، ان عصرنا حافل بالعلوم ، والفنون ، والصناعات . هو عصر لا تنفك فيه ملكات الابداع ، وقوى الاختراع ، تقوم على اشياء كثيرة المنافع ، في سيرة المرء العقلية ، والعملية ، والاجتماعية ، الى ما هنالك من ضروب السير العسكرية ، والصحية، والمالية ، والزراعية . حيال هـذا السيل الجارف من الابتكارات ، لا تزال العربية — رغم بذل المجهود في تنميتها ، واستفراغ الطاقة في تعليتها — فاترة غير قادرة على السير في طريق الحضارة البشرية الحديثة . ولهذا كانت بحاجة الى عناية ، ورعاية ، وتوجيه ، وتوحيد .

ولكن هذا لا يعني ان العربية قد افلست بالتمام ، لكي ننادي بالعامية عوضاً عن الفصحى . اللغة العربية ما زالت في ريعان شبابها . وهي قادرة ان تجاري اوسع اللغات ، شرط ان نريد نحن تلك المجاراة الواسعة . ذلك ، لان اللغة مرآة تعكس احوال الامة ، وصورة ترسم مجتمعها ، واخلاقه ، ونزعاته . هي اصدق السجلات لنزخم الامة . فاذا كان ثمة من هرم ، وتقصير في اللغة، فذلك وارد من قبل الامة عينها ، التي تتخلف هي ذاتها في ركب المدنية « اذ اللغة باهلها — كما يقول اليازجي — تشب بشبابهم وتهرم بهرمهم » .

قلنا ، في ما سبق ، بان المصطلحات يضعها من يزاول معانيها . هو احق من غيره لوضعها في احضان الوجود . ذلك لان المصطلحات هي في بـدء من الافعال التي تعبر عنها . متى وجد الانسان الفاعل الشيء ، وجد طبعاً اسم هذا الشيء . الفعل والقول يتواجبان . معناه ان ازمة المصطلحات ، في اللغة العربية ، لا تحلها المجامع وحدها . ولعل الفرق الكبير بين مجامعنا اللغوية (في الشرق) ومجامعهم اللغوية (في الغرب) يقوم على ان مجامعنا استنتاجيـة ، ومجامعهم استقرائية . مجامعنا تفرض على الناس ما تصطلح هي على وضعه ،

وبجامعهم تثبت في المعاجم ، ما يدور اولا على السنة الناس ، فيقره الاستعمال . عملنا هابط من سماء الواهمة ، وعملهم صاعد من اعماق الحياة . والفرق عظيم بين ان نفرض على الناس محنطات ، وان يمدنا المجتمع بالفاظ معيوشة ، كتب لها البقاء .

موقف مجامعنا من اللغة موقف من يعتبر اللفظة واسطة لا غاية . موقف مجامعهم من اللغة موقف من يعتبر اللفظة غاية لا واسطة . ان الذي يعتبر اللغة واسطة ، لا يتنكب عن ان يتواطأ على وضع المصطلح ، الذي يروق له . اما الذي يعتبر اللغة غاية ، لا واسطة ، فانه يتسلمها وقفاً عليه من صميم الحياة . هي بنت العمل الصافي . بنت العفوية الطاهرة . بنت السليقة الوجودية المصطلح لا يفبرك بصورة اعتباطية . ومن هنا اخطاء مجامعنا اللغوية .

فاذا كنا نريد ان نقذف باللغة العربية الى ميادين التقدم ، لتتمكن من ان تجاري سواها في ركب المدنية ، يجب علينا : اولا ، ان نبشر (على اوسع نطاق ممكن) بضرورة الترجمة . هذه الطريقة تضع بين ايدي الناس الفاظاً ، تتفاعل فيما بينها على محك الذوق السليم الجماعي ، فاما ان تقبل واما ان تنبذ . ومن ثم يأتي عمل المجامع اللغوية . ثانياً ، ان نبشر (على اوسع نطاق ممكن) بضرورة اعطاء العلوم ، والفنون ، والصنائع – باللغة العربية – في المدارس ، والمعاهد ، والجامعات . ان استعمال اللغة العربية ، في التعليم ، ينزلها الى مستوى الحاجة والضرورة ، فنعمل اذ ذاك حياتياً على ايجاد المصطلحات ، وعلى وضعها بين ايدي الناس ، ليتداولوها ويقولوا كلمة الفصل فيها . ثالثاً ، ان نبشر (على اوسع نطاق ممكن) بضرورة الرجوع الى صاحب العمل المختص ، لنأخذ عنه المصطلحات العائدة الى هذا العمل ذاته . من احق من الفلكي في وضع مصطلحات لعلمه ؟ من احق من التاجر في وضع مصطلحات لمهنته ؟ من احق من الطبيب في وضع مصطلحات لعلمه ؟ ان الذي لا يعيش العمل ، لا يكون قادراً على وضع مصطلحاته المختصة به .

هذه القواعد تستند الى المبدأ الفلسفي ، الذي دافعنا عنه ، والقائل بان اللغة غاية لا واسطة . فهي تحترم ناموس الحياة ، الذي هو فرض على الانسان... وقف على الفرد . ازمة العربية ناتجة عن وضع سياسي ، لا عن وضع لغوي في صميمها . لقد قلنا ، ونعيد الكرة ، بان لا زعامة في عالم اللغات ،ولاعبودية ايضاً. فلماذا يريدون ان لا يكون في العربية قابلية استيعاب الحضارة؟ ألِعَجز في قوامها ؟ هذا ما لا نؤمن به . ان كل لغة ، من لغات البشر ، تستطيع وفق عبقريتها الخاصة ان تعبر عن كل ما يختلج به العقل الانساني . بناء عليه، لا نرى داعياً لعجز اصيل دائم في العربية ، شرط ان نريد نحن رفع خاتم الحرم عنها .

* * *

١٠

يبقى لمعضلة العامية والفصحى وجه سياسي ، لا بد من التطرق اليه ،بروح علمية خالصة . ان الذين يبشرون بالعامية يهدفون ، من قريب او بعيد ، الى وضع البلاد العربية ، في مناخ سياسي متفسخ . العامية اللبنانية تختلف عن العامية المصرية . والعامية المصرية تختلف عن العامية العراقية . والعامية العراقية تختلف عن العامية السورية . وهكذا نرى ان كل عامية تختلف كل الاختلاف عن عاميات البلاد العربية . بذلك تتقطع الوشائج اللغوية ، فيما بين الاقطار ، فتتقطع تدريجياً باقي الوشائج الاجتماعية . بهذه القطيعة اللغوية ، يصير لكل بلد عربي لغة خاصة به ، اذ يصبح لكل بلد عربي عامية تختلف عن عامية سواه ، من البلاد العربية . الى مـاذا تؤول الحالة ، في الشرق العربي ، لو

اخذت العاميات مركز اللغة الفصحى ؟ الشامي يقول : شلونك . واللبناني : كيف حالك . والمصري . ازيك . والمراكشي : لا باس عليك .
فتأمــل ؟

لو اتبع كل جيل اصطلاحات لغاته العامية ، وضرب صفحاً عــن اللغة الفصحى ، لامست اللغة لدينا الآن لغة اعجمية نكاد لا نفهمها ، وتعذر على السوري فهم لغة المغربي ، وعلى المغربي فهم لغة المصري ، وعلى المصري فهم لغة العراقي ، كما حصل للغة العربية مع سائر اللغات ، التي خرجت عنها . وآخر هذه اللغات هي اللغة المالطية . وهكذا حصل للغتين اليونانية،واللاتينية قديماً مع اللغات ، التي تفرعت عنهما في ذلك العهد ، وقد نشأت عامية في بادىء الامر.يقول طه حسين ، بهذا الصدد ، ما يلي :

احب ان الفت نظر ادبائنا الذين يطالبون بالانتجاه الى اللهجات العامية الى شيء خطير ما ارى انهم قد فكروا فيه فاحسنوا التفكير . وهو ان العالم العربي الان ، وكثيراً من اهل العالم الشرقي كله يفهم العربية الفصحى ، ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه ، وللتواصل الصحيح القوي بين اقطاره المتباعدة . فلنحذر ان نشجع الكتابة باللهجات العامية ، فيمعن كل قطر في لهجته ، وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتبادر . ويأتي يوم يحتاج فيه المصري الى ان يترجم الى لهجته كتب السوريين ، واللبنانيين ، والعراقيين . ويحتاج اهل سوريا ولبنان والعراق ، الى مثل ما يحتاج اليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية الى لهجاتهم ، كما يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين، وكما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين.
ولنسأل انفسنا آخر الامر ايهما خير ان تكون للعالم العربي كله لغـــة واحدة ، هي اللغة الفصحى ، يفهمها اهل مراكش كما يفهمها اهل العراق ، ام ان تكون لهذا العالم لغات بعدد الاقطار التي تأتلف منها ، وان يترجم بعضه عن بعض ، كما يترجم بعض الاوروبيين عن بعض . اما انا فأوثر وحدة اللغة واثق الثقة كلها بان لها النصر آخر الامر وارى غير متردد ان وحدة اللغة هذه خليقة بان يجاهد في سبيلها المؤمنون بها . وبان يضحوا في سبيلها بكل ما يملكون ١ .

لا خوف على اللغة الفصحى من الذين يريدون القضاء عليها . لو عقل هؤلاء

---

١) العدد الاول من مجلة «الحصاد» كانون الاول ١٩٥٥ ص ٢٦ .

لعلموا ان محاربتهم لها هي محاربة لناموس طبيعي صرف . هذا الناموس هو ضدهم في تلك القضية. ان الثنائية تعتري كل لغة في العالم . هي احدى المعطيات البديهية في حياة الشعوب . ولا تعد امة من الامم في مستوى راق ، من الحضارة، الا اذا نهضت بلغة القول والكتابة معاً الى درجة عالية من الرقي.. - اي الى درجة الفصحى . كلما تحضر الانسان احتاج الى نمط خاص من التعبير ، يختلف عن النمط الذي يستعمله في وجوده اليومي . عمل هذا الناموس لم تنج منه لغة من لغات البشر ، ادناها واسماها . ولن يزال يفعل فعله ذلك فيها ، الى ما شاء الله ، وهو جار في الالفاظ والجمل عن غير قصد من الناطقين . تلك عفوية الحياة ... تلك حتميتها .

لنفرض ان العامية انتصرت ، آخر الامر ، فهل تحل المشكلة ؟ ألا يتنازع لبنان ، مثلا ، عدة عاميات ؟ باية واحدة منها نكتب ؟ لا بد لعامية من ان تطغي على اخواتها فتصبح بدورها لغة موحدة ، اي لغة فصحى ، اذ التوحيد ضروري في اللغة . تصبح ذات قواعد واحدة ، وشواذات واحدة . ان مشيئة الطبيعة هي التي تريد ذلك .

نحن نعلم ان اللغة هي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية . والحياة الاجتماعية ، في الشرق العربي، ترينا ان بلاد هذه الرقعة الجغرافية تسير نحو فدرالية واضحة. .. تتطور نحو التشابك في المصالح ، يوماً بعد يوم ، مما يفرض نمطاً واحداً من التفاهم . وقد وعت اوربا ، اليوم ، هذه الحقيقة ... وعت ان وحدة اللغة تسير جنباً الى جنب مع الوحدة الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية . وهي (اي اوربا) تحاول ما في استطاعتها ان تدرك الانسجام الاقتصادي، والسياسي، والاجتماعي . وحدة اللغة ، اذن ، شرط من شروط هذه الوحدات التي تتغنى بها ، وترغب فيها . لا نعني هنا بوحدة اللغة القضاء على اللغات القومية . وانما ايجاد لغة فصحى، بالاضافة الى اللغات ـ الام ، تكون سبيل تفاهم بين الشعوب الاوربية المختلفة . وقد تنبه الى ذلك احد اساطين الفكر الفرنسي سنة ١٩٤٦ .

قال جوليان باندا (Julien Benda) ما يلي :

اذا كنا نريد ان نزود الغرب وحدة روحية ، علينا ان نجند الحملات في سبيل انشاء لغة غربية . اعني لغة تضاف الى لغات مختلف القوميات الغربية ، بدون ان تحدث التخريب في هذه اللغات . يكون مثلها مثل الفرنسية التي اضيفت الى البيكاردية ، والبروفنسالية ... ومثل الانكليزية التي اضيفت الى الغالية ، والايكوسية . هذه اللغة يتلقنها الاولاد جنباً الى جنب مع لغــة بلادهم . مثلهم مثل اولاد عائلات مثقفات كثيرة في الغرب ، يتعلمون الافرنسية – لمدة طويلة – بالاضافة الى لغتهم القومية ١ .

لقد راى جوليان باندا ان اوربا تسير نحو الفدرالية الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية . وراى ان هذا السير نحو الفدرالية سيجر معه اوربـــا نحو فدرالية لغوية ، تتبلور في لسان واحد ، بالاضافة الى اللغات القومية . ولهذا قال يجب ان ننشيء لغة غربية . تلك مشيئة الطبيعة . فلماذا لا نرى – في لغتنا الفصحى – مشيئة من مشيئات هذه الطبيعة ؟ لماذا لا نعتبر الفصحى، عندنا ، نعمة نتمتع بها في الشرق العربي ، وقد حرمها الغرب ؟ حرم نعمة ، منحتنا اياها الطبيعة ، ونحن عنها غافلون . لقد وفرت الطبيعة ، علينا ، حل معضلة لغة توحد بين جميع البلاد العربية .

• • •

١١

وفي الختام نقول : نحن لا ننادي بالعامية في سبيل القضاء على الفصحى... ولا ننادي بالفصحى بغية القضاء على العامية. نقول لا غنى للانسان عن العامية والفصحى . هما ، في نظرنا ، من صلب الحياة . الذين يتحيزون لهذه ، او تلك ، يجهلون وضع لطيفتنا البشرية ، التي تفرضها هي ذاتها . ذلك التحيز

١) راجع مقاله في كتاب L'Esprit Européen ص ٢٧ سنة ١٩٤٦ .
Rencontres Internationales de Genève

هو الذي خلق المعضلة . امـا نحن فاننا نعترف بحتميتها ... بحتمية الحس والعقل. من السخف، اذن، ان نعتبر العامية انحطاطاً لسانياً من اللغة الفصحى... ان نعتبرها رديئة ، فاسدة ، تتميز بالركاكة ، والرطانة ، والعجمية . ومن السخف، ايضاً ، ان نعتبرها افضل من الفصحى بدليل كونها سابقة" في الزمن للغـة الفصحى . ان الاسبقية في الزمن لا تعني اسبقية في القيمة . والا لظل الطفل افضل من الراشد . ولبقي عصر الحجر افضل من عصرنا العشريني . ولانتفى مبدأ التطور الخلاق ، الصاعد .

نحن نقول بان العامية فصيلة لسانية قائمة بذاتها . هي لنوع خاص من حياة الوجدان . لها نظامها الصوتي ، والتركيبي . لهـا مفرداتها ، واقتباساتها ، وقياساتها . لها ادبها ايضاً . ونقول ، في الوقت ذاته ، بان الفصحى فصيلة لسانية قائمة بذاتها . هي لنوع خاص من حياة الوجدان . لها نظامها الصوتي ، والتركيبي . لها مفرداتها ، واقتباساتها ، وقياساتها . لها ادبها ايضاً . من الخطأ جداً ان نرجع احداها الى الثانية . هما فصيلتان من لغة واحدة . مثلها مثل ثنائية الحس والعقل من الانسان الواحد . هذه الثنائية تخلق نوعاً من التوازن في اللطيفة . هكذا العامية والفصحى .

ونحن نقول ، ثالثاً ، بضرورة تطوير العربية الفصحى ، لكي تنسجم مع روح العصر. نحن نقبل بالمصطلحات الفنية الجديدة ، التي يفرضها تطور الحياة ذاته. نحن نقبل ، بكل طيبة خاطر ، كلمة « تلفون » . ذلك لأن حضارة القرن العشرين هي التي ارادتها . نقبلها على انها دخيلة ، في البدء ، لتصبح اصيلة فصيحة مع الزمن . لا شيء في العالم يستطيع ان يرفض كلمة من الكلمات، متى شاعت ، وعمت على السنة الناس . ان المجامع اللغوية كلها ، ووزارات المعارف ، والحكومات ، عاجزة عن ان تفرض مصطلحاً واحداً على الشعب، اذا كان هـذا المصطلح لا يحمل – اولا – في اعطافه ، وتضاعيفه ، جواز مرور من الشعب ذاته . اللغة ليست لطبقة دون طبقة . هي ليست لزمن دون

زمن . هي ليست للماضي دون الحاضر . ولا للارستقراطيين دون غيرهم . ليست لغة البلاط، فقط ، او لغة الادباء والشعراء ، او لغة القصور والابراج العاجية . اللغة لكامل الشعب ، وما يقوله الشعب هو الاصلح . ذلـك لان الشعب هو المؤتمن على صوابية الحياة . ولا نقصد بالشعب طبقة العمال ، فقط، او الفقراء ، او رجالات الشارع . نقصد به ما شاع على السنة المجموع الاكبر. ان الشيوع هو الذي يبرهن على ان المصطلح النفسي ، يحمل فيه قابلية البقاء ، اكثر من غيره .

لا خوف على اللغة الفصحى من العامية ، ولا على العامية من الفصحى . ان الازمة الصاخبة التي تمر بها العربيةالآن هي ضرورية،في نظرنا، لتدفع بالفصحى من فلك الجمود الى فلك الحركة ، دون ان يبطل كونها فصحى . يقيننا انها لن تهبط الى العامية ... وان العامية لن ترتفع الى الفصحى . لكل منهما دائرته . هذا هو منطق الحياة ، ومنطق الحياة يعلو ولا يعلى عليه .

• • •

الباب الثاني

في لغتنا القومية

نصل الآن الى بيت القصيد . ما هو موقفنا ، في هذه الرقعة الجغرافية ، من لغتنا القومية ... نعني من اللغة العربية ؟ لا شك ان اللغة القومية يجب ان تأتي ، نظراً وعملا ، في المقام الاول . نقول نظراً ، لانه لا يكفي ان يجيد الانسان لغته القومية اجادة قاموسية ، بل ينبغي له ان ينظر اليها نظرة اجلال. اللغة القومية جزء لا يتجزأ من كيان الشعب . هي شرش نابض في حياة الامة الواعية . بدونها لا يرتقي الانسان فكراً...ولا يسهم الشعب في بناءالحضارات الخلاقة . ولهذا يجب عليه ان يجمع بين وجوب مزاولتها، قاموسياً ،ووجوب النظر اليها باحترام . يجب ان تصبح من لحمه ودمه . ان تصبح من جملة معطياته البديهية ، التي يقوم عليها شعوره القومي . تلك المعطيات لا تستبدل : لا يستخف بها . والا يكون الانسان قد نحر ذاته بذات يده ، فانعدم .

لا تفعل اللغة فعلها الانطولوجي ، ما لم تنهض كباقي مظاهر الحياة الاجتماعية في الامة . أن يزدهر الشعب في السياسة ، والاقتصاد ، والزراعة ،والعلوم ... ولا تزدهر لغتهالام ... فهذا لا يعني ازدهاراً صحيحاً . الحضارة الحقة هي، في نهاية الامر ، حضارة الفكر . ولا حافظ للفكر غير اللسان . والا كانت الحضارة من جهة المادة ، فقط ، اي فوّاشة بائدة . ان الشعب الواعي قوميته، لا يرضى لغير لسانه مركزاً اولا في نهضته . هذا اللسان يجب ان يتحد اتحاداً

عينياً بقلب الشعب . ان يُحترم ، ويُقدّس ، ويُعبد ، حتى يتغلغل في كامل جسم الامة ، هابطاً وصاعداً ... حتى يصبح عقيدةً ، وايماناً ... وهكذا يتسنى للغة ــ الام ان تنمو نمواً انطولوجياً ، لا نمواً قاموسياً ، فقط .
هذه النظرة الايمانية في اللسان العربي ... هذه العقيدة الانطولوجية ... لم تكن لنا . موقفنا من اللغة العربية ما زال موقفاً سلبياً ، سيما من جهة النظر ؛ قد نكتبها جيداً ، ولكننا لا نؤمن بفوقيتها ... باسبقيتها ... بانطولوجيتها . لم تدخل ، ايمانياً ، في صلب كياننا القومي . مثلنا في ذلك مثل برغسون ، الذي احسن الكتابة ، وهو مسيء الى اللغة . لقد كنا اميل الى التسليم بامكان فصل الجوهر عن الوجود... الانسانية عن القومية... وبالتالي الفكر عن اللغة . الحقيقة ان الذين دافعوا عن اللغة، والذين هاجموها ، لم يدركوا موضع الصواب من القضية . كلهم اعداء لها .

• • •

١

وضع القرن التاسع عشر ، اللغة العربية ، امام سيل جارف من المصطلحات العلمية . وذلك بسبب الاحتكاك الحضاري الذي قام بين الشرق والغرب . تلك المصطلحات العلمية لم يكن لها ما يعادلها في اللغة العربية . لهذا كان لا بد من اتخاذ موقف واضح ازاءها ، نظراً للتفاوت الادائي ، الذي حدث بين اللغة العربية واللغات الاجنبية . وقد اتخذت فئة اولى موقفاً سلبياً ، محافظاً ، من هذه المشكلة اللغوية . لم ترد ان تستعير من السنة الغرب . ان تكون

مبدعة ، بل تابعة للسلف تماماً . لم ترد ان تشوه لغة الاقدمين،الكلاسيكية ، التي
يجب ان تبقى على اسلوبها وقوامها .

لم ترد ادخـــال دم غريب على دمها . لم ترد فتح شبابيكها على وديان غير
وديانها ... وسماوات غير سماواتها ... وانوار غير انوارها . وتعتقد هذهالفئة
انها تحسن الى اللغة العربية . الحق انها تطعنها في الصميم . ذلك لانها تفصلها
عن الانسان ... عن المعنى ... لتصنمها في الخارج . مثَلها مثَل الصينيين ،
الذين يسارعون الى صندقة قدم المولود ، فور ولادته ، في قالب من حديد :
النتيجة ؟ ايقاف نمو القدم عن الازدهار ... عن التمدد في مجاله الطبيعي ... :
فتخور القوى ، وينعدم الانطلاق الصاعد .

تلك الفئة متزمتة.خطأها انها تفصل اللغة عن اللطيفة البشرية، وبذلك تجمدها :
هي تجهل ان اللغات ليست شيئاً ساكناً . اللغات تتصارع فيما بينهـــا ، عند
الاحتكاك ، وتتنازع على البقـــاء . السبب ؟ هي كائنات حية . مثَلها مثَل
الشعوب ، عند الاحتكاك . هي لا تظل مكتوفة اليدين ، يوم تتجابه ، ولكنها
تدخل في عراك شديد . الغالبة تبقى ، والمغلوبة تطرد . هذا العراك ... هذا
الصراع ... هو الذي يحافظ عليها . ذلك لانه ينيخهـــا لامتحان قاس . اذا
كانت قوية ، بالاساس، زادت قوة في الاحتكاك. والا انسحبت من الميدان ،
لتترك غيرها تزداد قوة . وغني عن البيان ، هنا، ان الغالبة لا تخرج ابداً سليمة
من الصراع . انهـــا تتأثر بالمغلوبة ، فتأخذ من مفرداتها ، وتتبنى الكثير من
مظاهرها الطيبة . بهذا الاخذ ، والتبني ، سلامة اللغة ... بقاؤها ... غناها..
خلودها . علينا ، اذن ، ان ننزل اللغات الى ساحة العراك . من كان قابلا
للحياة انتصر ، وتجدد كيانه . ومن كان غير قابل للحياة مات ، واندثر .

* * *

سؤال .
في اية حقبة من الزمن كانت اللغة العربية عارية من كل دخيـــل ؟ اكثر من ذلك . في اية حقبة من الزمن كانت مطلق لغة بشرية عارية من كل دخيل ؟ الجواب عن هذا السؤال جد عسير. الحياة ادركُ مما نظن وهي ذاتها تفرض عكس العفاف الذي نتصوره . عفاف اللغة ، في نظر الحياة ، ليس بالمحافظة على مفرداتها . على تجميد الفاظها. اللغة ، من جهة المفردات ، هي دائماً عرضة للتغير والتبديل ، وفقاً لسنة النشوء والارتقاء . وهذا يعود الى ان الشعب ، الذي يتكلمها ، هو في احتكاك دائم مع الغير . ولما كانت اللغة هي الانسان المتطور عينه ... هي الشعب المتحول ذاته ... فمن الواجب ان تقبل ، هي ايضاً ، ناموس التغيير والتبديل . ولهذا لا يمكن لقدرة فردية ، او غير فردية ، ان توقف تطور اللغة . ان تجمدها في وضع خاص .

المعجمات لا تحفظها . دائرات المعارف لا تصونها . تحديد الفاظهـــا لا يقيها خطر التغيير . هي اقوى من كل تلك السدود ، التي تحطمها وتتفلت منها ، لتسير في طريق النمو الصاعد . والعرب لم يكونوا اعداء للتجدد ، والخلق ، والتوسع ، في عصر مـــن عصور نهضتهم . اما في اللغة فقد اباحوا كل الاشتقاقات النـــاجحة ، وتصرفوا برحابة صدر . والاشتقاق ، اصلا ، لم يوضع الا ليسهل على القوم ادراك المعاني الغريبة ، واستيعاب المصطلحات الاجنبية . وبذلك يطلون على آفاق جديدة ، وانماط وجدانية لم يكن لهم بها علم من قبل .

لم تتنكب اللغة العربية عن اتباع ناموس النشوء والارتقاء .هي طيعة ،كسواها، لينة راقية . فقد سايرت الشعوب ، التي تكلمتها ، في جميع مراحل تاريخها . وافقت وانسجمت . تكيفت وفق البيئة ، واتخذت خصائص كل موجة مـن موجات تاريخها.من اجل هذا كانت تكثر مفرداتها ، وتغزر اساليبها البلاغية . انتقلت من خشونة الجاهلية . الى حضارة الاسلام ، ثم اندفعت من فلك بني

امية الضيق الى فلك بني العباس الواسع. ولذا تهذبت طرقها ، ورقت حواشيها، وملكت مرونة اقوى في الدلالة .

اذا رجعنا الى ماضيات عصورها ، رأينا ان النحاة واللغويين لم يصدوا الابواب في وجه مـن اراد اثراء اللغة . لقد استعاروا الكثير من الالفاظ الاعجمية ، للتعبير عما لا تستطيع لغتهم تأديته يومذاك . ولا عجب في ذلك. فالصراع واقع دائماً ، لا محالة ، بين الدخيل والاصيل . وكم من مرة تغلب الدخيل بسبب رشاقته ، ولينه ، ووزنه . اجـل ، ليس ضرورياً ان يفوز الاصيل دائماً . لا فرق ، عند الحياة ، بين الدخيل من المفردات والاصيل : فقد يسايرها الدخيل ، اكثر ، فينتصر. تتوافر فيه الشروط ، اكثر ، فيفوز . ان خفة بعض الاعجميات ، ومادتها الطرية ، ومحاكاتها للوزن العربي ، تعطي للدخيل جواز مرور فيدخل قاهراً .هذه الصفات ، تكسب الاعجميات مناعة وجمالا ، يوجبان لها حق الصدارة . ولذا يرحب الضاديون بها اوسع ترحيب. تلك الاعجميات تلبس قميصاً عربية ، فـلا يعود ممكناً للناطقين بالضاد ان يتوهموا انها اعجمية . كانت دخيلة . وبسبب لطافة لفظها ، ورهافة احرفها، اصبحت اصيلة . اصبح الشعب يحتفظ بها ، ويدخرها لجميع رغباته . اكثر من ذلك . اصبح القضاء عليها من ربع المستحيل ، لان خلفها قوة الاستعمال ومسايرتها لمميزات اللغه العربية .

• • •

ما لنا الا ان نفتح كتب القدماء ، من معاجم عربية وغير معاجم ، لنقع على الكثير من الدخيل ، الذي اشتهر وعرف ... وعلى الكثير من الاصيل الذي غدا نسياً منسياً . الاولى وافقت ذوق الحياة ، فانتصرت ، واصبحت مـن داخل البيت . الثانية انحرفت عن رغبة الحياة ، فغلب على امرها ، واصبحت من خارج البيت . من منا يتوهم ابداً ان المفردات التالية هي اعجمية ؟ الفرند

السيف . الفرزدق . البرواز . الفيل . البلطة . البندق . الكزبرة . التلميذ . الفردوس . السوسن . الصندوق . الاستاذ . الالماس . البخشيش . البرنيطة . الشرطة . الاسطوانة . الهندباء . السراي . الطاولة . البوسطة . القناة . الترعة ، الخنزير . الدفتر . الساذج . الشوربة . الكشتبان . الكروسه . الشمعدان ؟ وغيرها ايضاً وايضاً .

اجل ، من منا يتوهم ابداً ان هذه المفردات هي اعجمية ؟ الواقع انها اعجمية، وقد صارت من اهل البيت. والواقع ان عربويات كثيرة، مقابل هذه الاعجميات، صارت خارج البيت . وهكذا نرى كيف ان العرب جمعوا بين غرضهم من المحافظة على اللغة ، وبين اقتباس اوضاع العلوم الحديثة . لا عار على اللغة ان تقتبس . هي سنة الطبيعة بين الامم، التي تتجاور ، او تختلط بالعلم والغزو : اذ لا تستطيع لغة واحدة ، مهما علا شأنها ، ان تقوم بحاجة التعبير عن كل شيء ، دون الالتجاء الى سواها ، والاستعانة بها .

هذا حال كل اللغات البشرية . جابه العرب ، في اول نهضتهم ، حضارة يونانية جبارة . حصل الاحتكاك ، فكراً وعملا ، فاضطروا الى الاخذ . شيء طبيعي . فقالوا ، في تعريب منطق ارسطو ، ما لا نجرؤ اليوم على قوله . قالوا : الاناليطيقا (التحليل Analytic) الافودقطيقي (الايضاح Apodectic) . الديالقطيقي (الجدل Dialectics) . الطوبيقي (الموضوع Topic) . القطوغوريوس (المقولات Categorics) . السوفسطيقي (المغالطة Sophisticism) . الريطوريقي (الخطابة Rhetoric) . البيوطيقي (الشعر Poesy) . السولوجسموس (القياس Syllogism) . ارتماطيقي (الحساب Arithmatic) . اسطرونوميا (الفلك Astronomy) ارمانوطيقا (التناغم Harmonic) . الميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة Metaphyic)[1] .

---

[1]) راجع معجم الدكتور محمد شرف في العلوم الطبية والطبيعية . المقدمة . ١٩٢٩ . المطبعة الاميرية بالقاهرة .

ليس عجباً ان يكون الفكر العربي قد اضطر الى الاقتباس . الفكر لا يظل مكتوف اليدين امام فكر آخر . التشرب ناموسها . التلاقح شرعها . التزاوج قانونها . ولقد كان هذا ايضاً حال اللغات الاوروبية ، يوم جابهت حضارة عربية عملاقة . قال الاوروبيون : (البرقوق) Abricot (الجبر) Algèbre (الكحول) Alcool (الكيميا) Alchimie . (الانبيق) Alambic : (امير) Amiral . (العضادة) Alidade . (الخوارزمي) Algorithme . (لازورد) Azur . (حشاشين) Assassin . (دار الصناعة) Arsenal . (عربية) Charabia .(غرف) Carafe . (كافور) Camphre .(ديوان) Divan . (قرمزي) Cramoisi . (صفر) Chiffre . (شف) Chiffon (زرافة) Girafe . (فردة) Fardeau . (الاكسير) Elixir . (جبة) Jupe . (ياسمين) Yasmine . (هول) Houle . (الزهر) Hazard . (مطرح) Matelas . (مسخرة) Mascarade . (مقابر) Macabre . (منارة) Minaret . (مسكين) Mesquin . (مطرقة) Matraca . (رصيف) Récif . (مسجد) Mosquée . (موميا) Momie . (طلسم) Talisman . (سكر) Sucre . (صداع) Soda . (شراب) Sirop . (طبل) Timbale . (طنبور) Tambour .[1]

ويقول غوستاف لوبون ، في كتابه حضارة العرب ، ان اللغة العربية كانت ذات اثر عميق في اللغات اللاتينيه . وقد تركت هذا الأثر في فرنسا ذاتها . ثم ذكر لوبون ، عن سيديو ، ان اللهجات السائدة في ولاية اوفرن ، وولاية ليموزان الفرنسيتين ، محشوة بالكلمات العربية . وان اسماء الاعلام فيهما ذات مسحة عربية [2].

* * *

1) راجع الملحق لقاموس Emile Littré . سنة ١٨٨٦ Hachette . باريس .

2) راجع حضارة العرب تأليف غوستاف لوبون . ص ٥٣٣ . ترجمة عادل زعيتر . الفصل الخامس .

ان لغة الشعب تتسع باتساع حضارته . تغزر مفرداتها بكثرة حاجاته ،وموافق حياته . وتسمو اساليبها برقي تفكيره ، وتهذيب نفسيته . اذ لا يمكن ان ينتقل الشعب من حالة الى حالة ، دون ان يطرأ تغيير على قوامها . لا يمكن ان يحصل هذا الانتقال ، بدون ان تستحدث اساليب في العيش جديدة ، يستشرف بها الناس انماطاً من الحيـــاة ، لم يألفوها قبلا . هذا التطور يحدو اللغة على فتح منافذها ، ليتجدد دمها بالتعريب . وقد شاءت الطبيعة ان تزود كل لغة بشرية ، بطرق خاصة ، تقبل فيها المفردات الغريبة . ففي العربية الوضع ، والاقتباس ، والاشتقاق ، والقلب ، والنحت ، والابدال ، الى ما هنالك من طرق تساعد على جعل اللغة غنية بالمفردات المستحدثة .

ان تلك الفئة المتزمتة ، الموسومة بالتحفظ والاستمساك، تضعف يوماً بعد يوم. ذلك لانها تجهل ما للحياة من سطوة على اللغة . والحياة لا تعاند ، ولا تقاوم : وهي ذاتهـــا تفرض التطور الخلاق . تلك الفئة تقفل باب الاجتهاد ، والابتداع ، وبذلك تعمل على تمويت اللغة العربيـــة . ان اللغة لم تخلق دفعةً واحدةً . اللغة حياة ، تتدرج حسب مقتضيات الحاجة الى التعبير . تتبدل مع الاحوال ، وتتحوّل مع كل تبدل . اتريد تلك الفئة المتمسكة ان تبقى عربية القرن العشريني ، كما كانت في الجاهلية ، وصدر الاسلام ؟ لقد تحولت في كل عصر من عصورها . اتصل العرب بالفرس ، والسريان ، والكلدان ، واليونان والاحباش ، والروم ، فكان لزاماً على ظروفهم ان تتغيّر ، وعلى تطوراتهم ان تتسع ، وعلى المفردات ان تستحدث لديهم .

نحن اليوم في اشتباك حضاري مع الغرب . من السخف ان لا تشتبك العربية مع لغاته . ومتى اجتمعت لغتان ، او اكثر، في بلد واحد ... وكانت عريقة التاريخ ... تأثرت بعضها ببعض . والعربية اليوم ، بفضل الاحتكاك الدائم ، تتغير الى حد بعيد . ولذا نراها تسيغ ما تأخذه من لغات اوربا ، وتحوله الى عناصرها ، بدون ان تترك له المجال كي يغير في قوامها الاصيل . وهذا دليل

على انها مجهزة احسن تجهيز للسير في ركب الحضارة الحديثة . فالاشتقاق يرجحها على اكثر اللغات الغربية الحية ، التي لا تستطيع ان تستحدث الا من اصول اغريقية او لاتينية . وحالتها اليوم كحالة اللغات الانجليزية ، والفرنسية ، والايطالية ، والالمانية . يعني انها تحمل فيها كل خواص الحيــاة للارتقاء ، ومجاراة اللغات الزاخرة بالمصطلحات العلمية. ان كل لغة تكبو في بدء نهضتها - وهو امر عادي . هذه الكبوة لا تكون لغير حقبة من التاريخ ، فقط ، حتى اذا مــا اراد الشعب الذي يتكلمها ان تصبح ذات ثروة تعبيرية ، نشطت ، ولحقت بغيرها من الامم المتمدنة .

ليست اللغة جوهراً كائناً خارج الانسان ، في عالم المثل الارفع . هذا تجميد لحرارة اللغة . اللغة كائن حي ، ينمو، ويتطور ، ويشيخ . وهو البرهان القاطع على انها من الانسان . على انها الانسان ذاته . على انها خاضعة لارادة الانسان الخلاقة . من الجهل الاعتقاد ، اذن ، ان العربية لا تتطور . انها باقية كما كانت قديماً . ان المجلات ، والصحف ، وترجمة الكتب العلمية ، والاحتكاك بالاداب الغربية ... كل هــذا جعل الاسلوب العربي يتطور نحو السهولة ، والوضوح ، وفقاً لحاجات الشعب . كان من اثر ذلك ان تراجع السجع الغليظ، والحشو الممل . قلّ اسلوب العربية القديم . وصارت الالفاظ الين ، والبق ، واطوع لماشاة الحياة ... واكثر انقياداً لرغبات الشعب . ان الذين يريدون ان يحافظوا على اللغة العربية ، لتظل كما كانت قديماً ، يقفون بصراحة في وجه التقدم . هؤلاء اعداء تطوير الشعوب العربية . إذ لا يمكنْ ان يتحضر الشعب في سياسته ، واقتصاده ، وعلومه ، ولا يتحضر في لغته . اللغة جزء لا يتجزأ من وحدة الامة . عليها اذن ان تساير مجموع تلك الوحدة . هي من الشعب ، وهي الى الشعب تعود .

* * *

ظنت هذه الفئة ان انشاء المجامع اللغوية يحفظ اللغة من الانهيار . فكانت مجامعنا اللغوية ، وكان اعضاؤها من اللغويين . لكن مجامعنا تلك لم تنجح في مهامها...ولغويينا اولئك لم يفلحوا اطلاقاً. وقد شهر الشيخ ابراهيم اليازجي بهذا التقصير ، فكان شديداً في الانتقاد ، صريحاً . قال :

كان قد عقد ، في هذه الجامعة ، اعني مدينة الجامعة ، مجتمع لغوي تطالت اليه اعناق الناطقين بالضاد من جميع الآفاق العربية ، وتوقع المتأدبون منه فوائد جمة ، مما لم تبرح النفوس متطلعة اليه ، والاماني معقودة عليه . فاعترض دون تلك الثمرات ما عهد في اهل الشرق عامة ، والمصريين خاصة ، من وناء الهمم وتخلف الثبات ؛ على حين لم يخطوا في هذا الشوط الا خطوات يسيرة ، ابانوا فيها عن راي فطير وبضاعة مزجاة [١] .

هذا ما قاله اليازجي ، وقد اجلى به كل شبهة ، فجاء كلامه صادقاً كلسان الحق . وبديهي ان نطرح ، هنا السؤال الآتي : لماذا اخفق اللغويون ،وفشلت المجامع اللغوية في ايجاد المصطلحات ، التي تعبر عن مشخصات عصرنا ، مع ان اللغة العربية ــ كما وصفها الواصفون ــ هي من اغزر الالسنة مادة ، واوسعها تعبيراً ، وابعدها للاغراض متناولا ، واطوعها للمعاني تصويراً ؟ سبب هذا الفشل الاعتقاد الراسخ ، في اذهاننا ، ان وضع المصطلحات امر لغوي بحت . هذا هو الشيء الذي جعل مجامعنا تخفق ، دون ان تظفر الآمال ببلة من ابحاثها في اللغة . ان اللغويين يعرفون اللغة علماً ، ولكن قلّ منهم من احكها عملا ، لأن استعمالها بتأديب وتهذيب (اي توخي السهل دون الصعب ، والعذب دون المستكره ، والجزل دون ما يتجافى عن مضاجع الرقة) هذا الاستعمال يتطلب ذوقاً سليماً ، الذي هو حس في القلب ، اكثر مما يتطلب مهارة في صناعة الاعراب ، والاشتقاق . ان الذوق السليم انفع ، في الاستعمال ، من ذوق التعلم .

قلنا بان مجامعنا اللغوية لا تبحث في المصطلحات ، الا من الوجهة اللغوية ،

---

١) راجع روائع فؤاد افرام البستاني .

على حين ان اللغة هي بالاساس قضية فلسفية . ولعل الفرق الكبير بين مجامعنا اللغوية (في الشرق) ومجامعهم اللغوية (في الغرب) يقوم على ان مجامعنـــا استنتاجية ، ومجامعهم استقرائية . مجامعنا تفرض على الناس ما تصطلح هي على وضعه ، ومجامعهم تثبت في المعاجم ما يدور اولا على السنة الناس ، فيقره الاستعمال . عملنا هابط من سماء الخيال ، وعملهم صاعد من ارض الواقع . والفرق عظيم بين ان نفرض على الناس محنطات ،وان يمدنا المجتمع ذاته بالفاظ معيوشة ، كتب لها البقاء . ومن هنا كان المجمع اللغوي ، عندهم ، يدّون فقط ما يدور على السنة الناس . لهذا كانت القضية ابعد بكثير من ان تحل بقرار ، او مرسوم ، او فرمان . فلا المجامع اللغوية ، ولا وزارات المعارف ، ولا الحكومات العربية (قاطبةً) ولا الدائرة الثقافية في الجامعة العربية ، بقادرة على ان تفرض مصطلحاً واحداً ، اذا كان المصطلح لا يأتي من الشعب عن طريق الاستعمال اولا . علينا ، اذن ، ان نبشر (على اوسع نطاق ممكن) بضرورة الترجمة . هذه الطريقة تضع بين ايدي الناس الفاظاً ، تتفاعل فيما بينها على محك الذوق السليم الجماعي . فاما ان تقبل واما ان تنبذ . ومن ثم يأتي عمل المجامع واللجان اللغوية ... أن نبشر (على اوسع نطاق ممكن) بضرورة اعطاء العلوم ، والفنون ، والصنائع – باللغة العربية – في المدارس ،والمعاهد، والجامعات. ان استعمال اللغة العربية،في التعليم،ينزلها الى مستوى الحاجة والضرورة، فنعمل اذ ذاك حياتياً على ايجاد المصطلحات ، وعلى وضعها بين ايدي الناس ، ليتداولوها ويقولوا فيها كلمة الفصل .

• • •

المجامع اللغوية لا تحافظ على سلامة اللغة . ولا تستطيع ان تجعلها وافية بمطالب العلوم ، والفنون ، في تقدمها ... وملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر . وليس على المجامع اللغوية ان تجيز بعض الالفاظ الاعجمية ، عند

الضرورة ، على طريقة العرب في تعريبهم . اجل المجامع اللغوية لا تقوى على فرض ارادتها ، التي كثيراً ما تجيء متزمتة في فهمها للغة العربية . صاحب الكلمة هو الشعب ، اي الاستعمال .

ومن المؤسف ان لا تكون تلك الذهنية (ذهنية الفئة المتزمتة) قد طوت صفحتها ، وحاولت ان تلين في موقفها ، مدركةً ان اللغة حياة ، يجب عليها ان تنمو وفق مجالات الواقع . ففي مؤتمر ادباء العرب الثاني ، الذي عقد في سوريا (شهر اوكتوبر) قام الدكتور منصور فهمي ينادي بالذهنية عينها . قال ، في بحث له تحت عنوان « اللغة العربية ومجمع القاهرة » . ما يلي :

لا يضيرنا ان نتوسع في مقاييس اللغة ، ونستزيد من صنعها ، لان ذلك افضل للغة ، وابقى عليها من ان يقتحم سياجها الفاظ غريبة لا تنسجم مع طبيعتها ، ولا تلبث ان تسري في جسدها وتتكيف حول مادتها سريان الداء المميت ، والتكيف المقيت القاتل ... لا تحتاج لغتنا الى الاساليب ، او الى العبارات الاجنبية . ان بامكاننا دائماً ان نطورها من مادتها ، او من اساليبها المختلفة [1] .

اعتراض .

ما من لغة بشرية تكتفي باساليبها ، فقط ، دون ان تحتاج الى العبارات الاجنبية . ولقد دلت العربية ذاتها ، خلال التاريخ ، الى انها مدينة للغات الاجنبية بكثير من مفرداتها العلمية ، وعباراتها الادبية . ان قول الدكتور فهمي ليس علماً . أن نقف في وجه الالفاظ الغريبة وقفة اعتباطية ، فهذا لا يكون افضل للغة العربية ، ولا ابقى عليها . اذا اقتحمت الالفاظ الغريبة سياج العربية ، وتكيفت حول مادتها ، فهو دليل الى ان تلك الالفاظ الغريبة ليست داء مميتاً ... بل الى انها تنسجم مع طبيعة اللغة العربية ... والى ان هذه تتقبل ذلك الاقتحام . ومتى حصل الاقتحام ، كان

---

١) راجع مجلة « العلوم » العدد التاسع . تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ . صفحة ٥٣ وما يليها .

برهاناً عن انه من صميم الحياة. ومنطق الحياة فوق منطق واهمتنا. ان توسعنا في مقاييس العربية ، يجب ان يكون على اساس فتح نوافذها على مروج غير مروجها . والا ما كان للقياس نفع يذكر . ثم يقول الدكتور فهمي ، بامكاننا دائماً ان نطور اللغة العربية من مادتها . ولكن هل يستطيع ان يحدد تلك المادة ؟ ان يعيّن خط بدايتها وخط نهايتها ؟ ويقول ايضاً :

ان ضرورة التساند من اجل سلامة اللغة العربية قد تستوجب تعبئة جميع القوى الفعالة لكي تسخو الحكومات العربية بسلطاتها وامكانياتها ووسائلها ، ويزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ... ان الذوق العام قد يضل ، ويجحد ، وينحرف ، فيصبح بحاجة الى التقويم والهداية . والناس وان خلقوا احراراً ، فان حرياتهم قد قيدتها مثل وحدود ، ومن الخير ان ترد الامور الى مستوياتها في المثل الرفيعة ، وفي الحدود السديدة المنيعة . ومهما يكن للافراد من حق الدفاع عن حرياتهم ، فان للجماعة ومظاهر هذه الجماعة ان تحاسبهم لصالح المجموع . ولعل اكثر الدساتير العصرية ، في زمن الناس الحاضر ، يقيد من حرية الافراد لصالح الجماعات واللغة [1] .

اعتراض .

في كلام الدكتور فهمي بعض الغموض . ما الفرق بين الذوق العام والمجموع ؟ كيف يضل الذوق العام ، ويجحد ، وينحرف ، فيصبح بحاجة الى التقويم والهداية ... وكيف يأتي المجموع بعد ذلك ليحاسب الذوق العام ؟ نحن نعلم ان الذوق العام هو ذوق سليم . وان الذوق العام ينبثق من المجموع ، اذ لا مجموع والا وله ذوق عام . وهذا معناه ان الذوق العام هو الذي تفرضه الحياة ، والحياة صادقة. متى ارتفع الاستعمال الفردي الى مستوى الذوق العام. فصار استعمالا مجموعياً (اي معترفاً به من لدن المجموع) اصبح هذا الاستعمال هو الاحق من غيره . اصبح من صلب الحياة . من صميم الكيان البشري . اذن لا دخل للحكومة ، في مثل هذا الميدان ، الذي هو فوق ارادتها . اجل ، ان الذوق العام اوسع من الحكومة . وهو الذي يفرض هذه العبارة ، او تلك.

---

١) راجع مجلة « العلوم » العدد التاسع تشرين الثاني ١٩٥٦ .

ذلك لانه من قلب الامة ، لامن قلب احكومة . الامة ارحب من الحكومة ، واقرب الى منطق الحياة . والذوق العام ارحب من الفرد ، واقرب الى منطق الحياة . اذا كنا اليوم نقول « تلفن » ولا نقول « هتف » فلأن كلمة «تلفن» يفرضها الذوق العـــام ، الذي هو ذوق سليم ... الذي هو ذوق المجموع ... والذي هو منطق الحياة . ان سلطة الحكومات العربية كلها لا تستطيع ان تطرد « تلفن » لتحل محلها « هتف » . ارادة الامة فوق ارادة الحكومة . ارادة الشعب فوق ارادة الحكومة . والامة هي التي فتحت ميدان الاستعمال لكلمة « تلفن» فاصبح الدخيل اصيلا .هذا هو منطق الحياة ، ولا دخل للحكومات ههنا . يقول ايضاً :

كان كارلوس الخامس المسمى شارلـكان ، يقول اني اذا خاطبت الله ضارعـــاً خاطبته بالاسبانية . واذا خاطبت النساء متحبباً خاطبتهن بالايطالية . واذا خاطبت جوادي زاجراً خاطبته بالالمانية . واذا خاطبت الناس عامة خاطبتهم بالفرنسية . فهل نتغالى اذا قلنا ان هذا العاهل لو كان يعرف اللغة العربية لغني بها عن غيرها في مواقفه الاربعة ؟ فقد جمعت فخامة اللفظ ، وجمال الاسلوب ، الى قوة الاداء ، وفصاحة التعبير .

اعتراض .

هذا الكلام ليس علماً . لكل لغة عبقرية خاصة بها . ولا يعقل ان تجمـــع واحدة منها كل الخصائص العائدة الى الانسان الاكمل . كل لغة تجمع ، على صعيدها الخاص ، فخامة اللفظ وجمال الاسلوب ، الى قوة الاداء وفصاحة التعبير . نكرر ما قلناه لا زعامة في عالم اللغات ، من حيث الجوهر ، ولا عبودية ايضاً . اللغة مرتبطة بالبيئة الجغرافية ، ولا يمكن للغة العربية ان تحوش خصائص كل البيئات الجغرافية (الاسبانية ، والطليانية ، والالمانية ،والفرنسية) ليكون شارلمان قد غني بها عن غيرها في مواقفه الاربعة ، لو كان يعرفها : هذا تزمت عاطفي ، وتحيز اهوائي ، جانحان عن العقل السليم . وهو عين الضرر الذي نوقعه باللغة العربية .

* * *

٢

كردة فعل لهذه الفئة المتزمتة، قام البعض ينادون بعجز اللغة العربية (اساساً) عن كل مجاراة لمستلزمات الحضارة الحديثة . منهم من قال بابقاء التعليم عندنا ــ سيما العالي ــ باللغات الاجنبية ، كي لا ننقطع عن النشاط الفكري . اذا جعل التعليم العالي باللغة العربية ، تنعزل البلاد شيئاً فشيئاً عن الحركة العامة. اذ تصبح اللغة القومية حاجزاً منيعاً دون مواصلة التقدم [١] . ومنهم من قال بابقائنا متعددي الالسنة ، اي متعددي اللغات ــ الام . قال ميشال شيحا:

العربية لغة رائعة ، وهي لغة ملايين من الناس . ونحن لبناني القرن العشرين ، ما كنا من نحن لو أننا تخلفنا عن ان نصبح سادتها ، كما كنا منذ مئة من السنين . ان نعرفهـــا ، ونعلمها باسلوب خاص رفيع ، وبطريقة نحفظ بها – الى جانب هيبتنا ومستوانا – الحظ بان نعطي دائماً العالم العربي اكبر كتابه ، واكبر صحافييه ، واكبر شعرائه ، فذلك انما هو لنا مطمع شرعي .

ولكن الا نلاحظ بداهة ، ان بلداً كلبنان ، اذا لم يتكلم لسانين (أو ثلاثة ان امكن) اقل ما يقال فيه انه بلد ابتر . الحقيقة اننا نختزن هنا ، منذ القدم ، مجموعة من اللغات الحية والميتة . والا ماذا كان بمقدورنا ان نسوقه الى الشرق ، لو لم نأخذ عن الغرب ، والعكس بالعكس . وكيف كان يمكننا ان نحفظ ، وننمي الروابط اللازمة التي يفرضها علينا التعليم في جميع مراحله – والتي توجبها المباحث العلمية ، والاسفار ، والتجارة ، وسياحة لبنانيتنا المهاجرين الى انحاء العالم كله ، فضلا عن الضرورات الحاسمة في السياسة ، التي يوجبها موقفنا الجغرافي – قلت كيف نحفظ كل هذا ، لو لم يكن لنا ، الى جانب اللغة العربية ، وبمقدار

---

١) راجع هذا الرأي للاب لامنس في كتاب فليكس فارس «رسالة المنبر الى الشرق العربي» ص ٧١ .

اتقاننا اياها ، احدى اللغات العالمية ؟ لقد كان لبنان متعدد الالسنة ، قبل اكتشاف الاحرف الابجدية . وهو أمر ، بحد ذاته ، مدعاة تفوق . ومنذ فتح الاسكندر ، ما فتىء لبنان ، بصورة رسمية ، بلداً مزدوج اللغة ، على أقل تقدير ١

هذه الفئة الثانية لا تختلف عن الفئة الاولى . هما شيء واحد، من حيث النتيجة، التي هي قتل اللغة العربية . ترتكز ، كالسابقة ، على نظرة خاطئة في اللغة ... على فصل المبنى عن المعنى . هذه الفئة تتألف من الذين فهموا اللغة العربية ، على اساس سياسي ، ولا دخل للسياسة في فلسفة اللغة . وتتألف ايضاً من الذين جهلوا العربية . اجل ، من الذين جهلوها ، لأن احتلال الاجانب لنا قلب التعليم (سيما العالي منه) فاصبحت العلوم تدرس باللغات الاجنبية . وهكذا زاد عدد الملمين بهذه ، وضعفت الملكة العربية ، فلم يبقَ الا القول بامكان معايشة السنة عديدة في الامة ذاتها .

* * *

ان الرأي القائل بابقاء التعليم العالي في اللغات الاجنبية ، لئلا تنعزل البلاد عن الحركة العامة ، يقوم على فهم خاطىء لهذه الحركة . نقول ، بادىء بدء ، ان تمسك المرء بلغته القومية يجب ان يكون اكثر من عمـــل كتابي ، بمفهوم التجارة . اللغة القومية من جملة المرتكزات الانطولوجية (اي الجوهرية) التي يدافع الشعب عنها ، فكراً وعملا . هي حاجة ايمانية ، ينتفض الوجدان عند مساسها ، بغية الذود عنها .

ولكن الانطولوجي لا يقبل التجزءة . لا يكون في زاوية ، من النفس او الشعب، دون ان يكون في زاوية اخرى . لا يكون في ناحية ، من كيان الامة ، دون

---

١) راجع كتابه Liban d'aujourd'hui ص ٥٥ .

ناحية . الانطولوجي لا يتكسر . لا يتفرفط . لا يتفكفك . لذا لا يمكن للعربية ان تكون لغتنا القومية ، بمعزل عن التعليم العالي . هذا التعليم جزء من الامة ، لا يجوز فصله عنها ، دون تعطيل جوهرها . اللغة القومية هي لغة الدولة كلها . هي لغة المدارس ، في جميع مراحلها ، من ادناها الى اعلاها . هي لغة الصحف ، والكتب ، والمجلات . هي لغة المكاتبات الرسمية . هي لغة الوعظ ، والاوامر . هي لغة النثر ،والشعر ، والقصة ، والرسائل ، والتاريخ ، والقانون ، وتدوين العلوم . هي لغة الناحيتين ، الوجدانية والادارية ، في الدولة . هي لغة الامة اطلاقاً .

وهكذا يبين لنا التناقض الكائن بين ان نقول : يجب على اللغة العربية ان تكون لغة المراحل الابتدائية ، والتكميلية ، والثانوية . وأن نقول : على التعليم العالي ان يبقى باللغات الاجنبية ، لئلا تنعزل البلاد شيئاً فشيئاً عن الحركة العامة . اذا كانت اللغة القومية خيراً في المراحل الاولى ، فهي خير ايضاً في المراحلة الثانية ، اي العالية . اللغة القومية خير ، دائماً ،على الامة . اذ بدونها لا يستطيع الشعب ان يصل الى عفاف الشعور بعلو ذاتيته . بسمو شأنه . بحريته الكاملة . بدونها لا يقدر ان يسهم في الحركة العامة . اجل ، ان الاسهام في الخـــارج ، يجب ان يكون من الداخل . هـــذا هو الاسهام الحق ... الاسهام الايجابي ، الشريف ، الصحيح ، الباقي على الدهر . اما ان يهمل الانسان معطياته القومية ، بغية الاسهام في الحركة العامة ، فهذا تزلف . هذا زنى على صعيد فكري : هذا فهم خطاء لحقيقة الانسان ، وتخريب لبناء قوميته .

الحركة العامة في الخارج ، هي مجموعة حركات خاصة من الداخل : هي مجموعة جوانيات الشعوب ، تفاعلت بعضها مع بعض ، فاذا بهذا المجرى العريض في الخارج ، الذي هو الحركة العامة . اذا هجر كل شعب قوميته ، بداعي الاسهام في الحركة العامة ، اضمحلت هذه الحركة نفسها . لا ندرك ،

في آخر الامر ، الا انسانية هوائية . انسانية لا وجود لها البتة . تلك مثالية خاوية ، فارغة ، مهترئة .

* * *

لانتقال الحضارة ، من شعب الى شعب ، شرط اساسي . أن تبقى لغة الناقل . نعني ان الترجمة هي التي يجب ان تلعب دور الوسيط . معنى ذلك ، ايضاً ، ان لبنان المترجم ينبغي له ان يسبق — في الزمن — لبنان المبتكر . ان رقي الامم الصحيح لا يقوم اولا الا على الاقتباس . الترجمة قبل الابداع ، والنقل قبل الخلق . هذا هو منطق التطور الخلاق ، في حياة الشعوب الناهضة . هنا يبين لنا الدور الخطير ، الذي دعيت اللغة العربية الىان تلعبه ، اليوم . ان اطلاعنا على الحضارة الغربية، لن يحقق فينا روح الفلسفة الغربية ؛ الا اذا ترجمت . لذا يجب على نهضتنا ان تكون في بداءتها حركة نقل ، وشرح ، وتعليق ، والا بقينا مقلدين . وضللنا جادة الحق . هذه النهضة ، العربية اللسان ، قد اخذت ترى النور :

لا ننكر ما في التجربة من مصاعب شائكة . ذلك لأن مسابك اللغة العربية لا تتسع الآن لكل مقالات الفكر . ولكن هذا النقص العارض ، لا يبزر غضّ طرفنا عنها ، بل يجب علينا ان نسايف من اجلها ، فنعجنها من جديد، وندعكها طيباً ، لنجبلها على الكرم . علينا ان نزج بانفسنا في الحاجة الى مختلف التعابير . ذلك لأن الحاجة هي التي تحدونا على ايجاد الالفاظ ، مهما كانت بعيدة المنال . الالفاظ كائنات حية ، لا تخرج الى عالم النور الا من باطن الفكر ، بدافع الحاجة . ان اللغة بنت الالزام ، لا تتطور الا بتطويرنا اياها . فاذا كنا لا نزج بانفسنا في مثل هذه الحاجة ، كي نشعر بضرورة البحث عن الكلمات ، لا نرى كيف نستطيع ان نزود اللغة العربية مصطلحات ، نحن بامس الحاجة اليها .

نعلم كلنا ان افضل الطرق – لمن يريد ان يتكلم لساناً غير لسانه – ان يعيش زمناً بين ظهراني الشعب ، الذي يتكلم هذا اللسان . والمقصود بذلك الاناخة للحاجة ، كي يتمكن صاحب العلاقة من ان يزاول اللسان المرغوب فيه . حينئذ يتغلب على الصعوبات ، التي تعترض القوى البشرية . ان موقفنا اليوم – بصدد اللغة العربية – كموقف من يريد ان يتكلم لغة ثانية . علينا ان نزج بانفسنا في وضع يشعرنا بالحاجة . اذ ذاك نبحث عن مصطلحات . واذ ذاك فقط نجدها .

* * *

لا بد لنا ، في هذا المقام ، من ان نزيل وهماً كم سيطر ، وما زال ، على اذهان الكثيرين . هذا الوهم هو الذي سد باب التقدم في وجه اللغة العربية . على اي شيء يقوم اساساً ؟ يقوم على القول بان اللغة العربية فقيرة بالمصطلحات العلمية ... عاجزة بمفرداتها عن تأدية المستحدثات التقنية ... ولذا ينبغي لنا ان نحافظ على اللغات الاجنبية في التعليم العالي . وهكذا يضربون اللغة العربية بحرم شامل مطلق . هذا القول لا يرتكز ، اصلا ، على قاعدة ثابتة . ذلك لان المصطلحات العلمية لا تكوّن كل اللغة العربية . ان اللغة ، عامةً ، تتألف من (١) مادة فكرية (٢) من قواعد نحوية ، وطرق بلاغية (٣) من مفردات ادبية ، ومصطلحات علمية .

نبدأ بالمادة الفكرية . هذه المادة لا تجد العربية ادنى عقبة للتعبير عنها . ان تلك اللغة تتسع ، وضعاً ، لكل مادة فكرية ، مهما بعدت هذه المادة ، وسمت، ودقت . شأن العربية في ذلك شأن كل لغة انسانية . اذ نكرر ما قلناه سابقاً ، لا اقطاعية في عالم اللغات . لا زعامة . لا ديكتاتورية . لا افضلية لهذه على تلك ، من حيث الجوهر . ان بمقدور لغة الزنوج ان تأتي بما اتت به اللغة الالمانية ، مثلا ، في اعوص كتبها الفلسفية . او اللغة الانجليزية في اشف كتبها

الشعرية . ولكن هذا الاتيان يتوقف على ارادة الشعب الزنجي . ذلك لان المادة الفكرية ليست وقفاً على شعب دون شعب . وبالتالي على لغة دون لغة . هي جوهر عام في متناول كل وجود خاص .

اما القواعد النحوية والطرق البلاغية فهي تتسع ، ايضاً وبكثرة ، في اللغة العربية . شأن هذه فيها شأن كل لغة انسانية تتصف بعبقرية خاصة . لكل لغة روحها ، وبنيانها ، ومجراها . لكل لغة قواعدها النحوية ، وطرقها البلاغية . هذه القواعد والطرق ليست وقفاً على شعب دون شعب . على لغة دون لغة . الفاعل كائن في جميع اللغات . الفعل كائن في جميع اللغات . المفعول كائن في في جميع اللغات . اما ادعاؤهم ان قواعدنا النحوية اصعب ، وطرقنا البلاغية اعوص ، فهو ادعاء خطّاء . الامور هنا نسبية . لكل لغة بنيان ، وروح ، ومجرى ، وعبقرية خاصة بها . فحوى ذلك انه يوجد في كل لغة جوانب صعبة ، وجوانب سهلة . التنوع في العبقرية لا يعني تفاوتاً في القيمة .

نصل الى المفردات الادبية . لا نعتقد هنا ان احداً يجرؤ على اتهام العربية بالفقر. لقد عُرِف شعبها بلطافة حسه ، ونصاعة فكره ، وصفاء ارتقائه . عُرِف بحسن بيانه ، وفصاحة لسانه. وقد عُرِف ، أكثر مما عُرِف ، بشغفه العريض لتعظيم شأن لغته ، مما حداه على الايمان بانها أشرف اللغات قاطبة واوسعها . الحق انها جميلة كل الجمال ، غنية كل الغنى ، مطواعة الى حد بعيد . تتجلى فيها الصنعة الدقيقة ، والشفافة الرقيقة . لقد كان للعرب حس رهيف ، جعله يضع الفاظاً لكل ما شاهده من المعاني ، حتى كثرت المفردات، فجاءت غزيرة جداً. ولو رجعنا الى خزائن تلك اللغة ، نفتش عن الكنوز المدفونة فيها ، لعثرنا على مفردات لا يعبَّر عنها في اللغات الاجنبية الا بعبارات .

عني العرب كثيراً بالتصليح ، والتهذيب ، والاحكام . لم يدعوا فكرة واحدة الا وراحوا يبحثون لها عن وضع في لغتهم . شغفوا الى حد بعيد بتأدية الاغراض ، واظهار المرامي .وقد حاولوا ان تكون الفاظهم اوقع في الآذان،

واحب في القلوب ، واذهب في الدلالة . اجادوا في التركيب اللائق ، وبرعوا في الاشتقاقات القياسية ، وحلقوا في صوغ الفاظ تعبر عما لا نهاية له من المعاني البعيدة . وهي كلها مزايا فائقة ، ممتازة ، تجعل العربية خالدة كسواها. وقد تجعلها عند البعض راجحة على اليونانية واللاتينية :

* * *

تبقى قضية المصطلحات العلمية . هنا بيت القصيد . هنا الملطش الحساس = المصطلحات العلمية هي ما يتذرع به اخصامها للحط من كرامتها ، وابقاء تدريس العلوم الجامعية باللغات الاجنبية .

لا شك ان ميدانها ضيق في العلوم الحديثة . هي لا تقوى ، في شكلها الحاضر ، على ان تعبر عن كل المستلزمات التقنية . ولكن المصطلحات العلمية ليست كل اللغة العربية ، لنرمي هذه بحرم شامل قاطع . المصطلحات العلمية لا تكوّن غير عشر اللغة العربية ، او اقل . وقيمة اللغة ، بمفهومها الدينامي ، هي في وحدة الجملة. قيمتها ، من الوجهة الانطولوجية ، في ان تفسح لنا المجال كي نعبر عن المادة الفكرية ... كي نخفف من لواعجنا ... كي نتعزى بالتعبير، وفي التعبير ... كي نتحاشى احتقان المعاني في الصدر . وقد اوضحنا كيف ان هذه التعزية لا تحدث شبيعة الا في لسان واحد ، اي في اللغة – الام التي هي اللغة القومية . فمن الحيف ، بل من الظلم الانساني ، ان نضحي بالمادة الفكرية ، والقواعد النحوية ؛ والطرق البلاغية – التي تكوّن اللغة ، بمفهومها الدينامي ، والتي تكر عفو الخاطر على اللسان – من الظلم حقاً ان نزدري بها كلها في سبيل حفنة قليلة من المصطلحات العلمية . المادة الفكرية ، بفحواها الواسع ، هي المادة الانسانية . هي التي ترفع شأن العقل ، فيزدهر بها ، ويعلو ، ويتسع :

معنى هذا ان المصطلح العلمي ليس عقبة كأداء . ولا يجوز حصر اللغة فيه ،

والا نكون قد فهمناها فهماً سكونياً ، مومياثياً . لذا كان التغلب على المصطلح سهلا للغاية . هناك الترجمة ، وهناك التعريب . اذا لم نستطع ان نترجم مصطلحاً علمياً اجنبياً بمصطلح علمي عربي ، لجأنا الى التعريب ، فالفظناه كما هو ولكن بحروف عربية . وهكذا يصبح الدخيل اصيلا ، مع الزمن ، اذا كانت شروطه مؤاتية . والا يظل دخيلا بلفظه ، ولا بأس بذلك ، ما دامت هذه الظاهرة طبيعية في لغات العالم كلها . لا عار ، اذن ، اذا اقتسنا بتلك الظاهرة . اكثر من ذلك . نقول بانها الكفيلة وحدها بابقاء اللغة العربية ، خالدة ، بين اللغات العالمية الراقية .

المهم عندنا ان نلفظ بلغتنا — الام المادة الفكرية ، والقواعد النحوية ، والطرق البلاغية. على هذه المعطيات يتوقف جوهر الانسان ، وتقوم انطولوجية اللغة . لا فرق بين ان نقول « تلفون » وان نقول «هاتف» . كمصطلح واحد، في ذات ذاته ، لا نرى فرقاً بينهما . ما دامت كلمة « تلفون » تنطبق على الوزن العربي ، وتمكننا من ان نشتق فعل «تلفن» ... ما دامت الحروف المؤلفة منها (أي التاء ، واللام ، والفاء ، والواو ، والنون) هي حروف عربية ... لانرى فرقاً بينها وبين كلمة «هاتف» . المهم في ذلك هو الاستعمال. والاستعمال اجازها. اذا كانت لفظة «هاتف» لم تستطع ان تصرع لفظة «تلفون» في مجالات الاستعمال، فهذا دليل الى ان اللفظة الثانية ، اي تلفون ، اكثر قابلية للحياة من اللفظة الاولى . اجل ، لا مانع من ان نقول : دَكْتَرَ (Docteur) وأكْسَ (Axe) وكَرْتَزَ (Descartes) ورَوْضجَ (Rodage) وَشَوْفَرَ (Chauffeur)وَبوْمَرَ (Point mort) .لا مانع من ان نعرّب معظم المصطلحات العلمية . لا فرق ، هنا ، بين الترجمة والتعريب .

ولكن الفرق عظيم بين ان نحدد الشيء ، الذي يعبر عنه ذلك المصطلح ، بلغة اجنبية او بلغة عربية . التحديد مادة فكرية . هو جملة ، وفي الجملة وحدة اللغة . فيها تمارس القواعد النحوية ، والطرق البلاغية ، التي تكوّن جوهر

العقل الانساني . هذه المعطيات اللغوية هي التي تحمل طابع الشعب، وعبقريته، وتاريخه ، وكيفية اطلاله الانطولوجي على الحقيقة المطلقة . لا مانع ، بل واجب على التغيير ان يتطرق الى المصطلحات العلمية . اما ان تغير القواعد النحوية ، والطرق البلاغية ... وهذا معناه استبدال لغة بلغة ... فهو تخريب لجوهر الطبيعة البشرية .

المصطلحات العلمية لا تكوّن وحدها بنيان اللغة العربية . هي جُزَيء بسيط من هيكلها الضخم . ومن هنا الخطأ في ان نضحي بالعربية من اجل مصطلحات قليلة العدد . هذا فهم سكوني للغة . هذا جهل منا لفلسفتها .

والاغرب ، من ذلك ، قولنا بان اللغة العربية تقف حاجزاً في سبيل التقدم . جميع الادلة التاريخية ، والاجتماعية ، والنفسية ، تشير الى ان الامة لا تتقدم بمعزل عن لغتها ــ الام . الامة الراقية لا تكون لغتها راقية جزئياً . لا تكون صالحة للادب ، وغير صالحة للعلوم . لِمَ لم تقل اوروبا مثل هذا القول ، في القرن الوسيط ، يوم كانت تتلمذ على يد العرب ؟ الم تكن لغاتها ، عصرذاك ، دون اللغة العربية ارتقاء، وغنى، في المصطلحات العلمية ؟ لِمَ حرصت عليها ، اذن ، ولم تجعل التعليم العالي باللغة العربية ، لئلا تنعزل شيئاً فشيئاً عن الحركة العامة ؟

تسرب الحركة العامة ، من شعب الى شعب ، يجب ان يتم عن طريق الترجمة ، كي تجدي نفعاً في حقلي القومية والانسانية . الترجمة وحدهـا تشعرنا بزخم الامة . تعرفنا الحد الذي يذهب اليه الانفتاح الوجداني . الترجمة تصون قومية اللغة ، وتحافظ على انسانية الفكر . تغني ثروة اللسان بالمصطلحات الجديدة = تُخرجه من قديمه ، وترفعه الى مصاف الالسنة الراقية . ما من نهضة فكرية حقة ، الا وكانت الترجمة اسها . وهذا لا يتم الا اذا تعزز التعليم العالي ، اي الجامعي، فاصبح باللغة القومية . التعليم الثانوي لا يشتمل على نواح تخصصية : فاذا بقيت اللغة الوطنية ، في مستواه فقط ، ظلت نحيلة الجسم . التخصص

لا يقوى الا في المرحلة الجامعية . هنا يواجه الانسان زخم العلوم : يواجه عرمة المصطلحات الغربية . يواجه الفكر في اسمى درجاته . هنا تستطيع اللغة ان تطل على مروج واسعة غير مروجها . بهذا الاحتكاك ، على صعيد شاهق، تخرج اللغة من قيصها العتيقة الى واحدة اجد .

• • •

نأتي ، الآن ، الى الذين يريدون ان يبقى لبنان متعدد اللغات . قد يكون للظروف السياسية اثر في تكوين ذلك الميـــل الكوزموبوليتي ، عند اللبناني ، الذي يعتقد انه للجميع على السواء . الانسانية ، لديه ، غير كائنة في دائرة خاصة . لذا يفضل ان يظل الحيز ، الذي تحاش فيه الحضارات كلها ، دون ان يكون له حضارة . هذا التفكير ، الذي جاء ردة فعل للفئة المتزمتة ، هو الذي حداه على الظن انه ملتقى الالسنة ، كما انه ملتقى الحضارات . ولذا لم يرد ان يلقي مرساته في مرفأ واحد ، من مرافىء اللغة ، فنزع الى التكلم بجميعها .

نريد ان نكرر ، هنا ، ما قلناه سابقاً . اذا كان المقصود بتعدد اللغات (او الالسنة) ان يطلع الانسان ، بالاضافة الى لغته الام ذات المركز الاول ، على لغات اخرى تلعب دور المساعدات لها — دون ان تتعدى حدّ المساعدة — Le biglottisme اذا كان المقصود هو هذا الفحوى ، فنحن ممن يؤيدونه ، لانه ممكن بل واجب في قرننا العشريني . وقديماً قال الحليّ في حفظ اللغات:

بقدر لغات المرء يكثر نفعه وتلك له عند الشدائد اعوان
فبادر الى حفظ اللغات مسارعاً فكل لسان بالحقيقة انسان

اما اذا كان المقصود بتعدد اللغات (او الالسنة) ان يتقن الانسان الاتقان ذاته اكثر من لغته الام — بحيث لا يعود ثمة لغة ام تلعب الدور الاول ،

ولغات اخرى تلعب دور المساعدات لها Le bilinguisme – اذا كان المقصود هو هذا الفحوى ، فنحن ممن يرفضونه ، لانه تخريب لكيان اللطيفة البشرية . اكثر من ذلك ، لانه غير ممكن اطلاقاً .

هذا المقصود الثاني لم يحصل يوماً في تاريخ فرد ، ولا في تاريخ مجتمع ،ولا في تاريخ الفكر الانساني . هنا ، دائماً وابداً ، لغة – ام واحدة . اما الباقية فبنات لها ، اي مساعدات . واللبناني ذاته لم يشذ عن هذه القاعدة . هو Biglotte وليس Bilingue . ذلك لأن من اللبنانيين من تبنوا الفرنسية لغة – ام لهم ، فجاءت الانجليزية او العربية في المقام الثاني . ومنهم من تبنوا الانجليزية لغة – ام لهم ، فجاءت الفرنسية او العربية في المقام الثاني . ومنهم من تبنوا العربية لغة – ام لهم ، فجاءت الفرنسية او الانجليزية في المقام الثاني. المهم ، في نظرنا ، ان هناك لغة – ام واحدة عند اللبناني . وميشال شيحا عينه لم ينحرف عن هذا الاساس ، الذي ندافع عنه ، والذي نعتبره صامداً في وجه النقد . لقد ترسخت الفرنسية في قلب شيحا ، فجاءت اللغة العربية ثانية . ان اللبناني ، كفرد ، لم يستطع ان يكذّب هذا الناموس البشري .

اين الخطأ ، والحالة هذه؟ الخطأهو في ان لبنان ،كوحدة شعب، لم ينسجم مع هذه الحقيقة . هنا وقعت الواقعة ، فشُطّ عن الصواب . لم ندرك قيمة اللغة – الام . لم ندرك الفارق الكائن بين Biglotte و Bilingue . لقد جهلنا فلسفة اللغة ، فكان ان سرنا عكس الواقع البشري ، دون ان ننتبه الى الخطأ التربوي ، الذي ارتكبته مناهجنا التعليمية ... دون ان ننتبه الى الشق ، الذي اقمناه بين اللبناني كفرد ولبنان كوحدة شعب . لقد رأينا ان اللبناني ، كفرد ، ذو لغة – ام واحدة ... إما العربية ، وإما الفرنسية ، وإما الانجليزية : وبذلك يبقى في ظل القاعدة البشرية . ولكن ما هي لغة لبنان الام ؟ سؤال لا جواب عنه ، او بالاحرى ، لا لغة ام له .

لو كانت الفرنسية ، لعممت هذه اللغة جميع نشاطاته الاجتماعية . او كانت

الانجليزية ، لعمت هذه اللغة جميع نشاطاته الاجتماعية . لو كانت العربية ، لعمت هذه اللغة جميع نشاطاته الاجتماعية. اللغة – الام هي اللغة القومية . واللغة القومية لا تتجزأ . لا تكون صالحة للآداب دون ان تكون صالحة للعلوم . لا تكون صالحة في الشارع ، دون ان تكون صالحة في التعليم . لا تكون صالحة في المرحلة الابتدائية دون ان تكون صالحة في المرحلة الجامعية . يوم يبطل المجتمع ان يبتدىء من الفرد، ويبطل الفرد ان ينتهي في المجتمع ... يوم لا يكون ، بين هذه النهاية وتلك البداية ، تلازم وتكافؤ وتزاوج ... يتهافت الكيانان معاً . فلماذا نريد من لبنان ، كوحدة شعب ، ان يعاكس اللبناني كفرد؟ على لبنان ان يكون لبنانياً ، اي عربي اللسان . عليه ان يتبنى لغة – ام واحدة ، شعباً وفرداً .

* * *

نقول ذلك لان اللبنان، الذي نقصد ، هو اللبنان المتفوق . هو اللبنان القائد الموجه، المعلم. ذلك هو الجميل في قول شيحا : إن حظ لبنان ان يعطي العالم العربي اكبر كتابه ، واكبر صحافييه ، واكبر شعراء . قول جميل وحق ايضاً . ان رسالة لبنان موجهة الى العالم العربي. الغرب ليس بحاجة الى لبنان ، كي يستمد منه كتاباً ، وصحافيين ، وشعراء ، من الطراز الاول. ان لبنان تحت سماء الشرق. رسالته ، اذن ، هي للشرق .

ولهذا شروط يجب ان تتوافر، ليكون لبنان من نمط العبقرية . من هذه الشروط عفاف اللسان . ان تعدد اللغات انحراف عن منطق الحياة. من الجائز ان نكون قد اختزنا ، منذ القدم ، وفرة من اللغات الحية والميتة . ولكننا لم نختزنها على قدم المساواة، من حيث القيمة الادائية . لم نختزن يوماً الى جانب اللغة – الام، وبمقدار اتقاننا اياها ، لغة او لغات عالمية اخرى . إما هذه وإما تلك . اما الاثنان ، معاً ، فهذا من ربع المستحيل . هنا خطأ شيحا .

ان تعدد الالسنة ، بمعنى لغة ــ ام واحدة تعاونها لغات مساعدات لها ، اصبح كائناً في بلاد الناس جميعاً . وهو يزيد ، كل يوم ، بفضل انتشار العلم ، واحتكاك الشعوب بعضها ببعض . لقد تداخلت مصالح القوميات ، وترابطت العلاقات ، وتشابكت السياسات . اي بلد يستطيع ، اليوم ، ان يكتفي بلغته القومية ؟ اي انسان مثقف يجرؤ على القول بان لغته ــ الام تحوش كل الآفاق العلمية ؟ اي جامعة ، في العالم ، تهمل آداب اللغات الاجنبية ؟ ولكن الفرق عظيم جداً بين ان نلم باللغات الاجنبية كمساعدات ، وان نضعها على قدم المساواة مع اللغة ــ الام ، من حيث القيمة في الاداء .

للغة ــ الام وزن انطولوجي ، ليس لباقي اللغات ، في كيان الانسان . لهذه قيمة ثقافية ايجابية ، إذا لم تتحرش باللغة ــ الام . ذلك لانها لن تدرك نفناف القلب . لن تلتصق به . لن تمتزج بحميمه . مجالها القشرة البرانيّة ، والمدى الخارجي فقط . اما اللباب النابض ، الذي يفجر من أغواره كنوز النفس ، فهو رهن لسان واحد .. اللغة ــ الام . نكرر ما قلناه ، سابقاً ، بان اللبناني كفرد لم يشذ عن هذه القاعدة الثابتة . الذي شذ عنها هو لبنان، كوحدةشعب. هنا وقع التناقض .. بين الكل والجزء .. بين المجتمع والفرد .. بين الوطن والمواطن . ومتى دب مثل هذا التناقض بين الامة والانسان ، دبّ الخراب في الاثنين معاً .

ما كان تعدد اللغات (Le Bilinguisme) مدعاة تفوق ، في يوم من الايام. ان اللبنانيين المتفوقين ، في تاريخ لبنان ، هم الذين كتبوا باللغة العربية :هؤلاء ساهموا في كتابة تاريخه الكبير . هؤلاء كانوا كتاباً كباراً ، وصحافيين كباراً، وشعراء كباراً . هؤلاء ذكرهم التاريخ . ذلك لانهم وازنوا بين معنى الغرب ومبنى الشرق . بين فكر من عندهم ولغة من عندنا . اما اللبنانيون ، الذين كتبوا بغير العربية ، فاين تاريخهم الكبير ؟ اين خلودهم ؟ اين اثرهم في الاجيال

الطالعة ؟ اين الآداب ، التي تذكرهم بفخر ، واعتزاز ؟ اين تحكمهم بالزمان المروب ؟ ماتوا فماتت معهم الكلمة ، التي سطروها .

* * *

اذا اراد لبنان ان يلعب ثانية دور الاستاذ ، في العالم العربي ، وجب عليه ان يصون عفاف اللغة العربية . ان يصونه في كل ميادين حياته الاجتماعية ، وفي كل مراحل نشاطه التربوي . هذا العفاف لا يجزأ . لا يكون هنا ، دون ان يكون هناك . هو من صلب وحدة الشعب . من صميم روح الامة . من خالص الشعور بالقومية . هذا العفاف في المبنى يولد عفافاً في المعنى . اذ لا يعود لبنان مجموعة فسيفسائية من الثقافات . ثقافة لبنان لا تنفصل عن اللغة العربية . هي لبنانية المعنى عربية المبنى . نقول ذلك ، لأن انجراف لبنان في تيار اللغات الاجنبية ، كلغات ـ ام له ، يبعثر قواه الذهنية . يزيد في شعوره بالدونية . « ان كل من يتكلم لغة اجنبية ، وان كان يتقنها جيداً ، يشعربشيء من الانزعاج ، عندما يخاطببها ابناءها الاصليين [1] » . هذا الكلام ليس من قلمنا . قاله احد علماء الاجتماع ، الذين زاروا لبنان . ومكثوا فيه طويلا . واختلطوا باهله . وعلموا طلابه . وامعنوا في النظر الى احواله . فكيف يريد شيحا اختراق ناموس الحياة ؟ وهل شعر اللبناني،المتأجنب لغةً ، بغير الدونية حيال الاجنبي ؟ شيء طبيعي . ذلك لأن الشعور بالدونية ، من جهة اللغة ، يجر معه شعوراً بالدونية ، من جهة الفكر . والدونية حالة سلبية . والسلبي ، وإن زيد عليه سلبي آخر ، لن يعطي شعوراً بالايجابية .واذا اعطيفبايجابيةذلك السلبي . وهو شعور سلبي ايضاً .

---

١) العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي . تأليف ستيوارت ضود.ص ٣٠٤ . ترجمة فريدنجار، الناشر دار الكتاب ١٩٤٧ .

لقد مر زمن على لبنان ، كانت الناشئة فيه تفتخر بجهلها اللغة العربية . كانت تفتخر بتفوقها في الفرنسية ، والانجليزية . وتتباهى بانها لا تعرف شيئاً عن الآداب العربية . لهذا الافتخار اسباب عديدة ، يرجع اكثرها الى الاحوال السياسية ، التي غمرت لبنان مدة نصف قرن . ولا شك عندنا ان افتخار اللبناني بتفوقه في اللغات الاجنبية ، هو من قبيل العجز في اللغة العربية . هذا اللبناني المتأجنب لساناً (وفئته قليلة الحمد لله) يظل في مرتبة وضيعة جداً ، بين اهل القلم ، بلغة الفرنسيين او الانجليز . ان تفوقه بالفرنسية ، او الانجليزية ، هو تفوقُ لبنانيٍ في لبنان . لا تفوقُ لبنانيٍ في فرنسا ، او انجلترا . اما الذين صفق لهم الغرب ، من اللبنانيين المتأجنبين في الكلمة ، فسألتهم تدعو الى الامعان . ولا نجد ، هنا ، اصح مما كتبه عنهم فليكس فارس . قال :

اني اعرف من رفاق الشباب جبران خليل جبران ، والريحاني ، من العرب الذين كتبوا بالانكليزية . واعرف شكري غانم ، وخيرالله خيرالله ، من الذين كتبوا بالفرنسية ، فاجادوا وصفق لهم الغرب ، والعالم الجديد . ولكن مثل هؤلاء العباقرة ، الذين قلما يجود بمثلهم الزمان ، لم يشتهروا بصفاء لغتهم ، وفصاحة تعبيرهم ، قدر اشتهارهم بروح من الشرق هبت بين سطورهم ، فاعجب بها العالمان . ما كان جبران والريحاني الا رسولي الادب الشرقي الصحيح ، كلا منهما على طريقته ، لدى ابناء المدنية الآلية الجبارة . وما اشتهر غانم الا برواية عنترة ، كما ان خيرالله لم يشتهر الا برواية مجنون ليلى ، وبما عقد عن الشرق من الفصول[1]

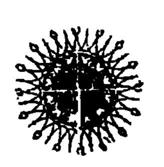
اجل لو رجعنا الى اسلوب هؤلاء اللبنانيين ، الذين كتبوا بغير العربية ، لرأيناه خالياً من عبقرية اللغة الافرنسية او الانجليزية ... خالياً من ذلك الشعور الحميم الراسخ في مواطني تينك اللغتين ... خالياً من ذلك السيال اللطيف ، الذي ينبع من اقلام فرنسية او انجليزية صافية . لا شك في ان لبنانيينا ، المتأجنبين لساناً ، كتبوا لغات الغرب بصيغ صحيحة صرفاً ونحواً . ولكن هذا لا يكفي ليجعلهم يتربعون على دكة الخلود في الادب عند الاغيار . غابت

---

١) رسالة المنبر الى الشرق العربي ص ٧٤ .

عنهم اللطافة القلمية ، التي لا يحصل عليها الا المواطنون الاقحاح . الانسان لا يكتب افكاره باصابعه فقط . ولا بيده . ولا بجسمه . ولا بروحه . الانسان يكتب افكاره بكل هذا . اكثر من ذلك . يكتب بتاريخه . يكتب بدعوة من ارض وطنه . بايعاز من سمائه . بحث من امته . فاذا كتب اللبناني باللغة الفرنسية ، جاءت فرنسيته فرنسية لبناني ، لا فرنسية افرنسي . وهكذا دب الفساد في اللطافة الادبية ، واقفل عليه باب الاريحية المتفوقة .

لقد حان لنا ان نضع النقاط على الحروف . حان لنا ان نزيل وهماً قابعاً في بواطننا . ان الاعتزاز ، الذي يوقظه فينا كوننا نتكلم بلغات كثيرة ، هو اعتزاز خاطىء . هو اغترار فاسد . مثلنا مثل من فقد ظله ، فمشى بظل سواه .



الخاتمة

قلنا بفاتحة الكتاب ان تجربة النقل ، الى العربية ، هي التي اماطت الحجاب امامنا عن خطورة اللغة ... هي التي ارتنا الكلمة افعولا ضخماً في حياة الانسان ، فرداً ومجتمعاً ... وهي التي قادت خطانا ، من ثم ، الى دائرة اوسع من فعل الكتابة ، في مفهومه الضيق . قادتنا الى رحابة التساؤل الانطولوجي عن مدى الفكر ذاته ، مرتبطاً من داخل عينه باللغة المعبّرة . لم يخطر ببالنا ، اول بدء ، سوى الفعل الترجمي العاري ، الذي يرمي فقط الى صب الخاطرة البرغسونية في مسبك عربي . ثم اتسعت الحلقة ، حتى انتهت الى اقصى الماورئيات . حينئذ ادركنا ان اللغة من خواص الفكر بالذات .

ولكننا لم نسلك دروب الجوهريين ، فقط ، الذين يرققون سماكة الوجود ، فيشف كثيراً ، حتى يتناهى ، واخيراً يمحّى . لقد كنا من ذوي الوجودية ايضاً القائلة بوجوب وجود الجوهر المتعالي . والوجود لا يكون الا في حيّز الخاص . لا جوهر الا وهو هابط نحو الوجود . ولا وجود الا وهو صاعد نحو الجوهر . معناه ان الجوهر الذي تقوم عليه الحقيقة ، والذي هو ديدن وعينا ، لا يُدرك بقفزنا من فوق الوجود . هذا الجوهر هو في قاع الوجود . التحليق ، اذن ، بالتسامي الى فوق ، لا يكون الا بالغياصة في الاعاميق . لا انسانية في غير القومية . ولا مثالية في غير الواقعية . ولا فكر في غير اللسان . الانبساط

الفالش هو في القبض الحاصر .تلك هي الجوهرية الملطّفة. وتلك هي الوجودية المعتدلة .

الفكر ، وإنْ تذهّن ، هو دائماً وابداً في مجامر طينية . والعلماء ، لم يعثروا بعد على فكر مغسول . لا كيان لهذا الفكر الا في اللسان . في هذا اللسان ، او ذاك ، او ذلك . خطأ ، والحالة ذه ، ان نعتبر الفكر من الباطن ، واللغة من الظاهر . كل باطن هو ظاهر مكموش ، وكل ظاهر هو باطن مفلوش . تلك هي انطولوجية اللسان . ومن هنا المغالطات ، التي ارتكبت ، والتي قامت على جهل منا لواحدية هذين الاقنومين ... الوجدان واللغة. لقدجرّت تلك المغالطات انحرافات كثيرة في شتى جهات الفكر الفلسفي . وادّت الى نتائج قومية ، وتربوية ، لا تتفق اطلاقاً مع ذات الانسان .

* * *

يبقى اننا لم نقف عند هذا الحد .لقد تخطيناه الى ابعد ... تخطيناه الىالتحدث عن اللسان العربي، ان سمتنا البحثي ، الجامع بين جوهر العام ووجود الخاص ، هو الذي حدانا على ان نضرب في شاسعات هذا اللسان . اجل ، كان لزاماً علينا ، بالنتيجة ، ان نتساءل عنه . لزاماً لاننا لم نؤمن بجوهرية الفكر ، وحده ، دون وجودية اللسان . ان كل بحث في علاقة الوجدان باللغة ، هو بحث في علاقة الفكر باحد الالسنة الموجودة ... في علاقة الانسان بمجتمعه. اذ لا فاصل بين الانسان والمجتمع . الانسان مجتمع مصغّر ، والمجتمع انسان مكبّر .

لم يعد لنا بد من الحوم على لساننا ... ذلك اللسان الذي خصّته الطبيعة بما خصت غيره ، فاذا هو قوة في مصاف ارقى اللغات. كل لغة هي ، بالقوّة ، من ارقى لغات البشر. من ابقاها على الدهر ، اذا اراد شعبها ان تسمو . حينئذ تشبُّ ناهضة من الاعماق . نقول : ليس بين اللغات فوارق عمودية ،

بالاساس ، تجعل هذه دون تلك . لا افضلية من حيث العين والذات . الفوارق فيما بينها افقية . يعني ان دونية البعض هي من قبيل العرض . دونية تعود الى ظروف طارئة عابرة . اذا زالت ، او اشتدت مفاصلها ، ارتفعت اللغة الى القمة ، وصارت من بين المهذبات . لا اوابد ، بين اللغات ، تمنح هذه نعمة من فوق ، وتحرم تلك عافية السمو : القضية هي بنت التطور ، والنشوء ، والارتقاء ، لمن اراد من الافراد . ولمن اراد من الشعوب .
ان العجز ، الذي منيت به العربية ، ليس من صلبها . الظروف السياسية ، هي التي ابتغت هذا العجز . هي التي كانت سبباً للافتراء البغيض عليها ، والتهجم الضغين . هي التي صورتها لنا على غير نسيجها . ولا عجب ان ينال المستعمِر من لغة المستعمَر . ان ذلك يضعف الكلمة عند المحكوم . ومتى ضعف المبنى ، ضعف المعنى ، فانهارت شخصية الانسان . وقدكان واجباً ، على لساننا ، ان يناخ للجو العام . كان عليه ان يخضع للمصير ذاته ، كباقي مقومات الامة ، فخضع . ولكن المجاري تبدلت . ما كان خائراً ، اصبح من القوة بمكان خطير ... السياسة تشتد ، والاقتصاد يزدهر ، والاجتماع يقوى ، والتربية تنتصر ، والادب ينتفض ، والعلم ينتشر ... فكان لا بد للعربية من ان تسير في الركب الحادي . وها هي راكبة ، حادية . انها في طريقها ، مرة اخرى ، نحو القمة البالغة .

• • •

اهو دفاع عن اللغة العربية ؟ اجل ، واكثر من دفاع عن لغة. انه تركيز لبنان في تاريخه الواجب ان يكون. في مجاريه السليمة. انه ضبط قوانا في ثلم واحد من اثلام الكلمة . لبنان لم يصن عفاف اللغة العربية ، تجاه حضارة الغرب . لقد كتبها فعلا ، دون ان يحترمها فكراً . يعني انها لم تدخل الى صلب قراره ، لتصير قاعدة من قواعد استقلاله المادي والمعنوي . ولهذا ضاعت هيبته ، وكان انه

لم يعد المعلم ، والإمام ، في توجيه غيره من بلاد العرب ، كما سبق له ان تمتع به زمناً يسيراً . لقد ذهبت حرارته في الابداع ، وسكن لهبه في النتاج الابقى، وتنازل بذلك عن قسم وافر من استاذيته . هذا واقع حال ، يجب ان لا نزيح لفتة عن اعلانه ، بجرأة وامانة ، على رؤوس الاشهاد ، والا جنحنا عن جادة الصواب ، وكان في حكمنا زيغ وانحراف .

الحضارة الغربية ؟ من ينكر فضلها ؟ من يجهل فعلها الثاقب ؟ من يستطيع ان يشيح بوجهه عنها ؟ تلك الحضارة ، هي التي نقلت العلوم من الكيف الى الكم ... وقعّدت المجتمع على اسس الايجاب ، فجعلت الدين علاقة خاصة بين الله والانسان . تلك الحضارة ، هي التي انجبت ديكارت ، وسبينوزا ، وكانت ، وهيجل ، وماركس ، وبرغسون ... هي التي علمنت الله ، فادركنا قوة الارض ؛ والهت العلم ، فادركنا صحة السماء ... تلك الحضارة ، هي التي نضجت ، خلال عصور وعصور ، حتى عمت الغرب ، ثم افاضت منه على حواشيه ، فاذا بها تنساب في المعمورة كلها . لا حضارة بعد اليوم بدون تلك الحضارة ... بدون ارتكاز على بديهياتها . لقد واجهها لبنان اسوة بغيره من بلاد هذه الرقعة في الشرق . واجه حضارة عملاقة من الغرب، برهنت عن إمامتها ، وفرضتها مدة ثلاثة قرون متوالية . ولا غرو ان يقف لبنان حيالها موقف الآخذ ، فالعالم كله ينسج على منوالها ، في اوقاتنا الحاضرة . لا نستطيع بعد اليوم ان نطوي كشحنا عنها ، اذا ما اردنا ان نساير القافلة الحادية . هذا هو الغرب ، الذي نقصد ، والذي يجب ان نأخذ عنه .

* * *

ولكن ...

لقد وقع انحراف في هذا الاخذ . لم يدرك لبنان ان اتصاله بحضارة الغرب ، يجب ان يكون من حرف العربية . ذلك ليتيسر له اقتطاف ثمر تلك الحضارة ، يانعاً مفيداً ، فيكون فيها من المبدعين . ان حضارة الغرب لا تجدي نفعاً ، إذا

كانت لا تتساوق مع الضوابط التاريخية ، التي كتب على كل شعب ان يكونها اصلا . واللغة العربية هي من جملة ضوابطنا التاريخية ، التي ينبغي لنا ان نقدسها حتى نزاول القيم العالية ، بصدق وامانة . بدون هذه اللغة ، لن يكون لنا عمارات فكرية شاهقة ، نتحدى بها الزمان الهروب . لقد كتب عليها وحدها ان تعبّر عن هسهساتنا الوجدانية . هي وحدها التي ستجيز لنا ان نخلق القبب المتسامية .. ان نمتد في الآتي . ولكننا هوّنا كثيراً مداها الفاعل ، فاخذنا غيرها متسللا الى فلك العقل الصافي .

ان الذين يهزأون بما للتاريخ من سلطة على المرء ، وينكرون هذه السلطة ، يجهلون أن الانسان ذاته تاريخ ... أن جهله لتاريخه تأريخ لجهله . لذا كان الحصول على القيم السامية ، الكائنة في الحضارة الغربية ، يوجب علينا انْ نحتفظ بروابطنا التاريخية . نحن مسددون الى غربهم من شرقنا ، وإلا استعصت علينا غربيتهم ، وخرجنا على شرقيتنا . المشكلة ليست مشكلة تقليد واتباع ، بل مشكلة خلق وابداع . فالذي يجب ان يكون ليس تقليد الغرب ، بل تحقيق روحه فينا . وهذا التحقيق يفرض علينا ان نكبر شأن تاريخنا ، لان الانسان لا يكون ابا للتاريخ ، اذا رفض ان يكون ابناً له . ولا نحدد التاريخ هنا بالذي كان فلم يعد . ليس لهذا التاريخ قدسية عندنا . والذي يتمسك به ، لا يكون غير مقلد . التاريخ المعني ، هنا ، ما بقي من الماضي لخدمة الحاضر . هو معنى الآباء والاجداد، لا الآباء والاجداد ذواتهم . هذا التاريخ هو العلم بمستلزمات الحاضر ، اولا . لولا هذا التاريخ ، لهلك الحاضر ، ولم يبقَ من الماضي شيء خالد .

* * *

لسنا متشائمين ، من حيث مستقبل لبنان ، في ميدان العربية الكريمة . نحن نؤمن بعبقرية اللبناني . وقد بدأ يتزحزح عن ماض قريب ، طويت صفحته ،

بمقتضى ناموس التطور . فلا الفكر كان فكرنا ، ولا اللغة كانت لغتنا . لهذا كنا في عالم الكم عدداً من الاعداد . ولكننا لم نكن ، في عالم الكيف ، شيئاً يذكره التاريخ . امـــا الذي يتروى الامور بعين ثاقبة ، ويبحث عن سبب وهدف لكل حالة ... سلبية كانت ام ايجابية ... يثبت عنده ثبوت اليقين ، أن همود لبنان تحفز مرة ثانية . إن ما نسميه فتوراً ، ان هو الا استجمام ، ولملمة قوى ، وتموين ، في سبيل المعركة المنتظرة ، جرياً على سنة التقـــدم والارتقاء ، التي هي مد وجزر في اطراد موصول :

ان هذا البلد ينطوي على الغام ستنفجر . من يراقب نشاط ابنائه ، يتلمس الفكر الذي يتأجج في جنباتهم ، ويدرك بوضوح مدى الفاعليات الكامنة في اعماقهم . ولا عجب ان يحاول لبنان النهوض من عثاره ، مرة اخرى . فقد اعطى الدليل مثنى ، وثلاث ، على انه الابن الشاطر في ميادين العربية . وهو لا يعجز عن ان يؤديها رباع ، اذا اراد ان يعيد مجد العربية السالف . ويقيننا ان يومه العامر قد اتى ... يوماً يرجع له مدرجه السني في عكاظ الكلمة المجنحة ، ليسمع التاريخ نبراته العالية . لقد فقىء الدمل ، وكمت الأفواه : ان لبنان في تماثل من مرض خبيث . انه في تراجع الى البراء .

انتهى

فهرست باسماء الاعلام

الواردة في هذا الكتاب

فهرست

تصويب الاخطاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٨	٦	امران	امرين
١٦٨	٨	الباقية	الباقيتين
١٧٤	٨	الحكم	الحلم
٢٠٠	١	تسع وعشرون	تسعاً وعشرين
٢١١	الحاشية	كتابه	كتاب
٢١٤	٥	طلابنا الذي	طلابنا الذين
٢١٥	٢٠	توصل	تصل
٢٥٠	١	اللفسفية	الفلسفية
٢٥١	١	فلكلها	فلكها
٢٧٨	١٧	أحكها	احكمها
٢٨١	١٩	لا مجموع وإلاوله	لا مجموع إلا وله
٢٨٥	١٣	المراحلة	المراحل

يتضمن هذا الكتاب — بعد ان اعيد النظر فيها وزيـــد عيلها—مادة الاطروحة الاولى، التي قدمها المؤلف باللغة الافرنسية الى جامعة السربون (باريس) في ١٩ ايار ١٩٤٩ . وذلك بغية نيل لقب الدكتوراه الدولية .